محمد خلفاوي

الإستعلام

رهان حرب صامتة

فتيحة بورويبة

ساعة للنشر JAWAH EDITION

الإستعلام

محمد خلفاوي

الإستعلام

رهان حرب صامتة

تقديم

العميد حسين بن حديد

ترجمة

فتيحة بوروينة

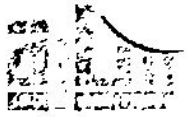

© سارة للنشر

188 مجموعة سكنية (C)، درارية

فاكس : 79 44 26 023

e-mail : sarahedition@hotmail.com

الإيداع القانوني : 2015-5762

ردمك : 978-9931-591-11-5

محفوظة جميع الحقوق

« إن فضل الانتصار والتفوق غير المألوف للأمير الحذق والجنرال الحذر على العدو في كل مواجهة يعود للمعلومة المسبقة. »

سن تزو، "فن الحرب".

تقديم

يدشّن صديقي محمد خلفاوي، بعد مسيرة مهنية في صفوف الجيش الوطني الشعبي، ممارسة ظلت إلى وقتنا هذا محل تجاهل الأوساط الثقافية لاعتبارها من الطابوهات. فهل يعدّ هذا مؤشرا على بدايات انفتاح أو تسامح في دخول مجال بحث آخر ما يزال يطبعه التحفظ ؟ من الواضح أن مصالحنا الإستعلاماتية، وريثة وزارة التسليح والاتصالات العامة "المالغ" المجيدة، استثمرت بشكل واسعفي مجال تكوين إطاراتها، ولأن هؤلاء على إطلاّع جيد بالمراحل التي قطعها زملاء في أماكن أخرى في العالم، فها هم يضعون، بشكل أو بآخر، بين يدي الجيل الذي يعوّلون عليه لضمان الخلافة، كل ما اكتسبوه من مهارات، حتى يعبّر هذا الأخير عن رأيه بكل حرية ومسؤولية.

لقد سمحت تجربتي الخاصة في صفوف جيش التحرير الوطني ومن بعده الجيش الوطني الشعبي بتقدير كفاءة مصالح الاستعلام في مجالات مواجهة هذه الحرب الصامتة والمتواصلة، وقبل ذلك، ومنذ سنوات كثيرة خلت، ساهمت كتابات إخواننا من (المالغ) في تنويرنا بشأن هذه المؤسسة

المعروفة والمعترف بها. واليوم ما يزال أعضاء الجمعية العامة لـ "المالغ" يوفرّون، عبر شهادات حية، بعضها تضمّنها كتاب "المالغ"[1] وهو وثيقة ذات جودة عالية، تساعد على فهم أفضل للتحديات التي رفعها هذا الجيل، والأمل معقود أن يواصل المؤرخون في الاندماج في هذه الديناميكية.

ويعدّ تقديمي لكتاب محمد خلفاوي، انخراط في التساؤل بشأن وضع "فن الإستعلام" وآفاقه الأكيدة التي تفرضها التغيرات الإقليمية تحديدا، فالتهديد صار متعددا، تماما كما فاعلوه، وهو عابر للحدود ويحوز على نفس "التوابل" هنا وهناك، فضلا عن أدوات تنفيذية مدهشة، وقد يكون لهذا التهديد امتدادات خارج الحدود أو في الداخل بكل بساطة. إن توسع وتداخل مجالات المواجهة باتت مميزات أساسية في جغرافيا الصراعات الحالية، فهل التهديدات المتنامية مردّها رغبة كبار العالم في إعادة رسم مناطق المصالح ؟ إن الأخطاء تتكرر بل تتكاثر، والحزام الجهنمي يحاصرنا أكثر فأكثر، و"بحبوحتنا" المالية تضمحّل.

إن مستقبل بلادنا القريب مرهون بمدى قدرتنا على التوصل إلى حلول للنزاعات المفتعلة من جهة، في حال أتيحت لنا مثل هذه المبادرات المنقذة، وقدرتنا على الإقناع، من جهة ثانية، والحاجة ماسة إلى استراتيجية شاملة لمجابهة مفهوم مشترك للفوضى والإضعاف، قد يكون متفق عليه، تعكسه الدعوات الموجّهة إلى قوى كانت فيما مضى استعمارية.

---

[1] المالغ، عبد الحفيظ بوصوف أو الاستراتيجية في خدمة الثورة، تأليف جماعي، دار هومة، الجزائر 2014.

إن التهديد متعدد وغير متجانس، وأسبابه متنوعة تماما كما مجالات التعبير عنه، والجريمة المنظمة صارت تتعايش مع الإرهاب وأحيانا تختلط به في بعض المواضع، وتطال كل الدول وتعيد النظر في مسلمّات تصبح كابحة لأي تحرك. إن القبول المتبادل لفاعلي الإجرام، غير المتجانس أساسا، يعزز فكرة الذهاب نحو إعادة صياغة مفهوم "استعلام الإجرام"، وعدم التحرك صار قاتلا اليوم، أكثر من أي وقت مضى.

ومع ذلك، ومهما كانت طبيعة الجهود المبذولة، تكمّن فعالية مصالح الاستعلام في مدى إشراك المواطن في الدفاع عن مصالح بلاده وأمنها، وهو ما ينتهي إليه السيد خلفاوي كحكم غير قابل للنظر عندما يشير أن « المجتمع المدني هو الجبهة الأولى والأخيرة التي ينبغي أن ينهل منها ويرتكز عليها عمل قطاع الأمن الوطني في جميع الظروف، لكن ذلك لن يتحقق ويكون ذا فعالية حقيقية دون حماية واحترام دولة القانون وحقوق الإنسان في مجال الأمن والدفاع من جهة، واحترام استقلالية القضاء ووسائل الإعلام من جهة أخرى » ألا تتلخّص ماهية الدولة في حد ذاتها، في ضمان أمن وازدهار المواطن ؟

لقد وضع الكاتب محمد خلفاوي حدا لقطيعة لطالما تسببت في عقم التبادلات بين المدنيين والعسكريين، وبتوجّهه نحو الجمهور العريض فإنه يجعل من موضوع الأمن الوطني مسألة تخّص كل المواطنين وهذا من خلال إزالة الغموض عن فعل الإستعلام، عبر مقاربة بيداغوجية استعان فيها الكاتب بصرامة الرياضي، ليقول للقارئ أن الإستعلام نشاط حيوي لا غنى عنه لبقاء الدولة وأمن الأمة والمواطن أساسا، ويدعو بناء عليه، من

يرغبون في الاستماع إليه، إلى تخليص هذا النشاط من الأحكام المسبقة التي تلطخه.

إن فلسفة الاستعلام العسكري بصفة خاصة صارت اليوم موضع نقاش واسع في الأوساط العلمية، إمّا بدعوة من السلطات السياسية أو العسكرية بهدف التفكير في موضوع الاستعلام بصفته علما تجريبيا بامتياز، وجعله يستفيد أكثر من الصرامة العلمية. ومع بقائه يتميز بالسرعة والفعالية صار مبدأ التقسيم المقدس في فعل الإستعلام نسبيا.

إن هذه الخطوة (أي التأليف في موضوع الإستعلام) التي قد تبدو محفوفة بالمخاطر تنضاف إلى مؤشرات تنذر بتقلبات تخبئها الألفية الثالثة أو تفرضها الطبيعة الجديدة لمجتمع المعلومات والاتصال، وهو المجتمع ذاته الذي صار يتطلب، أكثر فأكثر، استرجاع مصالح الاستعلام من أجل تكييف أفضل لأدائها.

العميد حسين بن حمد

تمهيد

تجدّد الاهتمام في السنوات الأخيرة، في ظل سياق دولي تطبعه عولمة أنماط التفكير ونظم الإنتاج والتبادل والحكم، بالمسائل الأمنية بشكل عام وبمصالح الإستعلام بشكل خاص، فمعظم بلدان العالم صارت تعي أن ثمة نوعا آخر من العولمة، هي عولمة التهديدات الناجمة عن الأشكال الجديدة للإجرام العابر للحدود والإيديولوجيات المتطرفة. وفرض الفشل السياسي الذي أظهرته المنظومة الاستعلامية الأمريكية، وما تبعها من اختلالات خطيرة تمّ الاعتراف بها في أعلى هرم الدولة عقب هجمات 11 سبتمبر 2001، وفشل هذه المنظومة في مسايرة تطور التهديد وتنوعه، فرض عودة هذه الدول إلى الذات والتشكيك في المكتسبات والثقة بكل ما توفره مصالح الإستعلام من قوة.

ووجدت مصالح الإستعلام نفسها، بعد انفجار حركة احتجاج كبيرة على المستوى الإقليمي، في البلدان العربية تحديدا، أمام متطلبات جديدة لمجتمعات تطمح إلى التغيير المستمر برزت بشكل فجائي حاد. ولعل السؤال الذي يطرحه كل مراقب فطن هو لماذا لم تتنبأ مصالح الإستعلام العربية

ببوادر الثورات العربية ولم تكن يقظة بالشكل الكافي ؟ لا شك أن الأخيرة، وهي دائمة الحضور في المجتمع والدولة، قد أخطرت السلطات السياسية بالنسيج الجديد لمجتمعاتها وبروز أجيال جديدة متفتحة على العالم لها طموحات ديمقراطية، أليس هذا من دور مصالح الإستعلام ؟

أسئلة كثيرة تطرح على السلطات العمومية في علاقاتها مع مصالح الإستعلام في الدول العربية، هل نحن أمام سلطات لم تُولِ أهمية للتوضيحات الصادرة عن مصالح الإستعلام ؟ ألم تكن تدرك التحولات في العلاقات مع مجتمعاتها، تحولات تجري عادة بشكل تدريجي وأحيانا بشكل خفّي، بالأخص مع بروز أجيال ما بعد الاستقلال ؟ هل خُدعت هذه السلطات بالذين يدعمّون استمرارها في تجاهل النداءات اليائسة لشعوبها الراغبة في افتكاك اعتراف اجتماعي وسياسي بكيانها وتحقيق حلم العدالة الذي كان مصدر ثورات التحرير والانفتاح على كل قنوات ومجالات التعبير ؟ هل هذه السلطات واعية بالتحولات الحتمية التي تجري داخل بلدانها وبالتوازنات الإقليمية التي تلوح بوادرها في الأفق ؟ أم أن الرغبة في البقاء في السلطة مدى الحياة، بعيدا عن فكرة التداول هو ما أثّر بشكل خطير على قدرتها على التميز بين الأمور واستباق الأحداث ؟ مثل هذه الأسئلة والإشكاليات هي التي دفعتني إلى إنجاز هذا العمل الرامي إلى تبسيط مفهوم "سلاح الاستعلام" وجعله في متناول عامة الناس.

لقد أدّى انفجار مجتمعات عربية وإفريقية إلى إرباك قادتها وإصابتهم بالرعب، فنجدهم يتجهّون إلى الغرب طلبا للمساعدة أو التماس حيادهم في أسوأ الأحوال وهم بذلك يعاودون الارتباط بالفكر الاستعماري. إن التفاوض

مع القوى الأجنبية من أجل الاحتفاظ بالسلطة هو هروب إلى الأمام، بل تصرف أحمق إن لم يكن إجراما. ولعل المفارقة الكبرى أن الغرب، الذي يتسم دائما بالواقعية والمصلحة، يظن أنه يساهم في معالجة أوجه القصور في حكم هؤلاء القادة، فيعود بعد نصف قرن من بزوغ "شمس الاستقلال" وهو الذي يدفع القوى الاستعمارية السابقة إلى استخدام السياسة القديمة لـ "الاحتواء"، لنجدة البعض وتخليص البعض الآخر من المأزق.

وعليه، فإن عودة الاستقرار إلى المجتمعات المنتكسة يتوقف على مدى القدرة داخليا على إيجاد الحلول المناسبة لمتطلبات المشهد الذهني والاجتماعي والسياسي، وإن أي توجّه نحو الاستبداد من شأنه تغذية إفراط القادة في الثقة بأنفسهم وهو ما يقف عادة وراء العمي الاستراتيجي.

تبدو الحركة الإسلامية، في ظل هذا التشابك بين الأسباب والنتائج، وهي المتغلغلة في كل البلدان التي اجتاحها "الربيع العربي" واقعة في دوامة العنف الذي يتخذ مظاهر الحرب أحيانا، ولا يمكن لهذا التيار أن يخرج من هذه الدوامة، فأدبيات هذا الأخير، سياسيا، فالميل السياسي نسب من طرف هؤلاء المنظرين إلى ساحة جهاد، ولا شك أن الحصيلة، ولسنا بصدد تقديمها في هذا المقام، ستلقي الضوء على خبايا "إستراتيجية التدمير" التي ترعى العنف اللامحدود بالأخص في الجمهوريات العربية.

ولن يكون التفاؤل ضربا من السذاجة، لو تمكّنت الحركة الأصولية من استخلاص الدروس من النزاعات القاتلة ذات الصبغة الدينية التي شهدها تاريخ الإنسانية. وبعبارة أخرى، ماذا لو استخلصت هذه الحركات، وعلى ضوء إخفاقات الماضي والصراعات والمحن الأخيرة التي مرّت بها الشعوب

الإسلامية بصفة عامة والشعب الجزائري على وجه الخصوص، فتقترح نموذجا للتجديد، يتجاوز المحاولات الفاشلة التي ميزّت تجربة الجبهة الإسلامية للإنقاذ "الفيس" في الجزائر و"النهضة" في تونس و"الإخوان المسلمين" في مصر والسلفيين الوهابيين والتكفيرين الآخرين هنا وهناك.

ويغدو بديهيا أن أي تشكيلة لها أبعاد دولية (ثورية كانت أو إنسانية أو دينية أو اقتصادية أو إجرامية) تشكّل بصفة آلية مجال اهتمام مصالح الاستعلام، التي يكمن انشغالها الأول، للإشارة فقط، في حماية دولها من الأضرار التي قد تلحقها من هذه التشكيلات.

لقد أظهرت الحرب في مالي ورحيل القائد الليبي معمر القذافي استعجالية إعادة النظر في منظومة مراقبة الحدود التي ما تزال تستعين إلى اليوم بوسائل تقليدية وأحيانا بدائية بالنظر إلى شساعة مناطق الساحل الصحراوي، كما أظهر الغياب المأساوي لدبلوماسيتنا وكذا هشاشة المقاربة التي تعتمدها السلطات المختصة بتنظيم السكان على حدودنا، وأبرزت أهمية استبدال نظام تقليدي غير مؤهل بممارسة عصرية للعدالة.

إن التحكم في وسائل المراقبة وعصرنتها، بعيدا عن كل ثناء، لا يمكن أن تكون كافية، وقراءة جديدة لواقع إدارة التجمعات السكانية الحدودية، بعد خمسين عاما من الاستقلال يجب أن تقود إلى رقابة أكثر صرامة وإلى مراقبة أمثل للتدفقات العابرة للحدود، وبالتالي إلى رعاية أكثر فاعلية لهذه المناطق التي تعاني صعوبات مزمنة.

ومن شأن هذه القراءة أن تساعد على استباق الأزمات وجعل الأمن التعاوني أكثر نجاعة وفاعلية، وحتى تكون هذه القراءة ناجعة فهي مدعوة

إلى إيجاد البدائل الملائمة لأنظمة الرقابة التقليدية التي كانت بالأمس هي المثلى. فوجه الصحراء، بعد استقلال العديد من دول المنطقة تغيّر كثيرا بفعل استقرار سكانها وتحضرهم، وتجاهل هذه الظاهرة أو التقليل منها هو لامبالاة وقلة وعي.

تقدر نسبة التعمير بولايات الجنوب الجزائري بحوالي 4 % في الفترة الممتدة ما بين 1998 و 2008 ولا شك أن أشكال التمثيل التقليدية لنظام اجتماعي كان قائما منذ قرون، قد أصبحت على المحك، ذلك أن نظام تمثيل الأهالي الذي كان يتمتع فيما مضى بالشرعية بسبب استقلاله عن الإدارة، يشهد الآن اختلالات عميقة بفعل التحولات الديمغرافية والحضرية والثقافية (ظهور الهوائيات المقعرة، التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال، التجارة الموازية ومختلف أنواع التهريب). لم يعد لنظام تمثيل الأهالي التقليدي القدرة على كبح طموح الجيل الجديد المصمّم على أن يعيش متطلبات حاضره، ولم يعد يلبي تطلعات السلطة المركزية.

إن متطلبات الجيل الجديد في مجال التنمية والحرية هي تعبير عن قوة عمل غير محدودة مقترحة على الحكام، الأمر الذي من المفروض أن يحرّر الطاقات القادرة على رفع تحدي التبعية للمحروقات عوض خنق هذا "التجلي الأسمى للحياة" وبمثل هذه الخطوات تسترجع السلطات مصداقيتها، وبمثل هذه الشروط يمكنها التعبئة باتجاه الكفاح من أجل غد أفضل للمجتمع. والواقع أن حالة الأمن التي صارت مزمنة والمطالب الاجتماعية المشروعة لا تجد بعد الجواب الشامل.

وفي هذا الجو المطبوع بالشكّ والجوار غير مستقر وتعدد الخصوم، تجد الجزائر نفسها مدعوة لدعم جهود السلطات العمومية الليبية والتونسية من أجل وضع حد للانزلاقات الخطيرة التي لا شك لن تتوقف آثارها عند حدود البلدين فحسب. ويتفق أغلب الخبراء على أن الديناميكيات العابرة للحدود تحمل في طياتها عوامل نشر وتضخيم الأزمات والصراعات في إفريقيا.

إن عودة ليبيا إلى دورها كقوة إقليمية وكمستثمر تقليدي في المنطقة، هي من المسائل الاستعجالية التي ينبغي أن تعكف عليها "دول الميدان" (الجزائر موريتانيا مالي النيجر) على وجه الخصوص، فليبيا، البلد الجار والشريك الموضوعي والتاريخي للجزائر، أكثر من مهمة بالنسبة لاستقرار منطقة الساحل.

إن اجتماع المخاطر الداخلية بالنزاعات للدول على حدودنا، لا شك تسترعي اهتمام مصالح الاستعلام، وهذا الدرع الشبيه بمنظومة المناعة لجسم الإنسان تستحق، بناء عليه، اهتمام القارئ أكثر من أي وقت مضى. سيدرك القارئ عبر صفحات الكتاب ومن خلال أمثلة ملموسة، الأهمية الحيوية للاستعلام وتأثيره على مجرى التاريخ.

لقد امتنعت عن الخوض في الموضوع بالاعتماد على الأسلوب القصصي أو النوادر، أو التعرض لعدد الأشخاص الذين كانوا وراء الأحداث الكبرى التي ميزت تاريخ مصالح الاستعلامات، ممن أثّروا فيها أو تحكموا في مصائر بعضها وذلك حتى لا تحجب الأعمال "الاستثنائية" المهمة الشاملة لمصالح الإستعلام. فالكتابة الأدبية المتخصصة نوعا ما، تتولى ذلك.

وتتضمن هذه المساهمة جزأين مرتبطين ارتباطا وثيقا من الناحية الفكرية والعملية :

1) تطور مصالح الإستعلام: يمثل هذا الجزء أهم الفصول السبعة الأولى من الكتاب، ويشمل هيكلة مصالح الإستعلام وتطور وسائلها وتوسّع مجال نشاطها.

2) الكتابة السرّية : ويشملها الفصل الثامن من الكتاب، ولقد كان من غير المعقول تجاهل موضوع "الكتابة السرية" في عمل مصالح الإستعلام باعتبارها وسيلة لحماية الرسائل، نتاج النشاط الاستعلامي. ويستعرض هذا الفصل، بوصف مقتضب، المراحل التاريخية التي مرّت بها الكتابة السرية والطموح في فرض نفسها كأضمن وسيلة للتغلب على القلق الملازم لمخاطر انتهاك سرية الاتصال.

وسيجد القارئ عموما، في الملحق رقم 1 عبر رسومات بيانية، الغاية من الاستعلام وعلاقته باتخاذ القرار. أما بقية الملاحق، فتتضمن أمثلة متعددة للتشفير. ولقد تم الاستدلال بأمثلة مأخوذة من بعض المؤلفات المشار إليها في قائمة المراجع، لإبراز نجاحات وإخفاقات نشاط مصالح الإستعلام الذي تم تكييفه باستمرار مع التحولات التي "فصّلت" التاريخ.

الجزائر، 23 سبتمبر 2013.

الجزء الأوّل

الإستعلام

إن استقاء المعلومات، الموضوع الرئيسي لمصالح الاستعلام، هو نشاط حيوي تمارسه جميع الدول في كل الأوقات وفي مختلف المجالات من أجل السهر على استقرار وسلم وازدهار مجتمعاتها.

وباعتبارها أساس أي قرار، تتعامل مصالح الاستعلام مع المعلومة (الخام) بحذر شديد وقد يشوب الأخيرة التحريف بشكل إرادي أو غير إرادي، ولهذا السبب تخضع المعلومة قبل نشرها إلى تمحيص يمر على مراحل (التقاطع والتحليل والتقييم والنشر) للحصول على المعلومة الاستخباراتية كمنتوج نهائي. وتتحول المعلومة إلى دعامة أساسية وعنصر هام في أي استراتيجية تضعها السلطات المختصة في تحرّكها أو ردّة فعلها أو استعدادها لمواجهة التهديدات حسب الحاجة والظروف.

وتخضع الأخبار (الخامة) إلى التحيين باستمرار، بما يتناسب وتطور الأوضاع، بل ويعاد تقييمها وفق المنهج "الافتراضي-الاستنتاجي" الذي يستبعد الجوانب الذاتية ويقلّص هامش الخطأ. وتشكل هذه العملية المدروسة، دورة الاستعلام، الغاية منها الإحاطة بالحدث الذي تخطر به مصادر الإنذار من أجلال التكفل به.

يستنتج "جورج هنري سوتو" في تحليله المقارن بين الاستعلام والتاريخ بأنه في كلتا الحالتين «لا تكون للوقائع والاستعلامات دلالة كافية في حد ذاتها، إذا لم يتم ربط بعضها بالبعض الآخر»، ولم يتم ترتيبها ترتيبا هرميا، ولم يتم تلخيصها أي استغلالها ويقود هذا الأخير، أي استغلال المعلومة، إلى أبحاث جديدة، في إطار مسار جدلي لا نهاية له، إذا لم يمّكن من الوصول إلى الحقيقة من المستحيل الإحاطة بها.

ويشترك الاستعلام والتاريخ من جهة أخرى في كونهما ينطلقان من معرفة الحوادث الخاصة للوصول إلى استنتاجات عامة ليست علوما استنباطية[2].

إن المقاربة الخلدونية للتاريخ، باعتباره فعل تأمل وسعي دائم للوصول إلى الحقيقة وفعل تفسير بدهاء لأسباب ومرّد الأحداث وفهم وإدراك مآلاتها، تدعّم عملية مقارنته بالإستعلام.

إن فن الإستعلام، تماما كما هو الشأن بالنسبة لعلوم الفيزياء والكيمياء وعلم النفس، يرتكز في عمله على تراكم الملاحظات والحقائق القابلة للقياس، فإنه يستجيب لمعايير نموذج تجريبي، وبالنظر إلى مقاربته الاستقرائية، فإن تطور التفسير يستند أساسا على البيانات التي من شأنها إثبات أو نفي الفرضية المنتظر منها تفسير الحدث. كما هو الشأن بالنسبة لتاريخ الاستعلام ينتق ويمكّن من الإيضاح والرد عن الحدث.

ويتم الاستعانة بالنشاط الإستعلامي في المجال الاقتصادي للحصول على المعلومة ومعرفة عقود الصفقات التجارية والعلاقة بين المتنافسين وحتى بين الشركاء لاكتشاف عامل المنافسة، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يهتم النشاط الإستعلامي أيضا بالخبرة وبالمستوى الذي بلغه الفاعلون الآخرون في الميدان التكنولوجي وفي ميدان البحث والتطوير. إن الإستعلام كمادة إستراتيجية يقدم قيمة مضافة حقيقية لأصحاب القرار في الميادين السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والعلمية على حد سواء.

---

[2] *L'Exploitation du renseignement* (Economica, 2001. ص 11).

إن معرفة الجيوش، أي تنظيمها، وقدراتها الدفاعية والهجومية، وهياكلها القاعدية، يعد أمرا حيويا. ويكون الاستعلام دوما عاملا مضاعفا للقوة أو لتعويض اختلال التوازن. فهو لا يسمح بتحديد توازن القوى المعبر عنه بقوة النيران وبالقدرة على التجنيد فحسب، بل يمكّن كذلك من توقع فعل وردّ فعل الخصم، ومع ذلك فإن فهم أي نزاع لا يتوقف على معرفة العدو ونواياه فحسب لكن الهدف السياسي ووسائل الدعم وحسن التقدير والمنهج الذي ينبغي اتباعه تحدّد طريقة حلّه.

إن النشاط الاستعلامي، بالنظر إلى أهدافه التي تحاط دوما بالحماية على اختلاف أشكالها، هو حرب سرية لا هدنة فيها. وتفرض المعلومة حدا أقصى من الاحتياطات المسبقة من أجل استغلالها فضلا عن حماية قصوى لسريتها ضد المخاطر الدائمة التي تترصدها، فعواقب ذلك وخيمة جدا، ولهذا أنشأت الأمم مصالح سرية لضمان أمن الاتصالات باختراع رموز وتقنيات تزداد تعقيدا يوما بعد يوم من أجل ضمان عدم انتهاك "الشفرة" كما أنشأت الأمم ذاتها في القوت نفسه مصالح يشرف عليها مختصون في فكّ الشفرة (casseurs de codes) وهكذا، وبموازاة الحرب الصامتة التي تخوضها مصالح الاستعلام، ثمة حرب أخرى على قدر واحد من السرية والصمت تجري بين واضعي الرموز ومفكّكيها.

إن القلق الذي يثيره النشاط الإستعلامي، عن حق أو باطل، تقابله تقديرات غاية في الثناء، كيف لا وشخصية بعظمة فريديريك الثاني (1712-1786)، ملك بروسيا، لا تتواني في وصف نشاط الاستعلام بـ "مهنة

الأسياد"، في حين يعتبرها "جان بيار ألام"[3] « الوظيفة (...) التي لا غرض لها سوى المصلحة الوطنية، ولا ينبغي أن يمارسها سوى أولئك الذين يتمتعون بصرامة فكرية وأخلاقية وبدرجة عالية من برودة الأعصاب وحسن التقدير » ويصوّرها أخيرا وليس آخرا الجنرال "راينهارد غوهلن" رئيس مصلحة الاستخبارات السرية الألمانية (BND) قائلا: « إن مهنتنا على درجة من الخساسة لا تمارس إلاّ من قبل السادة. » تكتب لاحقا المديرة السابقة لـ MI5 (مصلحة الأمن الداخلي البريطانية) في الفترة ما بين 2002 و 2007 تقول: « مثل الكثير من المنتسبين، تعلّم زملائي أن يبقون فوق الانتقادات التي تنشرها بعض وسائل الإعلام دون أن يعلموا بها في غالب الأحيان[4]. »

تختلف نظرة المجتمعات إلى النشاطات الاستعلامية « بعضها يقبل بها كأذى لا بد منه، والبعض الآخر يشجعها باعتبارها أداة للتطور أو كـ "سلاح" للسلم يجنّب النزاعات، والبعض الآخر يستخدمها لأغراض قابلة للنقاش كأداة للتوسّع أو السيطرة والقمع[5]. »

ولكونه سري فإن نشاط مصالح الاستعلامات يثير الجدل، الأمر الذي يشوهه ويحّط من قيمته بل يجعله مثيرا للاشمئزاز. فلذا تساهم دراسات

---

[3] J-P. Alem, *L'Espionnage à travers les âges*, éd. Stock, 1977, p. 30.

[4] Lady Manningham-Buller, Securing Freedom, Profile Books, Londres 2012.

[5] Denécé Éric, *L'éthique dans les activités de renseignement*, Revue française d'administration publique 4/2011, (العدد 140), ص 707-722.

في مجال العلوم الاجتماعية في وضع سياسات اتصال من أجل تحسين صورة أجهزة الاستعلام.

ويمكن القول بشكل نسبي، أن تورط مصالح الإستعلامات في الخارج بشكل خاص قد يكون سببا في أزمات محرجة لدولها وقد تكون أيضا مضرة لسلامة علاقاتها الخارجية، هذا ما يدفع إلى ضرورة إخضاعها للرقابة.

سواء كانت برلمانية أو حكومية أو غيرها، فالرقابة إجراء وقائي من شأنه تعزيز مصالح الإستعلام. وهي إضافة لمشروعية عملها ولانسجام نشاطها. هذه الوقاية تزيد في حمايتها في حين يصبح الأمن الجهوي والداخلي معزز نظرا للمزيد من الثقة في العلاقات.

وقد تكون المبالغة في تقدير قيمة مصالح الأمن في حماية بلد ما، مجرد مقاربة صبيانية، فالجيش الذي تنحصر مهمته الأساسية في حماية التراب الوطني، ما هو إلاّ آلة من آليات الأمن. أما الدبلوماسية التقليدية، التي تتمثل مهمتها الأصلية في التوقّع، تساندها في ذلك "الدبلوماسية الموازية أو السرية" وهذه الأخيرة تحضّر لها الأرضية في أغلب الأحيان وتحافظ على علاقاتها مع الدول الأخرى ضد أية انتهاكات محتملة للقانون الدولي، هي المسؤولة على حماية بلدها ضد كل ما من شأنه أن يضعّفها، إنّ انتصاراتها، حتى وان لم تكن دوما نهائية، فهي استراتيجية للغاية.

إن الظروف وخصوصية المهام والطموحات تملي الخطوة لكل مصلحة التي تجعلها تتكيّف مع تطور السياق الوطني والدولي. وفي النهاية من تقدير التهديد المحتمل الذي يحدّد نوع ردود الأفعال الواجب اتخاذها، تبرز الهياكل القادرة على الاستجابة لمتطلبات المعركة المرتقبة.

بغض النظر عن بعض الهواجس التي نشير إليها هنا، تسهر الدول الحديثة على إرساء الفكر الحيوي للاستخبارات في مجتمعاتها. ويعكس تعريف الدولة هذه القناعة مهما كان مصدره. وفي هذا السياق، يعرّفها "هنري كيسينجر" كالتالي : « الدولة تعبير عن مفهوم للعدالة يجعل تنظيمها الداخلي مشروعا، وسلطة توفي بأداء عدة وظائف دنيا من أجل حماية مواطنيها من الأخطار الخارجية والاضطرابات الداخلية[6]. »

لقد أصبح تنظيم مصالح الاستعلام في العالم، منذ زوال الاتحاد السوفياتي، يظهر أكثر فأكثر تشابه وكأنه يتجه نحو هياكل تختلف عن بعضها البعض إلا فيما يتعلق بالوصاية أو آلية مراقبتها. إذا كانت الأهداف نفسها، فقدراتها تظل رهينة الوسائل ودائرة التأثير لدولها. عند بعض هذه المصالح لم نعد نتكلم عن مصلحة الاستعلام بل عن "مجمع" استعلامي، حيث ترتبط فعاليته بفعالية التنسيق بين الأجهزة المتنوعة التي تشكّله.

يشكّل البحث واستغلال الوثائق المفتوحة للجمهور الواسع والمتخصصة، مثل التقارير والمداخلات العلمية أو التقنية، نشاطا شرعيا يمكن أن يقود إلى بحث معمق موجه نحو مصادر معلومات سرية أكثر دقة، حيث أعوان موظفون متغلغلون، أو منقلبون أو اقتضائيون، يتكفلون باستقاء المعلومة المطلوبة.

---

[6] H. Kissinger, *La Nouvelle puissance américaine*, Nouveaux Horizons, 2003, ص 16.

الاستعانة بالتقنيات الذميمة لاستقاء المعلومات تكون مبررة إلاّ إذا كان الأمن الوطني مهددا بصفة مباشرة أو غير مباشرة. إن العملية تستوجب رخصة مسبقة وممضية من طرف وكيل الجمهورية المختص إقليميا. إن جزء كبير من فن الاستعلام يكمن في اختيار الطريقة الأمثل من أجل عملية فعّالة.

وتختلف أصناف العملاء تبعا لمهامهم (عميل للتأثير، عميل نائم، عميل مزدوج، عميل محرّض...) ويتم استهدافهم على كل المستويات ويُنتدبون وفقا لإمكانياتهم وقدرتهم على الوصول إلى المعلومة بالتأثير، طبعا، على استعدادتهم النفسية بالدرجة الأولى، وإلا على نقاط ضعفهم، وذلك من خلال :

– المال : وهو بمثابة الطُّعم، وهو الأكثر شيوعا ؛

– الإيديولوجية : عامل توظيف عن قناعة ؛

– الإجبار : الإقناع والإكراه عن طريق الابتزاز والمساومة ؛

– الأنا : استغلال العواطف الشخصية (الحب، الحرمان والعدوانية...).

كون إمكانات التوظيف متنوعة ومغرية ومجبرة، لم تنجو أي مصلحة استعلام من الخونة (taupe) والجواسيس، ونذكر على سبيل التوضيح، الحالات التالية :

– كيم فيلبي (Kim Philby) الذي ارتقى إلى المنصب الأول في مصالح (MI6) في الوقت نفسه الذي كان يشتغل لدى مصالح الاستعلامات السرية العسكرية السوفياتية (GRU).

- ويليام كومبيلاس (William Kompiles) الذي كان يزود الاتحاد السوفياتي بمعلومات في غاية السرية عن القمر الصناعي (NH11).

- ألدريش أميس (Aldrich Ames) عميل لـ (KGB)، متغلغل داخل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA).

- المهندس السويسري ألفرد فروانكناخت (Alfred Frauenknecht) كان في خدمة مصالح الاستعلامات السرية الإسرائيلية، وسلّمها مخططات الطائرة المقاتلة الفرنسية ميراج III.

- جوناتان بولار (Jonathan Pollard) اشتغل كمحلّل داخل مصالح القوات البحرية الأمريكية وكان يمدّ المصالح السرية الإسرائيلية (الموساد) بمعلومات سرية من 1984 إلى 1985.

المقدم بوبوف (Popov) من الجيش السوفياتي وكان ينقل معلومات مهمة للغاية إلى وكالة الاستخبارات الأمريكية (CIA) إلى حين إلقاء القبض عليه من قبل مصالح (KGB) عام 1959. وصرّح البنتاغون بعد إعدامه بما يلي: «سمح لنا بوبوف باقتصاد نصف مليار دولار في مجال البحث العسكري.»

اتهمت الولايات المتحدة الأمريكية كل من فرنسا واليابان والاتحاد السوفياتي وإسرائيل وغيرها بالتجسس الصناعي والعكس صحيح.

تنص المادة 24 من اتفاقية لاهاي الصادرة في 18 أكتوبر 1907 المتعلقة باحترام قوانين وأعراف الحرب على أنّه: «يُعتبر اللجوء إلى خدع الحرب والوسائل اللازمة لجمع المعلومات عن العدو وعن الميدان أعمالا

مشروعة.» ولا يمكن للجاسوس المحمي من قبل قوانين البلد الذي يخدمه، أن يستفيد من صفة أسير الحرب.

ولا تنحصر مهمة مصالح الاستعلام في جمع المعلومات فقط، أو ما يسمى عادة بـ "التجسس"، فالعمل السري الذي يستدعي استخدام وسائل ملزمة – يتم اللجوء إليه نادرا أو في حالات قصوى فقط – هو نشاط آخر تلجأ إليه، بأمر أو بتعليمات من الحكم السائد، لإخضاع الشخصيات العنيدة، عندما يتعلق الأمر بتعديل وضع اقتصادي أو سياسي أو دبلوماسي معيّن.

إن المساومة والرشوة والتعريض للشبهة والتسميم والتهديد وحتى التصفية الجسدية و/أو إسقاط الأنظمة القائمة تصبح جميعها وسائل مقنعة من أجل التحكم في القرار. هذا ما حدث مع الوزير الأول الإيراني، الدكتور مصدّق، الذي أراد استرجاع سيادة إيران السياسية، فقرر تأميم ثروات بلاده المستغلة من قبل المملكة المتحدة من خلال الشركة الانجليزية-الإيرانية للبترول، فدفع حياته ثمنا لتلك المبادرة المشروعة التي لم يكن الغرب مستعدا لقبول انتشارها في العالم الثالث، ودبّرت مصلحة (MI6) بالتعاون مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA) من خلال العملية التي أطلق عليها اسم "أجاكس" التصفية الجسدية لمصدّق، وهي العملية التي قادت إلى انقلاب 19 أوت 1953 الذي تزعّمه الجنرال فضل الله زاهدي، في مهمة تم إعداده لها من قبل وكالة الاستخبارات المركزية

الأمريكية (CIA)[7]. ولقد استلهم "ديفيد كامرون" جوابه الأخير من هذه الفلسفة عندما قال: «لا تكلّموني عن حقوق الإنسان عندما يتعلق الأمر بالمصلحة الوطنية.»

والحقيقة أن العديد من مصالح الإستعلام عبر العالم سارت على نفس المنهج لتحقيق أهداف سياسة بلادها. ففي الفترة الممتدة ما بين 1954 و1962، قامت مصلحة التوثيق الخارجي والجوسسة المضادة (SDECE) بإعدام عدد من إطارات جبهة التحرير الوطني. فوكالة الاستخبارات الأمريكية (CIA) في أمريكا الجنوبية بصفة خاصة، وكذا المديرية العامة للأمن الخارجي (DGSE) في إفريقيا، ومصالح (KGB) في محيط تأثيرها، والموساد في البلدان العربية[8]، لم تتردد في اللجوء إلى جميع الأساليب لتحقيق تلك الأهداف. إن الحرب، كما كتب فون كلوزويتز (Carl Von Clausewitz) هي "استمرار للسياسة بوسائل أخرى"[9]. ونسجّل أن أغلب

---

[7] قفل هوارد ستون، رئيس مركز CIA في طهران، بذاته أزرار بذلة الجنرال زاهيدي مباشرة قبل ظهور الأخير في قصر الشاه، على إثر الانقلاب. في :

L'explotation du renseignement, Economica, ص 314.

[8] باستفادتها من المعلومات التي قدمتها لها فرنسا حول تشغيل المحطة النووية التي أنجزتها في العراق (أسيراك، تموز) وبمساعدة على الأرض من قبل هذه الأخيرة من أجل توجيه الصواريخ نحو الهدف، قام الطيران الإسرائيلي بتدمير هذه المنشأة في 1981 (شهادة خدير حمزة، المسؤول السابق عن البرنامج النووي العراقي في قناة "Histoire" TV).

[9] C. V. Clausewitz, *De la guerre*, éd. de Minuit, 1955.

وكالات الاستعلام لها قوات تدخل عسكرية تسمى "القوات الخاصة" مخصصة للمهام غير العادية.

إن تنوع البلدان المستهدفة من طرف مصالح الاستعلام يعكس صورة الحروب غير المنتهية، حيث مفهوم الثقة ومشاعر الصداقة لا يعدو أن يكون "مسائل شكلية". وقد يتحول إلى عقبات أو ثغرات يمكن استغلالها للانتداب أو للتحويل. ففي مثل هذه الحروب الصامتة كل الضربات مسموحة لخدمة المصلحة الوطنية.

الفصل الأول

جذور هيئات الإستعلام

إن من بين أهم الهيئات التي تسمح للسلطات المركزية بممارسة السلطة على كامل ترابها، هي طبعا مرتبطة بأدوات الاتصال. وفي وجود الإمبراطوريات ووحدتها، منذ غابر الأزمنة، مرتبطا أساسا بوسائل الاتصال وعبرها كان وجود السلطة المركزية يظهر من خلال إداراتها المحلية المتصلة بها بفضل مصلحة البريد. وتتوقف سرعة البريد على كثافة مكاتبه ونوعية طرق الاتصال، وعادة ما كان مسؤول البريد في الإمبراطورية يتولى بنفسه تنظيم شبكته للإستعلام، وإن لم يكن هذا الأخير ممثلا للمصالح السرية فكان واقعا تحت تأثيرها.

الإستعلام في قلب الحضارات

كانت مهمة الإستعلام قديما عسكرية بحتة لا تتعدى حدود المعرفة البسيطة للميدان، أو جمع المعطيات التكتيكية.

ولقد ذُكر استخدام الجوسسة في الحروب التي كانت تخوضها الإمبراطوريات القديمة (الحيثيون الأناضول الوسطى وبابل ومصر الفراعنة). وكان حامورابي، مؤسس إمبراطورية بابل، يستعلم قبل خوضه الحروب مع جيوش الأعداء حول قدرات هذه الأخيرة عبر جواسيس يرسلهم مسبقا إلى معسكر الخصم. وأوصى النبي موسى عليه السلام، زعماء 12 قبيلة كانوا معه، بالإستعلام قبل المغامرة حول وضع بلاد كنعان عندما قال لهم : « تعرّفوا على البلد، كيف هو والشعب الذي يسكنه، أهم أقوياء أو ضعفاء ؟ عددهم قليل أو كبير ؟ (19) هل سمعة البلد حسنة أم سيئة ؟ كيف هي مدنه ؟ مفتوحة أم محصنّة ؟ (20) كيف حال أراضيه خصبة سهلة أم صعبة قاحلة ؟ تحلّوا بالشجاعة... »

تعد معركة "قادش" التي واجه فيها رمسيس الثاني جيوش الآنادول الوسطى أن تضع حدا للحضارة الفرعونية لولا الدور الذي لعبه جواسيس الفرعون في إحباط مكيدة الجيش الخصم، تعد مثالا حيا على أهمية الاستعلام وهذا الأخير رغم توظيفه المتأخر سمح لرمسيس الثاني بتجنب مجزرة أكيدة لما تبقى من قواته ولم ينقلب الوضع لصالحه إلا بعد تدخل وحدة من جيش الاحتياط ووصولها ميدان المعركة عبر طريق لم ينتبه إليه جواسيس الآنادول.

و أولى الآشريون (1116 ق م) اهتماما خاصا بمصلحة البريد. لقد أنشأوا طرقا للاتصال لتسهيل حركة البريد ورفعوا من مستوى الاستعلام بإسناد مهامه للضباط.

وكانت قرطاج شمال إفريقيا باعتبارها إمبراطورية تجارية وعسكرية كبيرة تحوز على مرافئ تجارية بالضفة الجنوبية للمتوسط وإلى غاية إسبانيا من ناحية الشمال استخدمتها أيضا لجمع المعلومات. وأقام حنبعل شبكة جواسيس في إيطاليا حيث كان يعيش أحد جواسيسه سرا في روما. ويكتب المؤرخ "ج. ب. ألام" عن هذه الشبكة فيقول: «إن أعضاء هذه الشبكة الأولى التي تم وضعها على ما يبدو في مثل هذه الظروف، كلّفوا بمهمة الاستعلام (الشامل) حول الوضع السياسي والاقتصادي للبلد: الإنتاج الزراعي لوادي "بو" والجبال المحيطة به والخصائص الإثنية والروح العسكرية لشعبه وطبيعة العلاقة بين "بو" وروما، إلى آخره[10].» ولم تتمكن روما من رفع رأسها في وجه الجنرال القرطاجي بفضل العمل الهائل لشبكة الاستعلام. ألم يهدد حنابعل بالاستيلاء على روما بعدما تلقى دعما من فرسان نوميديا.

ولقد ألهمت طريقة قتال الجنرال حنبعل المسماة الاستراتيجية غير المباشرة إلى غاية القرن الـ 20 منظري الفن العسكري من أمثال "ليدل هارت" (السير بازل). وتوقف من جانبه "سبينوزا" في كتابه (المعاهدة السياسية) عند الجانب التنظيمي والقيادي للجنرال حنابعل عندما يقول: «لم يشهد جيش حنبعل انشقاق والذين اعتبروا هذا الوضع علامة فخر تحسب له كانوا على حق.»

---

[10] ج. ب. ألام، المرجع السابق، ص 43.

وراحت الإمبراطورية الرومانية تهتم بسلاح الاستعلام تحت وطأة الهجمات المتكررة والانتصارات المتتالية للجيش القرطاجيني. ولم يتمكن "سيبيون" الإفريقي من وضع حد لسيطرة قرطاج على المتوسط إلا بعدما اعتمد في إدارة القتال على الاستراتيجية غير المباشرة وتدعّم بمصلحة استعلام جد منظمة. وواصل نجله بالتبني "سيبيوس إيميليان" نهج الوالد فأحرق "الرمز الإفريقي المقدس".

وأسند سيزار لاحقا مهمة الاستعلام بعد تطويرها إلى أقرب معاونيه، وصارت مهمة جمع المعلومات مضمونة من قبل مورّدي الجيش فيما تولّى الجنود مهمة الاستعلام العسكري التكتيكي.

وحسب المؤرخ "أ. ج. توينبي" فإن الإمبراطورية الرومانية استلهمت من النظام الفارسي، فاستخدمت موزعي البريد كجواسيس ويقول: «كان مبعوثو الحكومة الإمبراطورية ممن كان يطلق عليهم الاسم اللطيف "فريمنتاري" أي ضباط الشرطة السرية، وهم بمثابة ما يسمى بـ "عين الإمبراطور الفارسي"، بزيي روماني. وكانت مهمتهم الإدارية، أي إدارة مصلحة البريد الإمبراطوري، موازاة للمهمة السياسية للتجسس[11].»

ولعبت الحاجة إلى المعلومة التكتيكية في تلك الأزمنة الغابرة في التاريخ وضعف منظومة الاتصالات والتزام الجيوش بالتدخل الجسدي والمحدود ميدانيا، دورا في إبقاء الاستعلام في تمظهوراته الأكثر بساطة، ولم يتحول

---

11 A. Toynbee, *L'Histoire, éd. Elsevier Sequoia*, 1978, ص 407.

فن الاستعلام إلى سلاح إلا بفضل قادة استثنائيين وغالبا ما كان هذا السلاح يختفي باختفاء هؤلاء بسبب عدم هيكلته.

هيكلة مصالح الاستعلام

لم يتم إنشاء مصلحة للاستعلام إلا تحت حكم "سيروس" (القرن السادس قبل الميلاد) في عز الإمبراطورية الفارسية التي أعقبت الآشوريين. وكان "سيروس" يدرس قبل اجتياح أراضي جديدة العلاقات الخاصة بهذه الدول (التجسس السياسي) في محاولة لعزلها بشراء حلفاءها، وهو ما يذكرنا بالقائد النوميدي "يوغرطة" الذي كان على علم مسبق بكل ما كان يهمه في روما وقد صرح قبل مماته.: «يا مدينة للبيع! ستختفي قريبا إذا وجدت من يشتريها.»

وكان "أكسرسس" (ملك الفرس (465/486 قبل الميلاد) وهو ابن "دايروس الأول" الذي منح الإمبراطورية الفارسية تنظيما ضَمَن لها الديمومة، كان يعتبر «أنه عوض تنفيذ حكم الإعدام في الجواسيس الموقوفين، وهو مالم يكن يقللّ من قوة العدو في شيء، الأجدر اطلاع هؤلاء على القوة الهائلة لجيشنا والسماح لهم بالعودة إلى الذين أرسلوهم لحثهم على التراجع عن خططنا» لم تأت هذه الأفضلية بالنتائج المرجوة بدليل القضاء على الأسطول الفارسيفي "سلامين" العام (480 قبل الميلاد) على يد اليونانيين بسبب اطلاعهم على استعدادات الفرس لاجتياح بلادهم.

وفرض توسّع الإمبراطورية إنشاء هيئات تحفظ سلامتها، وتمثلت الأدوات التي كانت تسمح بالانسجام داخلها مثلما يكتب "أ. توينبي" هي تلك

الطرق الكبرى التي كانت تتجه نحو "سوز" وتقطع الإمبراطورية في كل الاتجاهات (...) كانت طريق الإمبراطورية الكبرى، مدعّمة كل عشرين كيلومتر"[12] بمراكز بريد وفنادق ممتازة تستقبل المسافرين، وفي كل هذه الأماكن كان المسافرون محط مراقبة صارمة. وكانت كل مراكز البريد مجهزة بريد الخيل مهمتها توصيل الأوامر الإمبراطورية والرسائل الرسمية بسرعة وتم استخدام قادة القلاع وضباط الجيش في كل المدن كأعوان للمراقبة : « وأدى نظام جد متطور في الجوسسة[13]. » يدعى "عين الملك" إلى مراقبة فعّالة.

وفي نفس هذه الفترة تم هيكلة الإستعلام في الشرق الأقصى كفن وفلسفة. ففي الصين، وخلال عهد "الممالك المقاتلة" (481-221 قبل الميلاد) كان يدور الحديث حول مديرية للجوسسة الوطنية تحت قيادة ضابط اسمه "سن تزو" (القرن الخامس قبل الميلاد)، مؤلف اقدم كتاب حول القتال بعنوان "فن الحرب" أعدّه لحساب جنرالات يشتغلون على المتابعة الذكية للحرب لتحقيق النصر، وفيه يحذّر : « إن جيشا بلا عملاء سريين هو تماما كشخص بلا عيون وآذان. » قبل أن يختم : « إن فضل الانتصار والتفوق غير المألوف للأمير الحذق والجنرال الحذر على العدو في كل مواجهة يعود للمعلومة المسبقة. »

---

[12] وحدة قياس عند قدماء الفرس والمصريين تعادل 5 000 مترا تقريبا.

[13] المرجع السابق. صفحة 406.

وللحصول على هذه المعلومة المسبقة يضع "سن تزو" تصورا لشبكة البحث والإستعلام يدور حول خمسة (5) أنواع من العملاء:

1. العملاء المحليون، رعايا الدول العدّوة الذين نستخدمهم ؛

2. عملاء الداخل، موظفي الأعداء، ممكن توظيفهم من بين العملاء المعزولين، ممن تم الاحتفاظ بهم خطأ، في مهام بسيطة لمدة طويلة وأظهروا حرصا شديدا على الثراء، متقلّبون أو مخادعون أو بوجهين يترقبون دوما من أين ستهب الريح. مثل كل هؤلاء يمكنك الاطلاع سرّا على وضعيتهم المادية ومن ثم إحاطتهم بالذهب والحرير لربطهم بك ويمكنك الاعتماد عليهم فيما بعد في الكشف عن الوضعية الحقيقة التي تمر بها بلادهم والاطلاع على المكائد التي تخطط لها دول معينة ضدك وبإمكان هؤلاء إثارة الانشقاقات بين الحاكم ووزرائه ؛

3. العملاء المزدوجون هم جواسيس أعداء نوظفهم ؛

4. العملاء القابلين للتصفية وهم من جواسيسنا الذين نمدّهم عمدا بمعطيات مزوّرة فإذا ضبطوا في ميدان العدو سيكشفون، لا محالة، عن تلك المعطيات الخاطئة التي يعتمد عليها العدو ؛

5. العملاء الأحياء، وهم الذين يعملون لصالح بلدانهم ويتسللون عند العدو لجمع المعلومات، وهؤلاء يجب أن يتحلوا بالنبل والذكاء والرزانة والطيبة والهدوء والشجاعة والقدرة على تحمل الجوع والبرد والإهانة. وإذا

رغبوا في تجنب لفت الانتباه يجب أن يضيفوا إلى هذه الصفات مظهر الأغبياء[14].

عندما تكون الشبكة نشطة، فإن جمع المعلومات يصبح كجمع السمك إذ يكفي جرّ حبل واحد فقط لنحصل على كل الشبكة، ويطلق على هؤلاء العملاء تسمية "كبة الخيط المقدسة" ويمثلون كنز الحاكم.

ناصحا بشأن طرق اكتشاف عملاء الأعداء الذين يأتون للقيام بنشاطات تجسس ضدك يتمم "سان تزو" تنظيم مصلحة الاستعلام بإنشاء هيئة أخرى للجوسسة المضادة.

ويعطي "كوتيليا" (القرن 4 قَ م) في الهند عبر كتابه "أرتا ساسترا" أي الازدهار والبحث، مفهوما آخر للاستعلام ونظرة نبيلة أخرى توجه المصالح نحو أعمال تفتح أمام الأمة طرق التحرر. ونجد في هذا الميثاق السياسي والعسكري أن التسميم والأعمال السرية يوضعان في خدمة الفعل السياسي من أجل التطور.

---

[14] يحكي "ف. أغرنوفسكي "فيروايته" اعترافات جاسوس روسي" عن سلوك عميل من الـ "كجيبي" تبعا لتعليمات "سنتزو" يدعى "غوردن لانغسدال" وهو من هواة لعبة الشطرنج: «كنت ألعب الشطرنج بشكل متوسط بالنسبة للسوفياتي ولكن بالنسبة لإنجليز تلك الفترة لم أكن سيئا للغاية، وكنت أتغلب على كل زملائي من رجال الأعمال، ما كان يضعني محل شبهة، مع أنه لم أكن أملك الحق في كشف نفسي ».

رفعت بيزنطة (395-1453)، أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية، الإستعلام إلى مصاف مصلحة لذاتها، يؤمن خدماتها بشكل قاعدي ودائم ضباط وأعوان استعلام، ولأنها كانت مثل غيرها من الإمبراطوريات الكبيرة، محط تهديد دائم ومحل أزمات خطيرة داخلية دينية واجتماعية وحروب مشتعلة على كامل حدودها، فإنها وظفت ضباط مهمتهم الوحيدة هي ممارسة التجسس. ولم تكن مصلحة الإستعلام في بيزنطة تحت حكم "جوستينيان"، الذي حاول بدون جدوى إعادة تشكيل الإمبراطورية الرومانية، في مستوى طموحات صانعي القرار آنذاك. وأعاب هؤلاء على "جوستينيان" ضعف شبكته للتجسس أمام قدرات مصلحة التجسس الفارسي المضاد. وفي هذا الجو المشحون بالنزاعات بين الإمبراطوريات كانت الحرب الصامتة دائمة.

وكتب الإمبراطور البيزنطي (582-602) عن واقع التجسس آنذاك قائلا: «يجب إرسال أفراد الكشّافة الحذرين والجواسيس والدوريات بشكل متواصل بانتظام، للحصول على معلومات بشأن تحركات العدو وقواته وتنظيمه لتجنب المفاجآت[15].»

لقد دافع الإمبراطور البيزنطي بنجاح عن أرضه ضد الفرس، لكن مصلحته للإستعلام لم تخبره بالمكيدة التي كانت تحاك ضده، لقد تعرض

---

[15] يذكره "أ. والدين" في مذكرته لنيل دكتوراه في الدراسات المعمّقة (DEA) جامعة ليل 2. 1999-2000.

للاغتيال على يد جنوده، فالذين كانوا مكلفين بضمان حمايته فشلوا في تأمين حياته. بدأت الإمبراطورية البيزنطية في التقلّص باستمرار أمام هجمات الجيوش الإسلامية بدءا من القرن السابع الميلادي، واختفت بعد ذلك العام 1453 تاريخ استيلاد العثمانيون على القسطنطينية (إسطمبول).

في العالم العربي - الإسلامي

ظل الاعتقاد في العالم الإسلامي أن «حُكممتين أفضل بالنسبة للملك من جيش قوى». وعمد الخليفة معاوية، أثناء حكم الأمويين، مستلهما من تجارب الفرس والروم إلى تنظيم مصالح البريد، وصارت الأخيرة واحدة من هياكل الدولة.

عند العباسيون ومع من تلاهم في عهد الخليفة المنصور (754-775)، الذي كان يتخذ "صاحب البريد" (مسؤول مدير مصلحة البريد) أحد الأعمدة الأربعة للدولة، كان الإستعلام ينشط في مصلحة البريد التي أصبحت تمثل "عيون الخليفة".

وكانت الحكومة المركزية تحت حكم المنصور، تحوز على مصلحة مكنتها من الحصول على معلومات بشأن ولات المقاطعة وبالتالي مراقبتها. وحسب "أ.توينبي" فإن: «البريد تحت حكم الخليفة المنصور تحوّل إلى أحد أهم مصالح الديوان، وصار صاحب البريد أحد أعيان بغداد الأكثر أهمية وتأثير، وكان يشتغل تحت أمرته موظفون من مختلف محطات البريد المنتشرة عبر التراب الممتد للخلافة، في المدن أو على طول الطرق التي تعود إلى الحقبات

الفارسية والساسانية والرومانية والبيزنطية. وكان أعوان البريد وأحصنتهم في حالة تأهب دائم، ولم تتوقف مهام البريد في توصيل الرسائل الرسمية بل نقل الأخبار الدقيقة أول بأول باتجاه بغداد ذات الصلة بالوضع الزراعي والري والحالة النفسية للشعوب المحلية، ونشاط الإدارة في المقاطعات... وكانت التقارير الخطية تصل بانتظام إلى بغداد إلى المكتب المركزي لصاحب البريد. والأخير فور الاطلاع عليها يعد تقريرا يوميا حول الوضع في الإمبراطورية يبعث به إلى الوزير [...] في الواقع كان البريد مكتبا للمراقبة والبحث وكثيرا ما كان يستعين بخدمات عدة جواسيس داخل الخلافة وفي الخارج[15]. »

ويشدّد من جانبه "قابوس بن إسكندر" في مؤلفه "كتاب النصائح" على ضرورة التجسس على العدو، فيكتب: «لا يجب أبدا إهمال إرسال الجواسيس والإستعلام حول ترتيبات العدو، التراخي في اليقظة غير مسموح.» لقد كتب "إبن هديل الأندلسي" عام 1360 قائلا: «إن الحيل أكثر فعالية من الفعل. وقرار يتم اتخاذه بأناة وحكمة أفضل من حركة عنيفة.»

تحت حكم السلاجقة. لم ينجح مؤسس أوّل جامعات العالم المتحضر أبو حسن على (1018-1094)، ووزير لكل من "ألب أرسلان" و"ملك شاه" على التوالي. من الظفر بمصلحة كبرى للإستعلام رغم عبقريته الفريدة واكتفى بشبكة جواسيس. واعتبر أبو حسن علي، وكان يدعى شرفيا بـ "نظام

---

[16] المرجع السابق. صفحة 407.

الملك" أن إنشاء مديرية للبريد أي تشكيل هيئة مركزية مكلفة بتنسيق نشاط الإستعلام وإخبار الملك حول وضعية البلاد، ضرورة ملّحة ويكتب يقول: « أن هذه المراقبة، حساسة ومحط قلق وحرج، يجب أن يتكفل بها رجال يتمتعون بالخبرة، وفن الخطابة والتحرير لن يعتريهم أي تشويه. الهدوء، أو الفوضى، الذي قد يعّم في البلاد يرتبط بهم [...] إن إرسال أعوان الشرطة أو الجواسيس من قبل الأمير، هو مؤشر على عقل صائب وحذر وفطن[17]. »

ويبدو أن نشاط التجسس تمت هيكلته كمصلحة قائمة مبكّرا عند الماغول، وأوصى "خذيج نصر الدين الطوسي" (1201-1274): « يجب على الأمير الاحتفاظ بقدراته على المناورة... يجب على جواسيسه ومخبريه الإستعلام بلا كلل حول كل ما هو مطبوع بختم السرية. »

ومن أجل استدراك العجز المسجّل في قوات جيشه، لجأ مؤسس إمبراطورية الماغول "تموجين" المعروف أكثر باسم "جنكيز خان" العام 1206، ولإنجاح غزواته العسكرية التي كانت تفوق في طموحها بكثير عدد أفراد جيشه (30 ألف إلى 100 ألف عسكري)، إلى تشكيل شبكة استعلام من عملاء متغلغلين منذ سنوات عديدة، وهؤلاء كانوا من جنسيات مختلفة وكانوا يتنكرون في زيّ باعة متجولين أو قارين ويحوّلون المعلومات المستقاة إلى ال "الكوريلتاي" (مجلس الإمبراطور العسكري) عبر "اليام" أي

---

17 N. El-Mulk, *Traité de gouvernement*, éd. Sindbad, 1984, ص 119.

بريد الأحصنة، الذي كان يحصي أزيد من 10 آلاف محطة وقرابة 300 ألف حصان.

واهتمت مصالح الإستعلام الماغولية بشكل خاص بالروابط العائلية بين أمراء الدول المرغوب في غزوها، بهدف تحصيل التعزيزات التي قد يهتدي إليها ملوكهم من أجل الاقتراب عند الحاجة.

وأنجز مشيّدو حضارة (الإنكا) في أمريكا الطرقات ونظموا مصلحة البريد شبيهة بتلك المذكورة في الأعلى، وكان المسافرون التجار يضمنون جمع المعلومات العسكرية والسياسية، لكن إمبراطورية (الإنكا) لم تصمد كثيرا في وجه البحرية الإسبانية القوية فتم القضاء عليها في القرن السادس عشر على يد الغزاة.

وفي هذه الأثناء، كانت أوروبا تشهد تجديدا ثقافيا-اجتماعيا مستلهم من العبقرية الإيطالية، وأفرزت التغييرات في الاقتصاد تحولات اجتماعية-سياسية ساهمت في بزوغ مفهوم الدولة العصرية، كان ذلك عصر النهضة الأوروبية.

الفصل الثاني

ميلاد المصالح السرّية في أوروبا والصين

لم تشعر الدول بالأهمية القصوى لإنشاء وتطوير هيئات الإستعلام إلاّ بناء على تهديدات ذات صبغة استقلالية أو حروب تستهدف وحدتها أو ترغب في السيطرة عليها. وظل الوضع كذلك طول الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، إذ كان جمع المعلومات موجهًا نحو الإستعلام الدبلوماسي والعسكري، ونحو الإستعلام الخارجي والبوليسي. وكان الصنفان الأولين من الإستعلام آنذاك (أي الدبلوماسي والعسكري) من مهام الشؤون الخارجية.

ولم يتم تنظيم الجوسسة وتشكيل مصالح إستعلام قائمة لذاتها إلا بعد هيكلة التمثيليات الدبلوماسية الدائمة. وتحول أول "مكتب" لمصالح الإستعلام إلى سفارة، وأدى ذلك إلى تحسين أداء المصلحة بفضل عامل القرب والاتصال الدائم والتسيير العقلاني للمصادر والتأكد من المعلومة في وقت قصير بل صار البريد الرسمي للسفارات نفسه مصدرا للمعلومات يستدعي الحماية.

وقاد تعميم الكتابة السرية في نفس الفترة إلى تشكل "المكاتب السوداء" مع توظيف الصحافة من قبل مصالح الإستعلام كأداة للتضليل وإقحام شركات تجارية إما لجمع المعلومات أو استخدامها كغطاء للجوسسة. وكأمثلة عن هذه الشركات التي ظهرت في القرن التاسع عشر نذكر :

- مكتب الإستعلام الدولي، العام 1832 في فرنسا ؛
- شركة الهنود في إنجلترا ؛
- وكالات تيودور إيكيل بجنيف العام 1858 ؛
- شركة توحيد ثقافات الشرق الأقصى "جنيوشا" ؛
- ولاحقا شركة "التنين الأسود" في اليابان.

في إيطاليا

لم تكن العلاقات بين دول شبة الجزيرة، رغم كثافتها، يطبعها الهدوء دوما، وأملت حالة عدم الثقة بينها مضاعفة المراقبة انعكس في تنظيم شبكات للمخبرين. ولم تظهر إلى الوجود السفارات الدائمة إلاّ في القرن الخامس عشر الميلادي، وتكون البندقية المدينة-الدولة مصدر هذه المبادرة، وسرعان ما تبعتها الدول المجاورة، ومنها تعمّم تدريجيا نشاط التجسس في كامل أوروبا.

ومع ذلك، لا يمكننا الحديث عن مصالح إستعلام إيطالية قبل إعادة تشكيل إيطاليا أو "الريزورجمنتو" (El Risorgimento) مثلما كان يطلق عليها مؤسسُها "كميلو بنسو" دوق "كافور". وكانت تتطلب الوحدة الإيطالية

تحرير دولها أولا من السيطرة النمساوية، وهو الشرط الذي تحقق بعد ثلاث ثورات تحريرية (1848-1859-1866)

واستخدمت السياسة التي وضعها "كافور" الوزير الأول لمملكة "بييمونتي سردينيا" لتوحيد إيطاليا الدبلوماسية لضمانه دعم القوى العسكرية بالأخص فرنسا وبريطانيا واستفزاز النمسا لحملها على تحرير الدول الإيطالية الواقعة تحت سيطرتها وإعادة إدماجها في المملكة.

ولم يكن مسار توحيد دول شبة الجزيرة ممكنا، مثلما خطط له "كافور" دون حروب تحرير، وهذه الأخيرة كانت ممكنة فقط عن طريق حركات تمرد يحرضّ عليها من داخل الدول المستهدفة أعوان شبكة كافور لزعزعة النظام العام، ويبرّر بناء عليه، التدخل العسكري عرّاب الوحدة، مملكة "بييمونتي سردينيا".

وكان مخبرو المملكة قريبي الصلة بكل سفارات ومحاكم أوروبا «لقد تم تعزيز أهم مدن الدولة البابوية ومملكة نابولي بشبكات إستعلام مكلّفة باختراق الإدارات والجيوش والحركات الوطنية» واقترح من جانبه، القائد العام لهيئة الأركان في أفريل 1855 إنشاء مصلحة للإستعلام العسكري.

في 24 أفريل 1859، أعلنت النمسا الحرب على مملكة سردينيا. وبدأت الحرب التحريرية الثانية في 27 أفريل وانتهت بعد تحرير "لومبارديا" في 11 جويلية من السنة نفسها.

وتدعّمت هيئة الأركان الإيطالية، ربيع 1863، تحسبا لحرب جديدة مع النمسا، بهيئة دائمة لتنسيق عميلات جمع المعلومات، لكن الأخيرة لم

تصمد في وجه قناعة سياسية لم تكن تتصور وجود استعلام عسكري في فترة السلم، وأدى ذلك إلى حلّ الهيئات عام 1866 مع قرار تفعيل الإستعلام العسكري إلا خلال فترة الحملات التي تسبق الحروب.

وظهرت أول مصلحة للإستعلام بداية القرن العشرين تحت مسمّى "Ufficio I" وجاءت لتدعيم مصلحة الاستعلام العسكري ومرافقة التوجهات الاستعمارية التي كانت تملها الحكومة. ويعتقد أن الـ "Ufficio I" هو أب مصالح الاستعلام الإيطالية (ج. أربوا، ملاحظة تاريخية رقم 13، CFRR، Cf2R).

ويعود آخر تنظيم لمصالح الإستعلام الإيطالية، المقررة منذ 1999 إلى شهر أوت 2007، وراحت إيطاليا تعيد ترتيب مصالحها على غرار الدول الغربية من أجل تكييفها مع التهديدات الجديدة التي ظهرت في أعقاب العولمة.

وتوجد مصلحتان للاستعلام: وكالة الإستعلام والأمن الخارجي (AISE) ووكالة الإستعلام والأمن الداخلي (AISI) تنسق عملهما مديرية الإستعلام والأمن (DIS) التي تتبع مصالح الوزير الأول ومكلفة بحماية البنى التحية الحيوية والهجمات الإلكترونية. وتخضع هذه المصالح لرقابة البرلمان عبر ما يسمّى "كوباس" أي (اللجنة برلمانية لمراقبة مصالح الإستعلام) تتشكل من 4 نواب و 4 سيناتورات يُعيِّنهم رئيسا الغرفتين التشريعيتين. ويكون "كوباس" قد تقلّص من حيث أعضاؤه إلى النصف مع حصر دوره في مراقبة الميزانية.

أنشأ "إيفان الرابع" المسّمى الرهيب (1530-1584) بروسيا، والذي يعتبر "الموحد الأكبر لأرض روسيا" عندما شعر بالتهديد وشكّه في محيطه الـ "أوبريتشينا" (Opritchnina). وكانت مهمة الهيئة، وهي إدارة وشرطة في الوقت نفسه، الاستجابة لمبادئ القيصر المقتنع بأن « "الخوف الكبير" هو الأساس الأقوى لسلطة الدولة لجمع الشعوب الضائعة حولها » مثلما يروي "فلادمير فدوروسكي"[18].

وكانت الـ "أوبريتشينا" تضم حسب المؤرخ "غوستاف ويلتر"[19] ألف موظف خصص لهم حيا كاملا بموسكو وعشرين منطقة في المقاطعات، لكنه تم حلّها بعد سبع سنوات من النشاط.

وبالموازاة مع الدبلوماسية السرية، أنشأ القيصر "ألكسيس" (1650) مصلحة سرية أسندت لها مهام تتراوح من مراقبة السفارات الأجنبية في روسيا إلى مراقبة السفارات الروسية في الخارج، بمعنى آخر، حماية روسيا من تجسس الدبلوماسيين الأجانب وحماية دبلوماسييها من أي محاولة تجسس، وهو المبدأ الذي تم فيما بعد ترسيمه وتبنّيه من قبل مجموعة الإستعلام في إطار التعاون.

---

18 V. Fedorovski, *Le Roman du Kremlin*, éd. du Rocher, 2004.

19 G. Welter, *Histoire de Russie*, éd. Payot, 1963, p. 116.

وأقام "بيير الأكبر" (1672-1725) مصلحة إستعلام عسكرية تابعة لهيئة أركان الجيش، وتدّعمت مصلحة الإستعلام فترة حكم الإمبراطور "نيكولاس الأول" (1825-1855) بدائرة التحليل مكلفة بالتفكير في الوضع الروسي. وأعطيت للمصلحة تسمية "فيسشايا بوليسيا" (Vischaya policia) أي (الشرطة العليا).

وعزّز "ألكسندر الثالث" (1881-1894) جهاز الشرطة وإدارات دول الإمبراطورية بإنشاء مصلحة للاستعلام تدعى "أوخرانا" (Okhrana)، كان البروسي "ستيبر" المكلّف بالأمن الداخلي والجوسسة المضادة، أحد منظميها لكنه أفرط في استعمال الأساليب الاستفزازية. وكانت المصلحة حاضرة في المراكز البريدية وتحوز على مكتب للشفرة.

في إنجلترا

يبدو أن التقاليد الإنجليزية في مجال التجسس موغلة في القدم. ففي القرن التاسع تدخل الملك "ألفريد الكبير" شخصيا في عملية جريئة لجمع المعلومات عندما راح يتنكّر في ثوب موسيقي متجوّل في معسكر المحتل الدانماركي بهدف تقييم قوته العسكرية وهو يستعد لغزو أنجلترا [20]، ويكون الملك بمثل هذه المخاطرة العالية قد رسم لرعاياه الطريق الواجب اتباعه.

و في عام 1558، ولأسباب دينية، تعرضت إنجلترا للتحرش والتهديد من طرف إسبانيا وقد كانت الأخيرة في تلك الفترة قوة بحرية. ولم يكن أمام

---

20 In *L'Espionnage à travers les âges, op. cit.*, ص 64.

الملكة لمواجهة هذا العدوان سوى خيار سلاح الإستعلام، فكلّفت "وليام سيسيل"، أحد مستشاريها المقربين بإنشاء مصلحة الإستعلام وإدارة العمل السري. وتم تنظيم المصلحة السرية "دفاع الدولة" وكانت مهامها تشمل الإستعلام الخارجي والأمن الداخلي على حد سواء لتعزيز سلطة الملكة وتأمين إنجلترا.

وصنع "فرانسيس والسينغم" خلفية "و. سيسيل" وهو رجل الآداب والفنون في إنجلترا، من التجسس "النابض الكبير للسياسة". لقد أسس حسب "ج. إتان" و"س. مونيكي" مكتبة كلية الملك في كامبريدج وكرسي اللاهوت في جامعة أكسفورد، ويعود له الفضل في وضع حد للتهديد الإسباني بفضل المعلومات التي كان يستقيها من عملائه.

ويروى في هذا الصدد أن "جون دي" عالم الفلك لدى الملكة يكون قد استقبل رسالة بعث بها "فيليب الثاني" إلى البابا يدعّم فيها الملك الإسباني إرسال بعثة عقابية ضد إنجلترا. وتمكّن "ف. والسينغام" بفضل عمل مخبريه الذين تم توظيفهم مسبقا في إسبانيا، من تأخير الاستعدادات للبعثة عدة أشهر حتى يسمح لبلاده تحضير نفسها للمواجهة.

كان الأسطول البحري جاهزا في ماي 1855 لكن سوء الأحوال الجوية وهيجان البحر حال دون وقوع المواجهة. وشهدت البحرية الإسبانية حالة من الفوضى وساءت قدراتها بشكل واسع. إن مصلحة الإستعلام الإسبانية لم تتحل باليقظة الكافية.

و ظهرت مديرية الإستعلام العسكري العام 1803 تحت اسم "مصلحة الطوبوغرافيا"، وبالطبع كانت مهمتها جمع الخرائط والمخططات والإحصائيات ذات الصلة بجيوش العدو.

وتم إنشاء مصالح الإستعلام المعروفة إلى اليوم باسم (أم 16) و(أم 15) نهاية القرن التاسع عشر. وأطلق على المصلحة الأولى اسم (SIS) أي مصلحة الذكاء السري. وكانت هيئة مدنية تابعة لمكتب الخارجية تنشط خارج المملكة. وانخرطت المصلحة إلى جانب المخابرات الأمريكية (CIA) في قلب نظام حكم مصدّق في إيران عام 1953. أماّ المصلحة الثانية وكانت خليفة (M05) أي المكتب العسكري 5، فكانت مكلفة بالجوسسة ومكافحة الإرهاب والانقلاب، ونجحت رغم الإمكانيات الضئيلة التي وضعت تحت تصرفها، عشية الحرب العالمية الثانية من كشف شبكة التجسس الألمانية التي كانت تنشط فوق التراب البريطاني، وأدى الحادث إلى تعزيز المصلحة وإنشاء الفرع الخاص (SPECIAL BRANCH) لجهاز السكوتلانديار وحدث التنسيق بينهما وامتد لاحقا إلى إدارة الجمارك.

و لتوضيح دور الإستعلام الإنجليزي، يحكى أن عميلين من مصالح الإشارة ذهبا في مهمة حاملين معهما جهاز راديو وكان لزاما عليهما قطع العديد من المقاطعات الحضرية قبل الوصول إلى الوجهة المقصودة. وبعد الوصول إلى القرية الثانية، أوقفتهما الشرطة بهدف مراقبة وثائقهما. لكن الأخيرة أخلت سبيلهما واعتذرت عن الإزعاج وأخبرتهما أن مواطنين بلغّوا عنهما واعتبروهم جواسيس. وتم توقيف العميلين الشابين للأسباب نفسها في القرية الموالية وقرّر العميلان توقيف المهمة باشتراط أن يرافقهما عون

بزي شرطي، لكن ذلك لم يمنع، بعد الاستجابة لمطالبهما من توقيفهما في المحطة الموالية بدعوى أنه تم الإبلاغ عن ثلاثة جواسيس على متن سيارة، أحدهم يرتدي زيّا للشرطة الإنجليزية.

و أعطت دراسة الإستعلام في الجامعة، في إنجلترا وبلا شك في دول أخرى أنغلو- سكسونية للنشاط الاستعلامي حظوة (أو هيبة) ثقافية أكيدة. وكان المواطنون جد فخورين بخدمة بلادهم، بالأخص في الخارج، وكان يمنح لهم لقب "المراسلون الشرفاء" بمعنى مخبرون متطوعون.

وكان توظيف العملاء الإنجليز للرتب السامية على الخصوص يتم من داخل الجامعات الإنجليزية المرموقة وفي أوساط اجتماعية عالية. ويعكس الإنتاج الأدبي والسينمائي في إنجلترا على وجه التحديد، حيث يتم تقديم العميل كإنسان استثنائي، حالة الاعتراف الاجتماعي بالنشاط الاستعلامي والانضمام إليه. فالخيال لا شك يجعل من العملاء أناس كاملين ومثاليين، لكن ألا يستقي الإنتاج الأدبي والسينمائي مادته من الواقع ؟

وفي إطار الرقابة البرلمانية، تم العام 1994 إنشاء "لجنة حول الاستعلام والأمن" ISC (Intelligence and Security Committee). ولم يكن من صلاحيات اللجنة، التي تتشكل من تسعة (9) أعضاء منبثقين عن غرفة

البلديات (أي منتخبون) وممثلين عن أهم الأحزاب السياسية، معالجة الملفات الحساسة[21].

مصالح الاستعلام الإنجليزية

- أمين الديوان (أمين مجلس الوزراء) : Secretary to the cabinet
- اللجان الدائمة للسكرتاريات الفرعية لمصالح الإستعلام :
Permanent Under Secretaries Committee on Intelligence Services (PSIS)
- منسق الإستعلام والأمن : Coordinator of Intelligence & Security
- اللجنة الفرعية لمصلحة الأمن الأولويات والأداء :
Sub-Committee Security Service Priorities & Performance
- جنة الاستخبارات المشتركة : Joint Intelligence Committee (JIC)
- وزير الداخلية : Home Secretary
- مصلحة الأمن (أم إي-5) : Security Service (MI-5)
- وزير الدفاع : Defense Secretary
- فريق استخبارات الدفاع : Defense Intelligence Staff
- وزير الخارجية والكومنولث : Foreign & Commonwealth Secretary
- مصلحة الاستخبارات الأمنية : Security Intelligence Service (MI-6)
- مقر الاتصالات الحكومية : Government Communications Headquarters.

---

[21] A. Walden, *Le Renseignement humain face au développement des nouvelles technologies*, mémoire de DEA, Université de Lille, 1999-2000.

لم يكن بمقدور الإمبراطورية النمساوية-المجرية، كقوة أوروبية، وهي المهدّدة من قبل الدول المحيطة بها، بالأخص إيطاليا وروسيا الباحثتان نفسيهما عن وحدة وطنية، الاستغناء عن مصلحة استعلام مهمة. لقد تم العام 1812 تدعيم المصلحة بإنشاء مكتب للإستعلام العسكري، أصبح يسمّى فيما بعد "فرع (ب)" (Section B) يتبع هيئة أركان الجيوش.

وارتكز نشاط التجسس في الإمبراطورية على مصلحة "مفكّكو الرموز" التي كانت آنذاك الأقوى أوروبيا. وكان البريد الأوروبي يعبر المساحة الواسعة جدا لأوروبا، ويتم اعتراضه وفكّ شفراته قبل إرساله مجددا. وكانت محكمة فيينا بناء عليه الأكثر إطلاع أوروبيا.

و يمكن التخيّل بسهولة، مع هذا التدفق الهائل للبريد، الذي يتم نسخه قبل إعادة توجيهه نحو المرسل إليهم، بعض الأخطاء التي يمكن أن تخون النشاط الاستعلامي «لقد اشتكى ذات يوم السفير الإنجليزي من استقبال نسخ من رسائل وجهت إليه عوض نسخها الأصلية. واكتفى المستشار النمساوي بجواب ساخر: « يا إلهي ! كم هم حمقى هؤلاء الموظفون[22]. »

---

22 G. Etienne et C. Moniquet, *Histoire de l'espionnage mondial,* éd. Félin, 2002.

أسس الملك لويس الخامس عشر دون علم وزرائه في القرن الثامن عشر مصلحة تدعى "سرّ الملك" مكلفة بمهمة خاصة: «تمكين الأمير الكونتي من الجلوس على عرش بولونيا» وهو ما لم يتحقق. فالعرش كان حكرا على روسيا ودول ألمانيا. وتم الاستعانة بالمصلحة لتحضير إنزال على السواحل البريطانية، لكن المهمة لم تنجز أيضا. واختفت المصلحة مع رحيل الملك، ومن أبرز الشخصيات التي نشطها فولتير وبومارشي ولوشوفالييه ديون، وكونت بروغلي ودبلوماسيون آخرون. ولم يول خليفة الملك اهتماما بالمصلحة وأدار الظهر للاستعلام قبل أن تمت تنحيته وإعدامه لاحقا.

و لم تأخذ مصالح الإستعلام الفرنسية المكانة اللائقة بها إلا في القرن التاسع عشر خلال فترة حكم نابليون بونبارت لحاجته إليها في حملاته. وكان الأخير يتابع شخصيا نشاط عملائه ويتدخل عندما يستدعي الأمر لدى وزيره لتعزيز الشبكة في النقاط التي يقّدر أنّها تأثر على طرق حملاته.

وكان الأمن الداخلي والجوسسة المضادة خلال حكم الإمبراطور على عاتق وزير الشرطة "جوزيف فوشي" الذي ابتكر بفضل مناهجه للتحقيق، حيث وضع ثلاثة مبادئ قاعدية[23] في هذا الصدد: تراكم القضايا والاستفزاز لكشف المعارضين وعلم الاستجوابات التي يتم على إثرها استغلال المتستجوبين عوض إعدامهم.

---

[23] J. P. Alem, *op. cit.*, p. 234.

وأسندت مهام مصلحة الإستعلام للعلاقات الخارجية في بداياتها إلى "تاليراند" وكانت تتشكل من شبكات يديرها وزراء في الخارج.

وكانت مصلحة الإستعلام العسكري، ومهمتها جمع المعلومات حول بنية القيادة العسكرية وعدد الجنود وتدريب القوات والبيانات الطوبوغرافية والخرائط، كانت كما يمكن التنبؤ به، الأكثر أهمية من حيث الحاجة إليها. لقد أطلقت العام 1826 وأصبحت العام 1871 "المكتب 2" (2e Bureau). وفي محاولة منه التوصل إلى تنسيق فاعل داخل مصالح الإستعلام الفرنسية أحدث الجنرال ديغول رئيس "فرنسا الحرة" خلال الحرب العالمية الثانية تغييرات متتالية في الجهاز.

و في مطلع العام 1942 أنشأ ديغول "المكتب المركزي للإستعلام والعمل"(BCRA) والأخير تم إلحاقه سنة بعد ذلك ومصالح الإستعلام النشطة داخل فرنسا في هيئة موحدة تحت اسم "المديرية العامة للمصالح الخاصة" (DGSS). واندمجت مجموع شبكات المقاومة بتاريخ 6 نوفمبر 1944 في "المديرية العامة للمصالح الخاصة" التي أصبحت تسمى "المديرية العامة للدراسات والبحث" (DGER).

مصالح الإستعلام الفرنسية

- وزارة الدفاع
- المديرية العامة للأمن الخارجي (DGSE)
- مديرية حماية وأمن الدفاع (DPSD)
- مديرية الإستعلام العسكري (DRM)

وزارة الداخلية

- المديرية العامة للأمن الداخلي (DGSI)

وزارة المالية

- المديرية العامة للإستعلام والتحقيقيات الجمركية
- وحدة معالجة الإستعلام والعمل ضد الدوائر المالية السرية (TRACFIN)

وتحولت المديرية العامة للدراسات والبحث (DGER) العام 1946 إلى مصلحة التوثيق الخارجي والجوسسة المضادة (SDECE) تحت رئاسة الوزير الأول (رئيس المجلس).

وقرر الجنرال ديغول العام 1962 عقب تفجّر قضية بن بركة وضع مصلحة الـ (SDECE) تحت إشراف وزارة الدفاع، عيّن على رأسها المدني "بيير ماريون" وصارت العام 1982 تسمّى "المديرية العامة للأمن الخارجي" (DGSE).

وتخضع نشاطات المصالح الخاصة الفرنسية، فيما يتعلق بالحياة الخاصة للمواطنين الفرنسيين، لمراقبة لجنتين مستقلتين اثنتين: اللجنة الوطنية للمعلومات والحريات (CNIL) التي تراقب الملفات الإلكترونية لهذه

المصالح، واللجنة الوطنية لمراقبة أسرار الأمن (CNIS) التي تسهر على تطبيق القانون الذي يضمن سرية الاتصالات. ويبقى تطبيق هذه التوصيات طي كتمان الجهاز التنفيذي[24].

ويبدو أن دخول الأدب مجال الإستعلام في فرنسا مرّده الرغبة في زيادة الاهتمام بموضوع الإستعلام في المجتمع الفرنسي. وحاول مثقفون ونواب وسياسيون الإسهام بكتاباتهم في تحسين مصالحهم. وفي هذا الصدد كتب النائب "ب. كربون"[25] في رسالة إلى رئيس الحكومة «إن فعالية مصالح الإستعلام ترتكز بطبيعة الحال على مدى التنسيق بينها وكذا مدى الاهتمام بشروط الدخول وتثمين المسيرات المهنية [...] ويجب أن تكون الأخيرة بمثابة عوامل جذب بهدف جلب خيرة طلبة الجامعة وخريجي المدارس الكبيرة وكذا موظفي وإطارات القطاع الخاص. ويتطلب هذا تفكيرا حقيقيا حول القوانين والمسارات المهنية والاتصال العمومي».

ونلاحظ في هذا الصدد انطلاقا من بعض خصائص مصالح الإستعلام البريطانية والأمريكية أن توظيف العملاء المستقبلين يتم بشكل مفتوح في كبريات الجامعات في العالم، ومجرد الاتصال بالمعنيين يعدّ في حد ذاته مفخرة وشرف. إن تلك المصالح تجلب إليها أفضل الطلبة والباحثين.

---

24 A. Walden, *Le Renseignement humain face au développement des nouvelles technologies*, mémoire de DEA, Université de Lille, 1999-2000.

25 المرجع السابق، الصفحة 3.

وبالمقابل يعد الاعتراف الاجتماعي بهذه المهن في فرنسا والاتصال الذكي الذي تقوم به مصالح الإستعلام، من الضروريات التي لم تتخذ الدولة إزاءها يوما الإجراءات المناسبة.

التنظيم الجديد للاستعلامات الفرنسية[26]

و يؤكد الكتاب الأبيض حول الدفاع والأمن على ضرورة إقحام العلوم الاجتماعية والإنسانية في البحث حول المسائل الاستراتيجية: «إن الاستثمار في مجال البحث والتكوين العالي يساهم في فهم جيد لجهاز الدفاع والأمن الوطنيين.»

في ألمانيا

الوحدة الألمانية: الثنائي بيسمارك - ستايبر

كان توحيد ألمانيا حول بروسيا يتطلب في البداية ضمان الاستقرار الداخلي المقوّض بفعل نشاطات "الرابطة الشيوعية" على رأسها "كارل ماركس" و"فردريتش أنجل" ومن بعد ذلك تحرير الدول الجرمانية، الواقعة آنذاك تحت سيطرة الإمبراطورية النماسوية-المجرية لإدماجها ضمن ألمانيا. ولم يكن ممكنا تحقيق هذين الطموحين ذي البعد الدولي دون تحضير من قبل مصالح استعلام لها البعد نفسه.

---

[26] Jean-Claude Mallet, *Livre blanc : Défense et Sécurité nationale*, éd. Odile Jacob, 2008.

وسيأخذ "أوتو فان بيسمارك"، الذي تم تعيينه مستشارا لبروسيا، مصير ألمانيا بين يديه، ولتحقيق أهدافه منح المستشار الأولوية لتنظيم مصلحة تجسس قادرة على التحرك في قلب النمسا. واستعان بيسمارك في مهمته بـ المحامي "كارل إدوارد ستايبر" وكان الأخير يتمتع بذكاء فذ ويقظة لافتة، ونجح المدير السابق للشرطة عقب زيارة لكارل ماركس بلندن في سرقة ملف الرابطة الشيوعية التي سمحت له بالقضاء على أنصار الماركسية.

ويشرح "ستايبر" في تقرير وجهّه للملك "غيوم الرابع" تحت عنوان "المتآمرون الشيوعيون للقرن التاسع العشر" أسباب أعمال الشغب قائلا: «كل هذه المحاولات التي تهدف إلى زعزعة المجتمع هي نتيجة الفقر الذي يستشري في عدد من الدول المعنية، وبناء عليه فإن السلاح الفعّال لمحاربتهم يكمن في تعليم أمثل وأجور أفضل للعمال[27].»

وكان تحرير الدول الجرمانية الواقعة تحت السيطرة النمساوية يستدعي زعزعة النمسا من الداخل ودفعها إلى إعلان الحرب على بروسيا. وأوكلت المهمة لمصلحة التجسس التي كان يقودها "ستايبر" الذي كتب إلى "بيسمارك" يقول له: «من أجل إنشاء هذه الهيئة بتصور جديد أريد استخدام قوة الصحافة، الجديدة والمتنامية باستمرار. ستمكّننا

---

[27] In *Histoire de l'espionnage mondiale, op. cit.*, p. 182.

الصحافة، في ظل بحث الصحفيين الدائم عن المعلومات، من الحصول على الأصداء التي نرغب فيها[28].»

واستعمل "بيسمارك" الصحافة كأداة لممارسة التضليل والتلاعب بالمحرّضين الذين تمكّنوا من زعزعة استقرار الإمبراطورية النمساوية-المجرية. وأعلن بيسمارك الحرب التي انتظرها في 15 جوان 1866. وتمكن الجيش البروسي من سحق القوات النمساوية في "سادوا".

وكلّفت مصلحة التجسس الألمانية، قبيل مهاجمة فرنسا، القوة الاستعمارية آنذاك، بالحصول على نماذج للأسلحة الجديدة التي بحوزة الجيش الفرنسي، وكان الأمر يتعلق تحديدا بالبندقية المسمّاة "شاسبو" والرشاش. ونجحت تلك المصالح في المهمة كما نجحت فيما بعد في الحصول على مخطط التجنيد وتنظيم القيادة العسكرية في الجيش الفرنسي، وتمكن الجيش الألماني عام 1870 من السير في شوارع باريس.

ويجب الإشارة هنا أن الجيش الألماني لم يكن يحوز على مصلحة استعلام وكان الأخير يتبع المدنيين، والسبب في ذلك أن "كارل فان كلوزويتز" (1780-1831) وهو منظّر الحرب ومدير المدرسة العسكرية ببرلين أملى ضرورة الحذر من المصادر التي قد تكون مضلّلة. لقد كتب في مؤلفه حول الحرب: «إن مصطلح "الإستعلام" معناه مجموع المعطيات الخاصة بالعدو وبلده والتي على أساسها نبني أفكارنا الخاصة وأفعالنا [...] إذا كانت كل الكتب تعلّمنا أنه لا يجب الوثوق إلاّ في المعلومات المؤكدة وعدم التخلص

---

[28] المصدر السابق، الصفحة 183.

أبدا من عدم الثقة العامة فإن هذه النصيحة مجرد كلام كتب [...] إن الأخبار التي تصلك زمن الحرب هي في معظمها متناقضة وخاطئة وغالبيتها مشكوك فيه جدا. إن كلّ ما يمكن أن نطلبه في هذا الصدد من الضابط هو التمتع بحس التميز، المتأتي من الخبرة النفسية والمهنية والقدرة على التقييم. يجب على الضابط الاعتماد على قانون الاحتمالات[29].»

ولم يتوفر الجيش الألماني على مصلحة للاستعلام إلا عشية الحرب العالمية الأولى، ويتعلق الأمر بـ "قسم 3" لهيئة الأركان.

وشهدت الفترة نفسها تنظيم شبكة للاستعلام الألماني في إنجلترا، لكن الأخيرة تم تفكيكها على يد CE البريطانية، ما قاد نحو انعكاسات كانت، في جانب منها، سببا في هزيمة ألمانيا خلال معركة (مارن).

والواقع أنّه في الوقت الذي كان ينتظر من الشبكة أن تكون أكثر ديناميكية تسببت حماقة منشطَها في كشفها. وفي كتابه "التجسس عبر العصور" يعدّد "ج. ب. آلام" التناقضات : « أظهر "ستنهاير" (رئيس الشبكة) حماقة كبيرة، وارتكبت شبكته في إنجلترا التي كانت تحصي 23 عضوا ثلاثة أخطاء رئيسية :

– كان يعطي عملاءه جنيها انجليزيا واحدا في الأسبوع وكان الأمر مدعاة للسخرية ؛

– ألحق كل رجالاته بصندوق بريد واحد ؛

---

[29] المصدر السابق، الصفحة 103.

– أعاد تنشيط أعضاء الشبكة أثناء دورة استطلاعية عشية اندلاع الحرب.»

وكان صندوق البريد عند حلاق في محّل بحي فقير في لندن وتم اكتشاف الأمر بعدما أبلغ مراقب رئيس مصلحة "أم 05" (المكتب العسكري 5، للجوسسة المضادة الإنجليزية) "كيل" من أن ضابطا ساما ألمانيا أدى زيارة للحلاق. وجد "كيل" غريبا أن يتردد ضابط على حلاق في ضاحية نائية لتصفيف شعره فأوعز بمراقبة بريد الحلاق ليجد رسائل بعث بها "ستنهاير" وقبلها استبيانات موجهة لـ 22 شخصا. واكتفى "كيل" بمراقبة البريد إلى غاية الإعلان عن الحرب. وفي 5 أوت 1914 تم تفكيك الشبكة.

وتخضع حاليا المصالح الألمانية للرقابة البرلمانية من طرف المجموعة (PKGr) التي تتشكل من 9 نواب. ويحق لهذه المجموعة تصفح الملفات والاستماع إلى عملاء مصالح الإستعلام والاقتراب من الهيئة للحصول على المعلومات وتعرض تقريرا عن نشاطها الرقابي إلى "البوندستاغ" أي مجلس النواب الاتحادي الألماني.

في اليابان

بقي اليابان في الشرق الأقصى، بعد الوحدة العام 1590 منغلق على ذاته إلى غاية 1868، تاريخ صعود "موتسو هيتو")1867-1922(إلى الحكم بعد القضاء على آخر حاكم عسكري "شوغون" في 1867 وهذا بعد إقراره إصلاحات عميقة مستوحاة من المؤسسات الأوروبية. ولم ينفتح اليابان على العالم المعاصر إلا خلال فترة حكمه المسمّاة "فترة ميجي". وتبنى

اليابان نظام ملكي دستوري يحكمه الآن وكان فيما مضى نظاما ملكيا برلمانيا بموجب دستور صنر العام 1946.

وللاستجابة لشعار الإمبراطور «ابحثوا عن العلم حيثما يكون» أرسلت اليابان إلى الخارج طلابا كلفوا بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات التي تسمح لها بالتحرر من التراكمات القديمة الجامدة للتكيف مع سير بقية العالم: «يبدو الطريق الأطول في الاستراتيجية، لكونه الأكثر التواء، الأقصر أحيانا لبلوغ الهدف» (ب. ليدل هارت).

وهيكل العقيد "موطو أكاشي" مصالح الاستعلام اليابانية على شاكلة النموذج الألماني. وزاح الأخير وهو من رجالات الأدب والفن التشكيلي، يسترجع منذ بداياته، الشركات السرية الوطنية لاستغلال فروعها في الخارج.

وبالفعل كانت هذه الشركات السرية مزروعة في روسيا والصين مثل "الشركة من أجل توحيد ثقافة الشرق الأقصى" أو "جانيوشا" أو شركة التنين الأسود "التي انضافت إليهما العام 1901. ولأن هذه الشركات كانت يحركها الرغبة في توسيع النفوذ الياباني في آسيا فإنها ساهمت العام 1904 في انتصار الجيش الياباني على روسيا.

ولقد أعطى الجنرال "مارتينوف" رئيس هيئة أركان الفيلق الثالث لجيوش سيبريا خلال هذه الحرب فكرة حول كثافة شبكة التجسس اليابانية النشطة فوق مسرح العمليات ويقول: «لقد تخفى ضباط يابانيون مبكرا في ثوب تجار ومسافرين وحلاقين، إلخ، وتمكنوا من جمع المعلومات الضرورية في مسرح الحرب فضلا عن نسج علاقات قوية مع

سكان البلد فيما يشبه إقامة شبكة كاملة للجواسيس استحال معها إخفاء الجيش الروسي لأي من تحركاته[30]. »

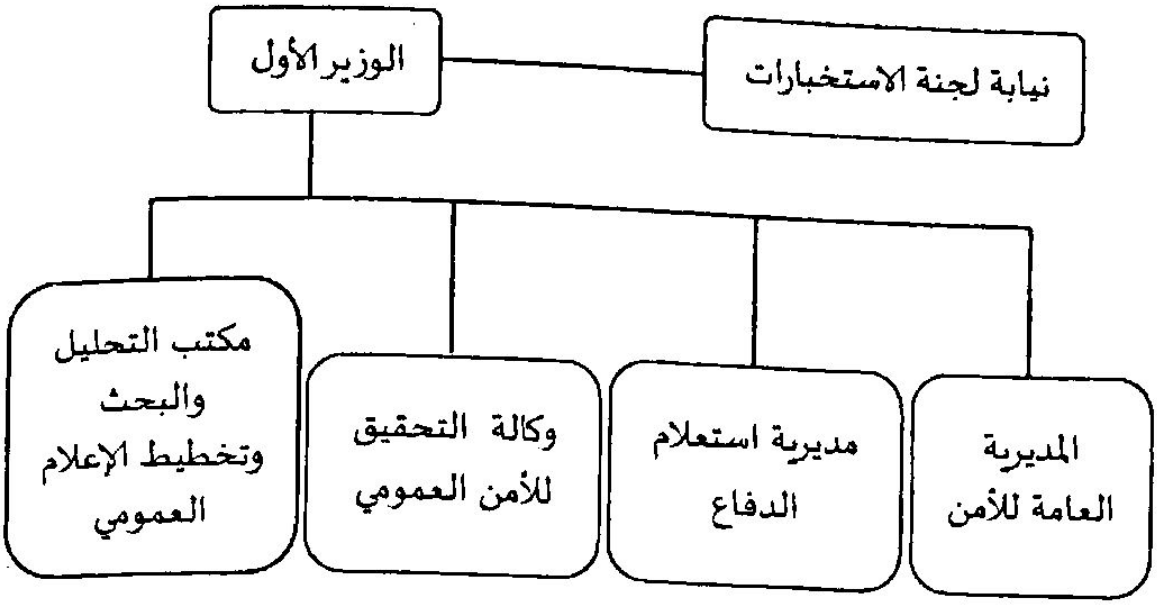

مصالح الاستعلام في اليابان

كتب رئيس مصالح الاستعلام اليابانية العقيد "أكاشي" بشأن اختراق الأقليات الروسية بالأخص الأقلية المسلمة يقول: « لا تكفي إقامة علاقات مع المسلمين فحسب، بل مطلوب من الضابط المتحمس فهم دين هؤلاء لمعرفة أفضل الطرق للتعاطي معهم دون ارتكاب ما يثير استغرابهم. »

ويعد "وليام آدمس" أول جاسوس ياباني له اتصالات مع الخارج، وهو من جنسية إنجليزية لكنه احتجز في اليابان، إثر جنوح باخرته على السواحل اليابانية. ومنح "آدمس" اسم "ساموراي" وتوفي في طوكيو حيث

---

30 In *L'Espionnage à travers les âges, op. cit.*, ص 318.

تم تشييد تمثال على شرفه العام 1926 لتخليد ذكراه بمناسبة المئوية الثالثة لرحيله. وينظر المجتمع الياباني لفعل التجسس لصالح البلد نشاطا مشرفا وعملا وطنيا.

وأدّت الاضطرابات التي حدثت في القرن التاسع عشر إلى تشكيل جديد للخارطة الأوربية. وعززت أحداث مثل إسقاط النظام الملكي الفرنسي والحروب النابليونية وإعادة توحيد ألمانيا وكذا إيطاليا واختفاء الإمبراطورية النمساوية-المجرية والتفكك التدريجي للإمبراطورية العثمانية، انتقال الدول الأوروبية إلى دول وطنية.

وشهد القرن التاسع عشر توسّع الإمبراطوريات الاستعمارية واعتماد الديمقراطية البرلمانية، وظهور الحركة الشيوعية. كما شهدت أوروبا مختلف الثورات وتعرضت للعنف الفوضوي الذي سوف يؤدي الى مأسسة التعاون بين المصالح. في الواقع، في عام 1898، عقد اجتماع في مؤتمر Rome 29 يقرر: «إن الإدارات المركزية في بلدان مختلفة من المراقبة من الفوضويين حيز مباشرة له ويبلغ المعلومات الضرورية.» وبالفعل قرّر مؤتمر انعقد في روما العام 1898 التالي: «على الإدارات المركزية المكلفة في مختلف البلدان بمراقبة الفوضويين الدخول في الاتصالات المباشرة والتبليغ المتبادل عن المعلومات الضرورية.»

أمّا بالنسبة لإفريقيا، وجزء من آسيا، فإن الليل الاستعماري استوطن هناك ولأمد طويل.

الفصل الثالث

الإستعلام في ظل النزاعات المسلحة

«إن الحرب قضية ذات أهمية حيوية بالنسبة للدولة، هي موطن الحياة والموت، هي الطريق الذي يقود إلى النجاة أو الفناء. من الضروري دراستها من كل الجوانب.»

سن تزو.

الحرب العالمية الأولى

صراع مصالح الاستعلام / ظهور فروع التنصت

تميزت بداية القرن العشرين باندلاع الحرب العالمية الأولى التي كانت من بين أولى عواقبها المباشرة احتلال ما تبقّى من الإمبراطورية العثمانية.

في نهاية القرن التاسع عشر اخترع العالم الفيزيائي الإيطالي "غوليلمو ماركوني" جهاز "الإبراق اللاسلكي" ولأنّه يسمح بالاتصال الدائم بالوحدات في أي وقت وأي مكان، استعانت به القوات المسلحة فورا كأداة للقيادة.

وأصبح هذا الجهاز لا يُستغنى عنه ومصدرا للاستعلام لا يقدّر بثمن، لكن من عوائقه السماح للعدو باستقبال كل الاتصالات. ومنه ظهرت الحاجة الماسة إلى اللجوء إلى التنصت وبشكل كبير إلى التشفير أو فك رموز الاتصالات. وانضافت إلى المواجهات المعتادة على كل الجبهات بين مصالح الاستعلام، تلك ذات الصلة بالتنصت عبر الراديو والهاتف، بل كثيرا ما توقفت الانتصارات العسكرية على مهارة "مفككي الرموز"، كما هو مشار إليه في الجزء الثاني من الكتاب.

وأشرف "ولسن تشرشل" وزير البحرية في إنجلترا شخصيا على مصلحة التنصت الراديو فوني وراح يشجعها ويمنحها الحماية وظل الوضع كذلك إلى غاية 1933.

تعرضت ألمانيا للتحييد شبه الكلي منذ بداية الحرب: أولا من خلال القضاء غير المتوقع عشية إعلان القتال على شبكة تجسسها داخل إنجلترا، كما ذكرناه في الفصل السابق، ثم بسبب الاستعمال المكثّف لقذائف أمريكية انشطارية مصنوعة من الحديد ألحقت أضرارا جسيمة بالقوات الألمانية، وفي الأخير اعتراض وفك تشفير رسالة بعث بها وزير خارجيتها "زمرمان" إلى نظيره المكسيكي.

سارع الإمبراطور "غيوم الثاني" إلى إيفاد ضابط إلى إنجلترا، ولم يكن الأخير من مصالح الاستعلام بل ممن يثق فيهم، ويتعلق الأمر بالملازم "كارل هانس لودي" هذا لاستدراك الثغرة الأولى في انتظار إعادة زرع شبكة تجسس أخرى.

وصل الضابط إلى "إيدنبورغ" شهر أوت 1914 وسرعان ما تم التعرف عليه والتكفل به من قبل أعوان الجوسسة المضادة الإنجليزية. استوقفت بطريقة منتظمة رسائله التي كان يبعث بها إلى صندوق بريد في السويد. بعدها سُمّ وعُدم.

أرعبت إشاعة تتحدث عن إنزال القوات الروسية بقبرص من أجل تدعيم القوات الحليفة شمال فرنسا الضابط الهاوي (قليل الخبرة) فراح ينذر رؤساءه. ويذكر "ج. ب. آلام" في كتابه "التجسس عبر العصور" (ص 387) أن هيئة الأركان الألمانية لجأت كرد فعل لهذه المعلومة إلى سحب كتيبتين لنشرهما في بلجيكا لمواجهة الفرق الروسية المفترض أنّها جاءت لنجدة الحلفاء. حسب خبراء عسكريين، هذه المناورة قد تكون سبب انتكاسة الألمان على جبهة لمارن، انتكاسة غيّرت مجرى الحرب لصالح الحلفاء.

أما بخصوص الذخيرة التي استخدمها الحلفاء، وفي محاولة لتدراك العجز، فقد سعت مصالح الاستعلام الألمانية إلى توفير هذه الأخيرة لجيشها انطلاقا من أمريكا. وتكفّل بالمهمة الضابط "فرانس فان رينتلان"، الذي غادر برلين باتجاه نيويورك في 22 مارس 1915 بجواز سفر إمبراطوري وآخر مزور سويسري. أدرك الضابط فور وصوله الولايات المتحدة الأمريكية استحالة تنفيذ المهمة بسبب وصول صناعة الذخيرة الأمريكية حد الإشباع. فسعى في البداية إلى منع تزويد الحلفاء بالذخيرة عبر اختلاق حركات إضراب وسط عمال الميناء ثم تدمير شحنات الذخائر وهي في طريقها إلى أوروبا باستعمال (سيجارات حارقة). فقد تمكّن الملازم

"فانرينتلان" باستعمال القنابل الحارقة الصغيرة من حرق حوالي ثلاثين سفينة كانت محمّلة بالقذائف الأمريكية الموجهة للحلفاء. وتمكنّت مصالح الاستعلام الألمانية، في محاولة لمواجهة انخراط الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب الحلفاء، من تحييد روسيا (الجبهة الشرقية) عبر إذكاء احتجاج الشعب الروسي ضد القيصر عام 1917.

أقام لينين في هذه الأثناء في ألمانيا، قبل أن يُوجّه عبر قطار خاص إلى بلده لقيادة الحركة العمالية.

فاجأت (CE) الألمانية في هذه الحرب مصالح الاستعلام الفرنسية بدورها، بعدما كشف الألمان شبكة تجسس فرنسية شمال بلجيكا واكتفوا بمراقبتها دون تدخل. وكتب "ج. ب. آلان"[31] عشية هجوم "فردان" : « أغلق الـ (CE) الشبكة على الجواسيس الفرنسيين ولم يتمكّنوا من معرفة ما يجري حولهم فجأة، وعندما وقع الهجوم الألماني في 21 فيفري 1916 سقطت القيادة العليا الفرنسية في يد الألمان على حين غرة. »

انهيار الإمبراطورية العثمانية

تحالفت الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى مع ألمانيا للدفاع عن نفسها من المتربصين بها الذين لم يكفّوا عن تفكيكها قبيل اختفائها عام 1916 عقب التوقيع على اتفاقيات "سايكس بيكو" التي شرعت تقسيم الشرق الأوسط بين فرنسا وبريطانيا (أنظر الخريطة في الصفحة الموالية).

---

[31] المرجع السابق، ص 367.

انخدع العرب في هذه الأثناء بالوعود الإنجليزية وتلاعبات "توماس إدوارد لورانس" المعروف باسم "لورانس العرب" وقادوا تحت إمرته إلى جانب الإنجليز الحرب على الباب العالي.

تغيّر وجه العالم نتيجة الحرب العالمية الأولى. لقد أنقذ النقيب مصطفى كمال المدعو "أتاتورك" تركيا.

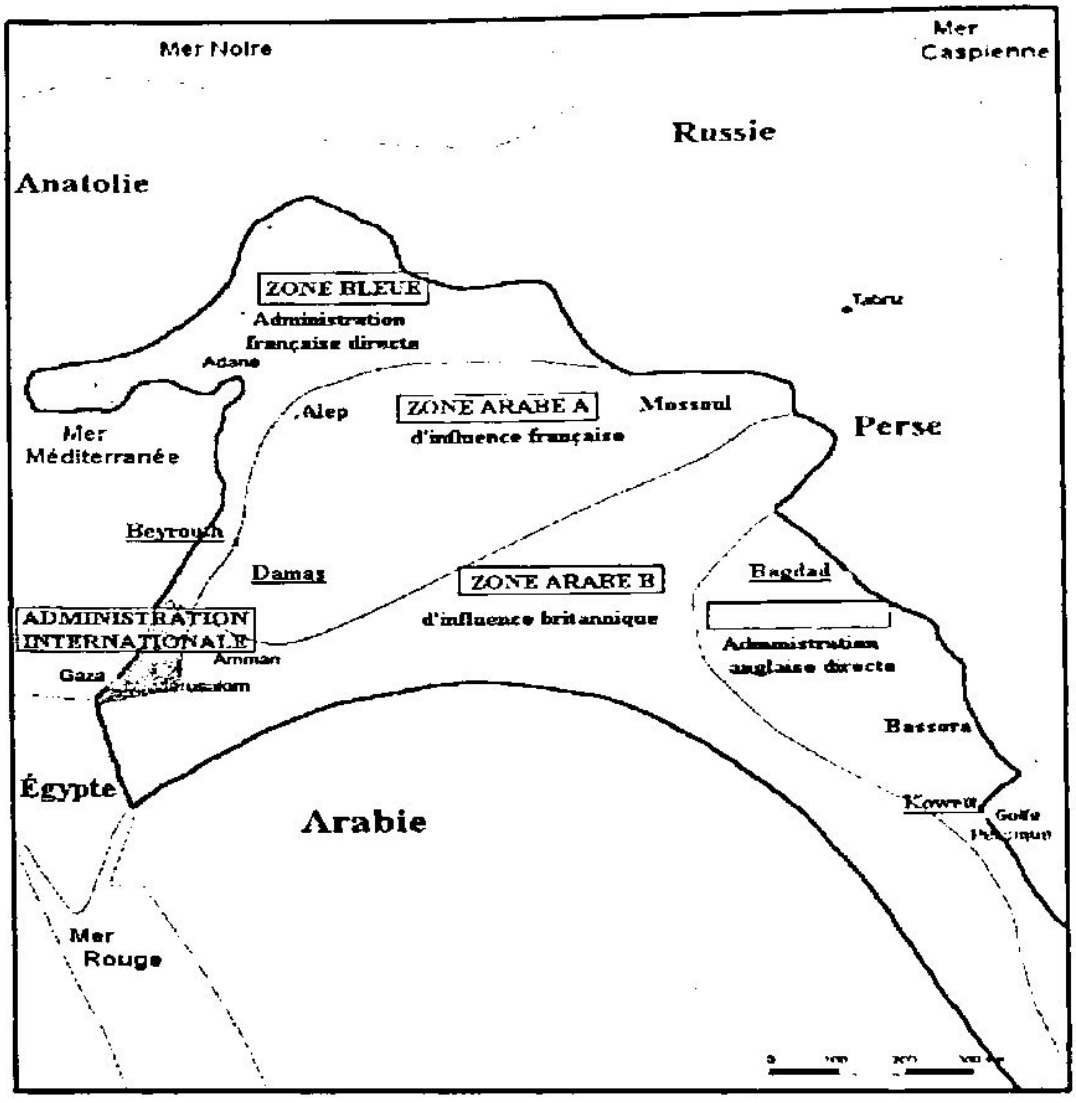

اتفاقيات سايكس بيكو[32]

[32] *Cf.* J. Pichon, *Le Partage du Proche-Orient*, ص 92.

من يكون إدوارد توماس لورانس ؟

قال عنه وينسن تشرتل الذي مشى وراء جنازته وحضر مراسيم دفنه : « إنه واحد من كبار الأمراء الذين أنجبتهم الطبيعة. »

ولد "ت. إ. لورانس" في أوت 1888، ببلاد "الويلز" ببريطانيا العظمى... هو الابن الطبيعي لـ "توماس شابمان"، وخريج جامعة أكسفورد، تخصص علم آثار. وهو إلى جانب ذلك كاتب ودبلوماسي وعميل استخبارات.

قرر وهو في الـ 21 من عمره التوجه إلى بيروت، زار منطقة الشرق الأوسط مشيا على الأقدام (1750 كلم خلال 3 أشهر) وحرّر أطروحته للدكتوراه حول موضوع تأثير الحروب الصليبية على العمران العسكري ويحظى بتقدير جيد جدا. تعلم لورانس اللغة العربية وعاش نفس حياة الأهالي. وشرع عام 1914، قبيل اندلاع الحرب، في التنقيب الأثري بمنطقة سيناء، وكانت العملية مجرد غطاء لتنفيذ مهمة كلفه بها النقيب "س. أف. نيوكومب"، الضابط المهندس المكلّف بإعداد خريطة حول المنطقة استعدادا للنزاع الذي يحاك ضد تركيا. شارك لورانس في العام نفسه في مهمة أخرى رفقة نفس النقيب وهذه المرة لتحديد خط سكة الحديد برلين – بغداد.

دخلت تركيا في 2 أوت 1914 في حرب إلى جانب الألمان، وتحولت الثورة العربية ضد الباب العالي عاملا مهما في الاستراتيجية البريطانية، في هذه الأثناء دخل لورانس العرب على الخط، فتم إلحاقه عام 1916 بالمكتب

العربي (أم 04) التابع لمصالح الاستعلام البريطانية، ويتم تكليفه بشراء دعم خليل باشا (إرشائه) لحمله على تحرير ثكنة بريطانية محاصرة لكن المهمة فشلت.

في العام نفسه، أرسل لورانس إلى خادم الحرمين الشريفين الملك حسين وأبنائه الأربعة من بينهم الأمير فيصل، الذي تم اختياره للردّ على طلبات المملكة البريطانية. في شهر جانفي 1917 تم تعيينه ضابط ربط لدى الملك الحسين، قبل أن ينخرط الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل، شهر جويلية من نفس العام إلى جانب بريطانيا.

ولم تفلح رسالة بعث بها الأتراك إلى خادم الحرمين الشريفين الملك حسين في إقناعه بالانسحاب من التحالف والتوقيع على سلام معهم وهذا على خلفية كشف الحكومة البلشفية الجديدة في جانفي 1918 مضمون اتفاقية "سايكس بيكو" التي تم التوقيع عليها في غفلة من العرب.

رفض الملك حسين المنخدع بالكذب الفرنسي-البريطاني، سحب قواته في مواجهة الأتراك تحت قيادة "توماس لورانس". مكّنت الاعتداءات ضد الجيش التركي من احتلال ميناء العقبة وبالتالي حماية الظهير الأيمن لجيش الاحتلال البريطاني على رأسه الجنرال "ألنبي". تحوّل لورانس منذ ذلك الحين إلى بطل قومي يحظى بالتكريم والترقية في صفوف الجيش.

بعد شهر، حرّر لورانس وثيقة من 27 مادة بعنوان: « فن التعامل مع عرب الحجاز [33] » أصبحت مرجعا لكل عميل يريد الاقتراب من الحكام العرب.

---

[33] Etienne Cénéva et Moniquet Claude, *Histoire de l'espionnage mondial*, Paris, éd. Felin, 2002.

وفى تقريره بشأن نهاية الحملة كتب الجنرال "ألمبى" فى 31 أكتوبر 1918 يقول: « قدم الجيش العربي خدمات جليلة، سواء بقطع الاتصالات قبل وأثناء العمليات أو التعاون مع جيشي خلال التقدم باتجاه دمشق. لقد أدت مرابضه الجيش العربى أمام خط تراجع العدو فى درعا، إلى الحيلولة دون تمكنّ فرقة الجيش التركي الرابعة من الهروب، ما كبّد خسائر ثقيلة للعدو[34].»

بعد سقوط دمشق، دخل لورانس العاصمة العربية جالسا إلى جانب الملك فيصل في سيارته "رولس رويس". لقد خدم جيدا بلده.

34 In *L'Espionnage à travers les âges, op. cit.*, ص 408.

باغتت انتفاضة فيفري 1917 في روسيا، والتي كانت في الحقيقة عفوية، الشرطة السياسية السرية المسمّاة باللغة الروسية "أوخرانا" (Okhrana) بسبب عدم مشاركة المجموعات الثورية (التي كانت مخترقة من "أوخرانا")، كما كتب "ف. فيدوروفسكي"[35]. انتحر رئيس الجهاز "سيرغي زوباتوف" في 15 مارس من السنة نفسها فيما تنازل القيصر نيكولاس الثاني عن العرش وكان ذلك نهاية حكم "رومانوف" واختفاء روسيا القيصرية تاركة المكان للاتحاد السوفييتي عقب انتصار الثورة البلشفية في أكتوبر 1917.

وفي محاولة لتحصين نفسها من أي انتفاضات محتملة ضد ثورتها قررت السلطة الجديدة في روسيا، على رأسها لينين، إنشاء "اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا" أو "VCK" مهمتها مكافحة المضادين للثورة. وحلّت محل "أوخرانا".

وضع لينين على رأس الهيئة الجديدة "فليكس دزرجنسكي" وهو من أصول أرستقراطية ومتعدد اللغات، ولم يتأخر المسؤول الجديد، الذي أطلق عليه فيما بعد اسم "فليكس الحديدي" في تشديد اللهجة بالقول: «لا تظنون أنني أبحث عن أشكال للعدالة الثورية، ليس عندنا عدالة الآن! نحن اليوم مجندون في صراع رجل لرجل إلى النهاية! اقترح بل أشترط تنظيم قمع ثوري ضد العملاء المعارضين للثورة.»

---

[35] المرجع السابق، ص 68.

أقيم لـ "فليكس دزرجنسكي" تمثال عند مدخل الـ "كا جي بي" قبل نزعه عام 1991 عقب عملية دمقرطة روسيا[36].

كُلّفت الـ "التشيكا" بالأمن الداخلي قبل ان ينشئ "دزرجنسكي" لاحقا المديرية الخارجية (INO) مهمتها الإستعلام في الخارج. مقابل ذلك أنشأ "ليون تروتسكي" رئيس الجيش السوفييتي، مصلحة الإستعلام العسكري "GRU". ويعود الفضل سمّيت "المديرية الرئيسية للإستعلام العسكري" (GRU). لهذه المديرية في زرع شبكات تجسس في الخارج، من بينها "الأركسترا الحمراء" الأسطورية في بلجيكا وفرنسا وهولندا وحتى في ألمانيا، وكذا توظيف الجاسوس الشهير "ريتشارد سورج" في اليابان الذي تحصل بعد وفاته على لقب "بطل الاتحاد السوفييتي" إلى جانب القضاء على المعارضة السياسية العسكرية في الخارج (عمليات "سنديكات وترست").

تحوّلت الـ "التشيكا" عام 1922 إلى "المديرية السياسية للدولة" (GPOU) قبل أن يطلق عليها سنة بعد ذلك اسم "المديرية السياسية للدول الموحدّة" وتصبح في جويلية 1934 "محافظة الشعب في الداخل" (NKVD) يقودها "لفرانتي بيريا" الذي قاد حملات تطهير بإيعاز من ستالين من بينها "مؤامرة المهندسين" و"مؤامرة المعاطف البيضاء"[37].

---

[36] نقل التمثال النصفي لـ "فليكس دزرجنسكي" في نوفمبر 2005 إلى وزارة الداخلية.

[37] استلهم الروائي "ألكسندر سلجنستين" جائزة نوبل للآداب، من هذا الجهاز في كتابة روايته من بينها "الدائرة الأولى" و"جناح المصابين بالسرطان".

في هذا السياق نشير إلى أن الانتكاسة التي لحقت بالجيش الأحمر في 1941 تم تحميلها ستالين وليس محافظة الشعب في الداخل (NKVD) الذي قام بدوره، فستالين، الذي كان مقتنعا أن هتلر لن يخرق معاهدة عدم الاعتداء الموقعة في 1939، رفض اتخاذ الترتيبات اللازمة ولم يأخذ بعين الاعتبار المعلومات التي كانت تصله من شبكة "الأركسترا الحمراء" المزروعة في أوروبا، والتي كانت تحذر من هجوم ألماني وشيك على الاتحاد السوفييتي.

ومع أن الاستعلام لا يحظ في غالب الأحيان باعتبار أصحاب القرار فإن المعلومات التي بعث بها "ريتشارد سورج" الجسوس المقيم في اليابان، أخذت مع ذلك بعين الاعتبار وسمحت بنشر غالبية قوات الجيش الأحمر في مواجهة الفرق العسكرية الألمانية.

تحوّلت "محافظة الشعب في الداخل" (NKVD) عقب وفاة ستالين العام 1953 إلى "أم جي بي" (MGB). لم تلبث الأخيرة أن تحولت العام 1954، أي سنة بعد ذلك، على خلفية فشل "لفرانتي بيريا" وزير الداخلية آنذاك ورئيس مصالح الأمن إلى "لجنة أمن الدولة" (KGB) وهذا في إطار مساعي إصلاح النظام وإعادة تنظيم مصالح الإستعلام. بفضل هذه المصلحة الاستثنائية للاستعلام والأمن انخرط الاتحاد السوفييتي في صراع بلا هوادة ضد الغرب ويحقق بفضل دعم الشباب والمثاليين، المفتونين بالإيديولوجية الشيوعية الانتصارات والإنجازات.

ومع ذلك، تسبب بطءُ الآلة الاقتصادية في العالم الشيوعي وفشلها في مرافقة ديناميكية جهاز الإستعلام، في تراجعه فقاد ذلك إلى انهيار الإمبراطورية السوفياتية.

حقق الجهاز في مجال توظيف العملاء في الغرب ممن تمكنوا من التسلل في أكثر الهيئات حماية إيجابية. نذكر على سبيل المثال "عملاء كامبردج الخمسة" (هارولد أدريان، روسل فيلبي المدعو كيم، أنطوني بلانت، غي بورجس، جون كايرنكروس، ودونالد ماك لين) الذين اخترقوا وزارة الخارجية ومصالح الإستعلام البريطانيين، وصدموا أكثر العقول حذرا. لكن هؤلاء "الخمسة البارعون" كما كانت تدعوهم موسكو، تم اكتشافهم من قبل ما كان يسمّى برنامج "فنونا" (Venona)[38].

الحرب العالمية الثانية

ميلاد مصالح الاستعلام الأمريكية

شهد صعود الحزب النازي في ألمانيا فيأوّج اندلاع الحرب العالمية الثانية تنامي القوة الأمريكية، ورغم تجذر مفهوم التجسس في الثقافة الأمريكية

---

[38] سمح تحليل الرسائل المشفّرة التي كان يرسلها الاتحاد السوفييتي إلى سفارته بواشنطن، زاد في سهولة تشفيرها "كتاب الشفرة" تحصل عليه الفلنديون من جهاز تشفير سوفياتي خلال الحرب العالمية الثانية، فضلا عن استعمال الدبلوماسيون السوفيات في واشنطن مرتين اثنتين نفس شبكة التشفير، سمح في كشف العميل "دونالد ماك لين" أول الأمر، الذي عاد إلى موسكو رفقة "غي بورجس".

منذ حرب التحرير ضد الجيش البريطاني وهيمنة النشاط الاستعلامي على الإنتاج الأدبي الأمريكي فإن الولايات المتحدة الأمريكية لم تتوفر آنذاك إلا على مصلحة للاستعلام العسكري ومكتب تحقيق فيدرالي (FBI) مكلف بالجوسسة المضادة منذ العام 1938، الذي حلّ محلّ مكتب وزارة العدل للتحقيق الذي أنشئ عام 1908.

أزال كاتب الدولة "ستيمسن" عام 1929 مكتب التشفير الأمريكي معلّلا ذلك أن الرجل النبيل لا يقرأ بريد غيره. وثمة قصة تروى بالمناسبة قصور الجهاز التنفيذي الأمريكي في مجال الإعلام الاستراتيجي : التقت العام 1939 مجموعة من نواب مجلس الشيوخ بالقاعة البيضاوية للبيت الأبيض مع الرئيس "ف. روزفلت" بهدف دراسة بعض توقعات قانون الحياد الأمريكي تجاه أوروبا. أكّد أحد النواب واسمه "دبليو. إي. بورا" « أن لا حرب هذه السنة » ولم يتمكن الرئيس الأمريكي، الذي كان مقتنعا بالعكس من تقديم وثيقة تدحض اعتقاد النائب.

لم يقدم الرئيس روزفلت على إنشاء مصلحة خاصة مدنية إلاّ بعد إلحاح الجنرال "وليام وايلد دنوفان" وهجوم "بيرل هاربر" المفاجئ عام 1941، إذ منحت المصلحة اسم "COI" أي مكتب تنسيق المعلومات، الذي أصبح سنة بعد ذلك يدعى "مكتب المصالح الاستراتيجية" (OSS).

لم تحتفظ المصلحة الجديدة باسمها الذي تغيّر مرة أخرى ليصبح "وكالة الاستخبارات المركزية" (CIA)، وأجل تطوير الجهاز راح "دونوفان" يوظف ألمع الطلبة في أمريكا ممن تخرجوا من جامعات هارفرد ويال وبرستون وكولومبيا. ومنذ ذاك لم يتوقف تطور مصالح الإستعلام

الأمريكية وشمل كل من الـ "مي أي أي" والـ "دي أي أي" DIA (وكالة استخبارات الدفاع) والـ "أن أس آي" NSA (وكالة الأمن القومي) والأخيرة مسؤولة منذ إنشائها في 1952 بالاستعلام ذي الصلة بالإلكترو مغناطيسة وأمن نظم المعلومات ومعالجة البيانات، فضلا عن مهام التنصت واعتراض الاتصالات وتشفير الرسائل.

كانت لمدير وكالة الأمن القومي، الأميرال" وليام. أو. ستيودمان" (1988-1992) طموحات في اقتناء (سوبر كمبيوتر) يكون قادرا على التشفير وفك الشفرة، لن يصمد أمامه أي رمز. تأكدت هذه الطموحات في تصريحات "إدوارد سنودن" العام 2004، التي تحدثت عن رغبة الوكالة في إنجاز آلة (جهاز) تشفير عالمية بفضل كمبيوتر كمي. جاوزت ميزانية الجهاز سنة 2010 ما قيمته 15 مليار دولار أمريكي.

تحصي المجموعة الأمريكية للاستعلام اليوم ما يقارب 16 وكالة، تتولى مهمة التنسيق بينها "مديرية التنسيق الإستعلامي" (DCI).

أما فيما يتصل بالرقابة البرلمانية لمصالح الإستعلام الأمريكية فإنها تتم عبر لجنتين اثنتين: اللجنة الخاصة الدائمة لمجلس العموم للإستعلام (SSCI) واللجنة الدائمة لغرفة النواب للإستعلام (HPSCI). يخضع أعضاء اللجنتين لتحقيقات الأهلية تتولاها الـ " أف بي آي " وهي مكلفة (أي اللجنتان) بالتراخيص ومراقبة نشاطات المصالح الخاصة.

وصرح الرئيس الأمريكي السابق "بيل كلينتون" بمناسبة الذكرى الـ 50 لإنشاء الـ (سي أي آي) قائلا: «أنا أول زبون عندكم، وعلى هذا النحو،

يمكنني القول أن عملكم يغذي كل قراراتي ذات الصلة بالسياسة الخارجية.» تظل الـ "سي أي بي" وكالة مستقلة.

وتنضاف إلى المجموعة الاستعلامية، مثلما هو مبيّن في القائمة المنشورة أدناه، جمعية قدماء أعضاء المصالح الخاصة و 29 شركة خاصة لها علاقة بالإستعلام تبعا للتعليمة الرئاسية التنفيذية 12382 الصادرة في 8 جانفي 2001.

ورغم كل وسائل المراقبة والجوسسة تفاجأ المسؤولون الأمريكان بالتجارب النووية الهندية، التي يبدو أنّه تم التحضير لها وتنفيذها عام 1998 في سرية مطلقة.

وتحوز الولايات المتحدة الأمريكية، إلى جانب هذه الشركات الهامة، كما هو الشأن بالنسبة لبقية الدول العصرية، على وكالات خاصة مكلفة بإعداد عروض حول تطور الوضع الدولي ودراسات أخرى ذات الصلة بأمنها.

وينخرط قدماء السياسيين والمثقفون بصفة فردية أو ضمن هيئات خاصة في البحث عن بوادر تهديدات من شأنها تقويض أو تعريض أمن بلادهم إلى الخطر بل ويقترحون في هذا الصدد عبر تحاليلهم ومفهومهم للتهديد استراتيجيات للوقاية أو توضيحات تملي أحيانا التحرك، ويمكن أن نذكر من بين هذه المساهمات كتاب "رقعة الشطرنج الكبرى" لصاحبه "زبغنيوبريجنسكي"[39] وفيه نقرأ: «إذا رغبنا في إعداد قواعد العمل

---

[39] Z. Brzezinski, *Le Grand échiquier*, éd. Bayard, 1997, ص 67.

الجيوستراتيجية لأمريكا، بمعنى تحديد الوسائل التي يجب أن تتدعّم بها لإدارة مصالحها الجيوسياسة على المدى البعيد في أوارسيا، يغدو من الضروري القيام بتحليل أهم الفاعلين ومعرفة مناسبة للميدان. وفي هذا الصدد ثمة مرحلتين ضروريتين لتحقيق ذلك:

في المقام الأول: التعرف على الدول التي تمتلك ديناميكية جيوستراتيجية حقيقية وقادرة على إحداث اضطراب مهم في التوزيع الدولي للسلطة. على مستوى الحركة، معرفة الأولويات التي تحددها نخب البلدان المعنية في مجال السياسة الخارجية ومواجهة الآثار المترتبة عن جهودهم في بلوغ هذه الأهداف، وتحديد الدول الأكثر هشاشة أو تشهدا وضعا حساسا من وجهة نظر جيوسياسية، ممن قد يكون لها تأثيرات تحفيزية تجاه الفاعلين الجيوستراتجيين الأكثر أهمية أو تجاه الأوضاع الإقليمية.

في المقام الثاني: وضع سياسات خاصة لمواجهة الآثار الخطيرة لسياسيات تلك الدول وتحديد وسائل إشراك أو مراقبة تلك السياسيات بالشكل الذي يحفظ ويعزّز المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية، وإعداد مقاربة جيوستراتيجية شاملة تجمع وتنسق بين مختلف السياسات الإقليمية للولايات المتحدة الأمريكية على المستوى العالمي.

باختصار، يفرض تحديد التوجه الجيوستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية تجاه أوراسيا، الوضوح أولا في المناهج: بات من الضروري إعداد سياسات حازمة تجاه الدول التي تتوفر على موقف جيوستراتيجي حيوي فضلا عن التعاطي الحذر مع الدول المحفزّة.

تعد هذه المقاربة في العمق بلا معنى في حال لم تخدم المصالح الأمريكية، أي الاحتفاظ على المدى القصير على مكانتها كقوة عظمى عالمية والتطور على المدى الطويل نحو تعاون دولي مؤسس.

وحسب المصطلحات الخشبية المستعملة في الإمبراطوريات القديمة فإن ثلاثة أكبر المتطلبات الجبوستراتيجية تتلخص في التالي :تفادي التصادم بين الدول التابعة، والإبقاء على حالة التبعية التي تبرّر أمنها، وتنمية خضوع الأطراف التي تتمتع بالحماية ومنع البربر من تشكيل تحالفات هجومية.

وزارة التجارة :

– مركز الدعوة (ينشر المعلومات الاقتصادية المتحصل عليها بفضل نظام التراتبي système échelon (الخاص بالمؤسسات الأمريكية).

وزارة الدفاع :

– مصالح الإستعلام لمختلف الأسلحة

– استخبارات الجيش وقيادة الأمن (INSCOM)

– وكالة استخبارات الدفاع (DIA)

– الوكالة الوطنية للرسومات والخرائط (NIMA)

– مكتب الاستطلاع الوطني (NRO)

– وكالة الأمن القومي (NSA)

وزارة الطاقة :

– مكتب الاستخبارات والأمن القومي (ONIS)

وزارة العدالة :

– مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)

– المكتب المركزي الوطني للإنتربول (NCB)

– المركز الوطني لمخابرات المخدرات (NDIC)

وزارة الخزينة :

– شبكة مكافحة الجرائم المالية (FINCEN)

– المصلحة السرية الأمريكية (USSS)

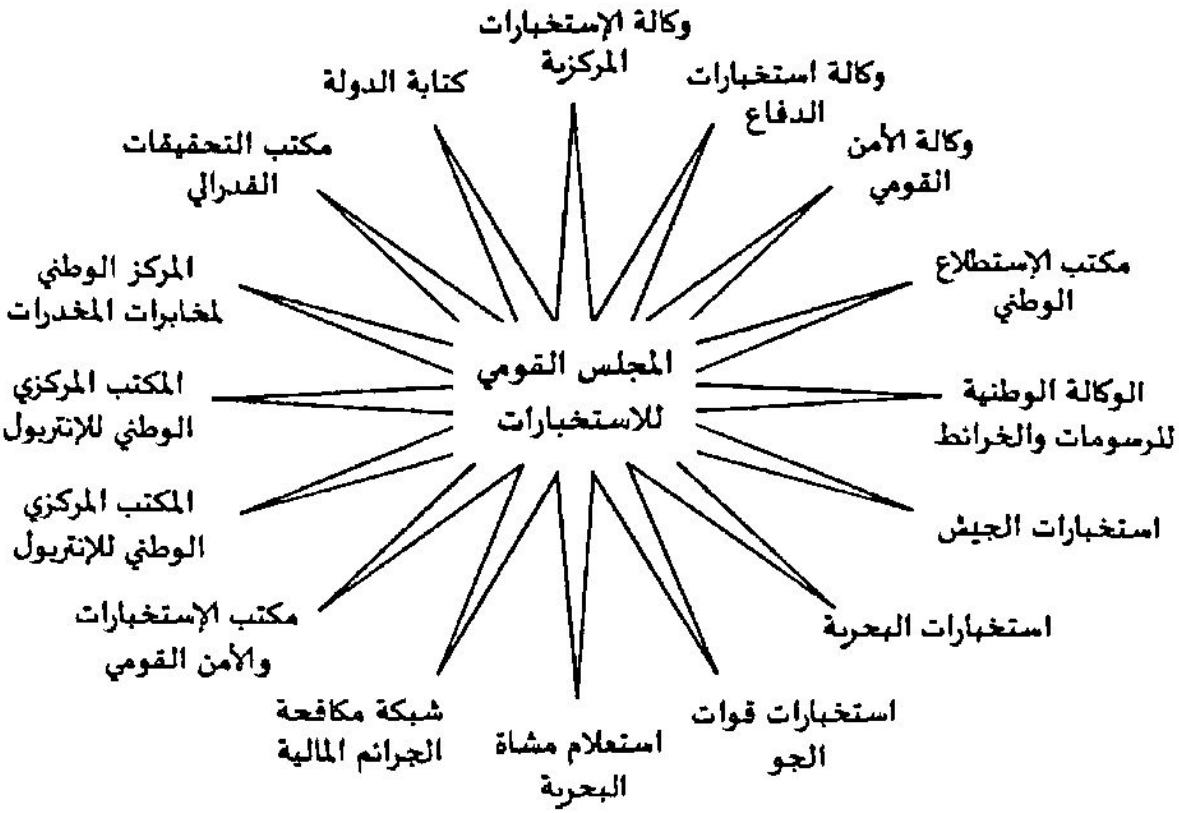

المجموعة الأمريكية للإستعلام

تسهر النخبة المثقفة، كمركز مراقبة حقيقي، على قيادة الأمة، ومع ذلك تذكّر مقاربة الهيمنة ذات الصلة بالنموذج الليبرالي المتطرف، دون الذهاب بعيدا، استراتيجية "المجال الحيوي"[40] التي يتحدث عنها الكاتب في الفصل نفسه، مع أن التحكم في الأزمات يقتضي القدرة على صياغة وإدارة

---

[40] مناطق تعتبر حيوية للتنمية وبالتالي للغزو. مقاربة تم تطويرها من قبل استراتيجيين غربيين ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين: "أف. راتزيل" و"ك. هوشوفور" في ألمانيا و"اش. جي. ماكندر" في بريطانيا و"أ. ماهان" في الولايات المتحدة الأمريكية. ألهت النظرية في اندلاع الحربين العالميتين.

استراتيجية شاملة ومنسجمة في كل المجالات قادرة على التوفيق بين المصالح المتعارضة وبالتالي بناء سلام... للجميع.

عقب أحداث سبتمبر 2001، تم تشكيل لجنة وطنية للتحقيق حول الهجمات الإرهابية ضد الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن بين أهم ما خلصت إليه تحسين العامل المركزي المتمثل في الإستعلام البشري، وتأسيس مركز وطني للإرهاب المضاد بالتشديد على التعاون في مجال التخطيط العملياتي والإستعلام تحت تنسيق مدير الـ (سي أي أي). من هذا المنطلق ولدت في سبتمبر 2002 "كتابة الأمن الداخلي" (DHS).

تشكّلت الكتابة من 22 وكالة، مهمتها الرئيسية "تحديد الأولويات وتنسيق جهود جمع وتحليل المعلومة ذات الصلة بالتهديدات الداخلية والخارجية". وحسب أول مدير لها "طوم ريدج" : «كان الهدف رقم واحد خلال إطلاق "كتابة الأمن الداخلي" هو الانتقال بالمعلومة إلى أعلى هرم السلطة وتقاسمها بين مختلف الوكالات الأمريكية.» ويفسّر إلى حد ما، النقص الحاصل في الاتصال قبل 11 سبتمبر الذي تسبب في عدم تقدير التهديد والفشل في مواجهة العملية.

إن التصور الجديد للفعالية يعيد النظر في المبدأ المقدس المتمثل في التقسيم الأفقي للمعلومة ويعلن عن مقاربة جديدة للأمن والإستعلام في محاولة لإحداث ثورة في المنظومة التقليدية للإستعلام التي شاخت.

ويتولى الكونغرس الأمريكي مراقبة الميزانية التي تمنح للسياسات الإستعلامية، وفي 27 أوت 2000 أعلن الرئيس الأمريكي بيل كلنتون عن إنشاء مركز وطني لمكافحة الإرهاب.

انقسمت أوروبا نهاية الحرب العالمية الثانية إيديولوجيا إلى معسكرين اثنين : الشرق والغرب، بينما كان العرب في الشرق الأوسط يتابعون دون مقاومة إنشاء دولة إسرائيل. وكتب "جانوسز بيكالكويز"، وهو أحد خبراء المصالح السرية، في تمهيد لكتاب له[41] يقول : « إن مصير إسرائيل ارتبط أكثر من أي شعب آخر في العالم بنجاحات وإخفاقات مصالح التجسس... »

وتكون إرادة بناء دولة إسرائيل قد برزت عقب الحكم بالخيانة العظمى -تجسس لصالح ألمانيا – على النقيب في الجيش الفرنسي "ألفريد دريفوس" ذي الأصل اليهودي. أسال الحكم الكثير من الحبر لتبرئة الضابط، من بينها المقال الذي كتبه "إيميل زولا" بعنوان "أتهّم" أو الكتيّب الذي نشره الصحفي الدانماركي الدكتور "تيودور هرزل" بعنوان "جودنستات" أي دولة إسرائيل الصادر عام 1896، وفيه يسطّر الخطوات الواجب اتباعها لإنجاز مشروعه.

يوصي "هرزل" في برنامجه الذي يخلو من أي اعتبار للعرب وحيث الشرط الأول لإنشاء الدولة اليهودية يتمثل في نفي أي حق تاريخي للفلسطنيين أو حقهم في الحياة، مثلما يعلّق[42] : « إن فلسطين قد تشكّل لأوروبا جزء من الحصن المنيع ضد آسيا. سنكون في المراكز المتقدمة

---

41 TJ. Piekalkiewicz, *Les Services secrets d'Israël*, éd. Pensée moderne, 1977.

42 المصدر السابق.

للحضارة ضد البربرية... وسيكون السكان العرب مجرد خدم للاحتياجات الاستعمارية لليهود... قبل الشروع في الهجرة، يجب على العرق اليهودي تحسين وضعه. يجب عليه اكتساب قدرة كبيرة على الحرب والتفاني في العمل والتمتع بفضائل هامة.» سنة بعد ذلك، احتضنت مدينة "بال" في سويسرا مؤتمرا يهوديا توّج بإعلان ميلاد الصهيونية.

تدعّمت الجالية اليهودية التي توافدت على فلسطين في وقت مبكّر بمصالح استعلام اعتبرت الحامية لإسرائيل ومنظمات للدفاع الذاتي: صار "بوال سيون" عام 1909 "هاشومر" أي (الحارس) ومن هذه المصالح ظهر اسم "بن غريون". نظمت الجالية اليهودية خلال الحرب العالمية الأولى شبكة استعلام تدعى "نيلي" (NILI) أو "إله إسرائيل لا يكذب" لخدمة بريطانيا نشطتها على وجه الخصوص عائلة "آعرونسون". ورغم المعلومات التي وصلت إلى الشبكة من الإنجليز لم تنج الأخيرة من الجوسسة التركية المضادة التي تم القضاء عليها عام 1917.

في الثاني من نوفمبر من السنة نفسها أعلن وعد بلفور إنشاء موطن قومي لليهود في فلسطين جرّ المنطقة نحو دوامة من الصراعات لا يمكن التنبؤ بحلحلتها. وفي محاولة منه قمع الفلسطينيين أنشأ اليهود الجيش الإسرائيلي "الهجانة" ومعه المدرسة العسكرية، قبل أن تتحوّل "الهجانة" فيما بعد إلى جيش الدفاع الإسرائيلي "تساحل".

شعرت "الوكالة اليهودية العالمية من أجل إسرائيل" التي تنشّط الحركة الصهيونية العالمية بالحاجة إلى مصالح استعلام لاختراق العرب، وكان ذلك بمثابة أولوية، فأنشأت جهاز "الشاي" الإسرائيلي، الذي صار يتبعها مثل

"الهجانة". سهّل التواطؤ الإنجليزي النشاط الإستعلامي للمصلحة الجديدة ومعها نشاط التنصّت بسبب عبور كل خطوط الهاتف العربية أرض فلسطين.

تم عام 1937 تأسيس "الموساد أليبه بيت" الذي كلّفته الوكالة اليهودية بتنظيم عودة اليهود إلى فلسطين تحسبا لإنشاء دولة إسرائيل، وهو ما تحقق في 15 ماي 1948. في هذه الأثناء تمكنت الوكالة بدعم من الحلفاء من تنظيم لواء يهودي والمشاركة إلى جانب إنجلترا في الحرب ضد ألمانيا، وكذا تشكيل فرقة مظليين جرى إنزالها خلف الخطوط الألمانية بهدف إنقاذ اليهود وإعلام الإنجليز.

تحوّل اسم جهاز الإستعلام عام 1952 إلى "الموساد" (معهد الإستعلام والمهمات الخاصة) فيما أطلق على الإستعلام العسكري اسم "أمان" وعلى مصالح الإستعلامات العامة اسم "شين بيت" أو "شين باك" حاليا، مكلفة بالجوسسة المضادة ومكافحة الإرهاب. وتتبع الهيئات الثلاثة الوزارة الأولى، ولم تتمكن من كشف نوايا الجيش المصري عندما كان يعّد لهجوم 6 أكتوبر 1973، ما فنّد المقولة المزعومة أن الجيش الإسرائيلي لا يقهر بالرغم من كل الإمكانيات الأمريكية التي وضعت بين يديه والدعم الذي كان يحظى به من قبل أوروبا الغربية.

ومع ذلك حققت قضية الجاسوس "إلي كوهين" المدعو "كمال أمين تعبس" نصرا للجوسسة الإسرائيلية أمام الجوسسة المضادة السورية : كان "إيلي كوهن" إطارا في المخابرات الإسرائيلية، جرى تكوينه وتدريبه في سوريا على يد إسحاق شامير.

نجح إلي كوهين بفضل شبكة علاقات نسجها عندما كان في الأرجنتين، بالأخص قربه من الملحق العسكري السوري أمين الحافظ، وهو ما سمح له بتعزيز صورته كجاسوس أسطوري، من التسلل إلى غاية مقر الرئاسة مرورا بوزارة الدفاع وتغذية جهازه المركزي بمعلومات غاية في الأهمية من الفترة الممتدة من 1961 إلى 1965، تاريخ اعتقاله على خلفية شكاوى صادرة عن سفارة الهند تشكو التشويش على اتصالاتها بموجات راديوفونية في أوقات عادية. أدى استعمال مصلحة الجوسسة المضادة السورية لجهاز تحديد اتجاه الموجات (radiogoniométrie) من اكتشاف عنوان الشقة التي يقيم فيها الجاسوس الإسرائيلي.

عقب حرب الستة أيام (5 جوان 1967) أعلن موشي دايان، وزير الدفاع آنذاك، خلال مؤتمر صحفي: « كل ما يمكنني قوله، أن دور الإستعلام، كان على الأقل، على نفس درجة أهمية الطيران والدبابات. »

نشاطات الإستعلام خلال الحقبات الاستعمارية

« قد لا تهتمون بالحرب لكن الحرب تهتم بكم. »

ليون تروتسكي

كان الاحتلال تدريجيا في غالب الأحيان. لم تتمكن القوى الاستعمارية من احتلال الأراضي بالسلاح إلا بعد بعثات نحو البلدان المستهدفة مهدّت لها الطريق عبر دراسة تقاليد وعادات سكانها وعلاقة هؤلاء بالسلطة القائمة، تحت غطاء مهمات ذات صبغة تجارية أو دينية. دعّمت تلك القوى

وجودها بزرع مكاتب للاستعلام قبل السيطرة الكاملة على البلد ومن تم التمدّد إلى الجوار القريب.

يقترح نيكولا مكيافيلي (1469-1527) على الأمير ثلاث طرق للسيطرة على بلد ما، ما تزال الطريقة الثالثة، بعد أقلمتها مع الظروف والمصالحة مطبّقة فيقول: «ثمة ثلاث طرق لاحتلال البلدان المعتادة على العيش في ظل قوانينها وفي حرية: الأولى تحطيم تلك القوانين، الثانية التنقل إليها للبقاء، الثالثة تركها تعيش تحت طائلة قوانينها على أن تدفع الجزية وخلق سلطة محدودة تجلب لك الصداقة. بالفعل، يدرك الأمير أنّه لا وجود للسلطة التي أنشأها دون صداقته وقوته وأن عليه فعل أي شيء للاحتفاظ به[43]» بمعنى آخر «سوف نحتلهم بأنفسهم[44]».

تنخرط الشعوب التي تتعرض للاعتداء في معارك دامية لمواجهة الغزاة عادة ما يتبين أنّها غير ملائمة مع التقنيات والإمكانات العسكرية التي يتوفر عليها العدو. وما بين الخضوع المقيت أو التطهير المبرمج، تختار احترام سيادتها وحرية وجودها. لقد صنعت الشعوب قدرها بنفسها عبر النضالات المستمرة والمختلفة التي ميزت التاريخ الشنيع للاستعمار: «إن الهوّة بين المحتل والمحتلين، ستمتلئ يوما ما بالجثث» يقول متنبئا الجنرال "لا باسي" عام 1879.

---

[43] N. Machiavel, *Le Prince*, Pocket, 1990, ص 37.

[44] قول مأثور لهتلر، ذكره ب. ل. هارت في كتابه:

Histoire mondiale de la stratégie, éd. Plon, ص 243.

فترة الاحتلال

أصبحت الجزائر الهدف الأوّل لعمليات الاستعمار في المتوسط رغم أن البحرية الجزائرية كانت في ذلك الوقت جد مقاتلة، ألم يجعل الإخوة بربروس من الجزائر العاصمة القوة الضاربة للإمبراطورية العثمانية ؟

قادت الخلافات والمؤامرات والاقتتال الداخلي والعنصرية والثورات القبلية التي تفاقمت بسبب صعوبات اقتصادية، في نهاية المطاف إلى تآكل قدرات السلطة المتلاشية سلفا في وقت تراكمت لدى الغرب معلومات حول الأيالة فضلا عن التجديد الحاصل في الصناعة وتحديث ترسانة الحرب. بعض الوقائع التي تحدث عنها "ديغو دي هايدو" في كتابه "تاريخ سلاطين الجزائر" تكشف وجود شبكات استعلام نظّمها سلاطين الجزائر آنذاك ضد القوى الأوروبية :

– في عام 1529، قرّر بربروس طرد الإسبان الذين كانوا يحتلون جزيرة (بينون) Peñon، فراح يرسل إلى داخل القلعة جزائريين اثنين تقدمّا على أنهما فارين من الجيش العثماني ويرغبان في أن يصبحا مسحيين. استغل الجاسوسان انشغال الجنود بالقدآس فصعدا إلى السطح الذي كان دون حراسة وأرسلا إشارات باتجاه المدينة تمّ التقاطها ثم تفكيكها. وقعت القلعة في يد بربروس دون مصاعب تذكر.

– في عام 1531 فكّر خير الدين في تعزيز ميناء شرشال، ووصل الخبر الأمير أندري دوريا عبر عملاء يشتغلون لحسابه فحاول عرقلة العملية

لأسباب تتعلق بأمن إسبانيا (?). طمأن العملاء الأمير أن احتلال المدينة وتحطيم الرصيف لا يمثلان أي خطر، كانت الدهشة في صف الإسبان لكن سرعان ما انقلب الوضع بعدما كانت المعارك حامية الوطيس ولم يكن أمام الأمير سوى خيارين : إما الموت مع جنوده أو التخلي عنهم، فقرر الفرار !

– برز التفوق العسكري الجزائري في المتوسط وبشكل لافت خلال معركة نفرين عام 1827.

عندما تآمرت ثلاث قوات عسكرية، فرنسية وبريطانية وروسية، ضد الباب العالي. يكتب "بلهميمي" غداة المعركة الرهيبة قائلا : «لم يبق من الوحدة البحرية الجزائرية إلاّ عشر بواخر تراجعت بلا صعوبة من ميدان المعارك... بلغ العطب درجة حال دون وصولها إلى موانئ الأيالة[45] »... في مثل هذه الظروف، كان يستوجب على الجدارة أن تحجب الفضل ولكن في جو تطغى عليه الرداءة والفوضى والغطرسة والجهل، لا يمكن بحال استيعاب الكفاءة «الانتصار عديم الجدوى، أكثر من المعرفة، هو من ترأس مصير البلد» (أ. معلوف).

في مؤلفه "المرآة" يقول حمدان خوجة : «في العاصمة الجزائر، دبّر الخزناجي، ذو الحظوة عند الداي، مؤامرة ضد المسؤول العسكري المقتدر، يحي آغا، قادت إلى تنحيته من منصبه وتعيين صهر الداي حسين إبراهيم مكانه وهو يفتقد للعقل والاقتدار.»

---

45 M. Belhamissi, *Marine et marins d'Alger, grandeur et décadence*, Bibliothèque nationale, 2003, ص 200.

جاء بعد ذلك، أظلم فترة في تاريخ الجزائر، فبِاسم الحضارة الغربية، وبعد عدة محاولات للبعثات العسكرية ضد الساحل الجزائري، كان يجري الإعداد لها، بناء على معلومات متحصل عليها من القنصليات الأوروبية على وجه التحديد، انتهت جميعها بالفشل، أوعز الإمبراطور نابليون بونبارت، في مراسلة بتاريخ 18 أفريل 1808، موجّهة إلى وزيره للبحرية: «عليكم بالتفكير في حملة الجزائر، إن على مستوى البحر أو الأرض... هل هناك على هذه الضفة ميناء حيث بإمكان حامية أن تكون في منأى عن قوة متفوقة ؟ ما هي الموانئ التي بإمكانها تزويد الجيش حال الوصول إليها ؟... ما هو الموسم الذي نخاف فيه من الطاعون وأين نجد هواء نقيا ؟... أرسلوا أحد مهندسيكم الموثوق فيهم من يستطيع الحديث مع السيد "تان فيل" (قنصل فرنسا في الجزائر)، لكن يجب أن يكون رجلا موهوبا وبارعا. يجب على هذا المهندس أن يكون ضابطا يفقه قليلا في البحر وفي الأرض. يجب عليه التجوّل داخل وخارج أسوار المدينة، وعندما يعود إلى بيته يدّون ملاحظاته ليروي لنا الأحلام[46] ».

كلف الرائد بوتان، من قسم الهندسة، بإعداد الخطط والرسومات لخدمة نوايا سيّده، فتنقل إلى منطقة تامنفوست ببرج الكيفان، مدعوما في مهمته من القنصل الفرنسي "تان فيل" الذي وصفه بأفضل عميل لفرنسا بالناحية.

---

46 M. Belhamissi, *L'Europe et la Guerre secrète (1518-1830)*, éd. Dahleb, Alger.

غادر بوتان البلاد في 17 جويلية 1808 بوثائق ساعدته على تحضير الحملة وأوصى: «من المهم جدا أن تظل استعداداتنا سرية والوصول قدر الإمكان على غرّة، إذا باغتنا الجزائريين... سيكون نجاحنا سريعا ومكتمل.»

لم يكن غزو الجزائر مفاجأة للإيالة حسب حمدان خوجة: «لقد كتب حسين باشا إلى القبائل والعرب يخبرهم بالنوايا العدوانية للفرنسيين، ويعطيهم الأمر بالتأهب عند أول إشارة» [...] لقد أوصى باي وهران بتعزيز مكانته والتأهّب تماما مثلما نبّه باي قسنطينة إلى تحصين ميناء عناية. فضلا عن ذلك، تسّلم قائد الجيوش المعلومات ذات الصلة بتركيبة قيادة جيش العدو، تحصلت عليها شبكة مخبري أيالة الجزائر: «كان القائد الجديد للجيوش، إبراهيم، على علم بخطة الفرنسيين ومكان الإنزال وكذا العدد الدقيق للسفن والجنود» يضيف حمدان خوجة[47].

لا يمكن منطقيا قبول شرحا سريعا أو الاكتفاء باحتمال فيما يخص عدم كفاءة قائد الجيوش، فالأخير رغم علمه بخطط العدو والدعم الذي تلقاه (مختلف خطط الدفاع التي وفرّها له الحاج أحمد باي، على سبيل المثال) لم يبد أي استعداد للقتال... ألم يتم التضحية بالجزائر كشرط لتجنيب "رجل أوروبا المريض" التفكّك الوشيك؟ في كل الأحوال، رئيس هيئة الأركان فرّ من ميدان المعركة.

---

[47] المصدر السابق، ص 112.

تعيين قائد الجيوش ودفاع البلد لا يحتمل الارتجال، إن المهمة مقدسة، لا يتم الإعداد لها في عجلة أو في الفوضى أو الخوف، وأهم من ذلك من طرف رجال يبحثون عن الشهرة وإشباع حاجاتهم المؤقتة.

في عام 1830، تجتاح 103 سفينة حربية على متنها 37 ألف رجل، الجزائر العاصمة. ويكتب "لويس فيو"[48] يقول: «لم تعد هذه المدينة (الجزائر العاصمة)،التي يبدو أن شعبها السعيد بناها من أجل مصائر هامة، سوى مستشفى وسجن حيث يسود الجوع والمرض.» كان "لويس فيو"، سكرتير بيجار، أحد الجنرالات المتخصصين في استراتيجية "الأرض المحروقة"، الذي نسي خلال وجوده في الجزائر، ومثله فعل الذين جاؤوا بعده، أن فعل القتل دون معارضة يعتبر جريمة.

لم ينخرط الجزائريون في المفاوضات التي جرت بين الداي ورؤساء أركان الحملة الفرنسية. كانوا وحدهم في مواجهة قدرهم، كان عليهم الاعتماد على أنفسهم، عندما اتضحت الأكاذيب التي كان يغذّيها الجنرال كلوزيل، مثل سابقه المارشال بورمون، لتفضح الوجه القبيح للاستعمار.

« يا سكان مملكة الجزائر يجرؤ على تطمينهم الجنرال كلوزيل من خلال هذا الخطاب المضلل، إن أقوى ملوك فرنسا، لويس فليب الأول، سلمّني قيادة الجيش الذي يحتل هذه المملكة وحكومة المقاطعات التي تتبعها. إن نية الملك الفرنسي هي ضمان، وللأبد، سعادة الشعوب التي جنبّتها أسلحتنا

---

48 M. Ferro, *Le Livre noir du colonialisme*, éd. Robert Laffont, Paris 2003.

نير الإذلال من خلال نشر العدالة والقوانين، وحماية كل الطيبين من الأشرار مهما كانت انتماءاتهم. لقد ساهم خبثاء في انتشار الأصوات التي تهاجم فرنسا وتتهمها بتفضيل غير عادل لفئة معية من السكان، لا تصغوا إلى تلك التلميحات الخادعة، أعد الجميع بالأمن والحماية ولكن أنتظر منكم الثقة التامة والدعم الذي يمكنّني من إقرار النظام والسلم. يا سكان مملكة الجزائر، دينكم وتقاليدكم وعاداتكم، سيتم احترامها، سأستجيب لكل مطالبكم، وأتمنى أن يدفعني تصرفكم إلى ما لا يحمد عقباه في حال حاولتم إثارة الاضطرابات، إن داخل العاصمة أو خارجها. سبق وأن أمرت بمعاقبة نموذجية لبعض الرجال ممن راحوا ينشرون ادعاءات لإثارة القلاقل عبر اتهامنا بمحاولة التخلص منكم نكاية في الظالمين الذين نجيناكم منهم.»

ميدانيا، استهل قائد الجيش الجنرال بيجو احتلال البلاد بنشر الخراب وسيكون السبّاق إلى المجازر الجماعية عن طريق الاختناق التي سحقت من الوجود عدد من القبائل الجزائرية المنتشرة عبر الوطن، ألهمت هذه المنهجية جرائم أخرى ضد الإنسانية في أماكن أخرى من العالم وراح تلامذة الجنرال يبدعون أخرى. يحكي الجنرال "فلو" لفكتور هوغو: «لميكن نادرا، أن تشاهد الجنود خلال الغارات وهو يقذفون بالأطفال إلى رفقائهم يستقبلونهم على رأس الحربة[49].»

---

[49] مذكور في كتاب : *Coloniser Exterminer* لصاحبه O. Le Cour Grandmaison، منشورات القصبة 2005 وفي كتاب *La France et l'Algérie en guerre* لمؤلفه J. Frémeaux.

في غرب البلاد، حصل الأمير عبد القادر على ثقة الشعب، فجمع جيشا شعبيا وقرّر مواجهة الزحف الاستعماري، وللقضاء على مقاومته دعّم "طوكفيل" الإبادة الجماعية: «لم يُقض على قدرات عبد القادر إلاّ بعد أن تنقلب عليه القبائل المتحالفة معه إلى حد لا يطاق فتهجره... أعتقد أنه يجب استخدام كل وسائل تخييب ظن القبائل.» سيكون القمع الأعمى والترحيل والأحكام والإعدامات ومصادرة الممتلكات ومعارضة القبائل أساليب استراتيجية الهيمنة التي نفذها الاحتلال إلى غاية استقلال البلاد.

كتب أحد عقداء مونتنياك عام 1843 يقول: «يجب الاستيلاء على كل شيء وتدمير كل شيء دون اعتبار للسن أو الجنس: لا يجب للعشب أن ينمو حيث تطأ أقدام الجيش الفرنسي... يجب القضاء على كل من لا يزحف أمام أقدامنا كالكلاب.» وإلى غاية 1962 لم ير ذلك الجيش، أبعد من قدميه طيلة وجوده في الجزائر.

يكتب "ألبير كامو" في هذا الصدد: «كانت فترة التهدئة تلك ضمن المهمة "ذات طابع حضاري" ولكن مهما كان الهدف الذي ندافع عنه، ظلت تلك الحقبة مهينة لنا بسبب المجازر العشوائية المرتكبة في حق الأبرياء.»

لجأت مصالح الإستعلام إلى تقسيم السكان الجزائريين والتسلل بينهم في كل زوايا الوطن وهكذا نقرأ في مقال لـ (ب. بويير) بالمجلة الإفريقية العدد 97/ 1956:

– تكليف مهمة إدارة الجزائريين إلى ما كان يسمّى المكاتب العربية؛

– وضع القبائل أو فروعها، مهما كان موطن سكنها تحت "الإدارة الحصرية" للمكاتب العربية؛

– خصصت المكاتب العربية حصريا للإستعلام :

– شيوخ القرى التي يقطنها السكان الأصليون يتبعون الحاكم، فيما تبقى القبائل وفروعها ممن تعيش في الخيم خاضعة لتشريع الإدارة العسكرية.

تحوّل مكتب إدارة السكان الأصليين للجزائر في 1848 إلى مصلحة خاصة للإدارة المدنية للسكان الأصليين، شكلت المكتب الرابع للشؤون المدنية، يشير كاتب المقال.

قاد إنشاء فرق الحرس الريفي إلى كسر سلطة الشيوخ. ونقرأ في المقال : « يكفي الإشارة إلى التعليمة الأساسية : تحطيم الإطار القبائلي بهدف تسهيل عملية الاندماج[50] . »

كانت مهام المكاتب العربية تستجيب لهذا الانشغال « كُلّف ضباطها بالبحث العملياتي والإستعلام السياسي وبالشرطة السياسية ومراقبة قادة القبائل. ساهموا بمعية رفقائهم بشكل مثالي في إنجاح حرب الانتماءات. » يشير "ج. فريمو" ويكتب "س. ر. أجرون" وهو يتحدث عن انتهاء العمليات : « تم التشديد على مراقبة السكان الجزائريين [...] وعزز الجنرالات هذه

---

[50] تأثرت سريعا عملية تسيير ومراقبة السكان بنتائج تفكيك المجتمع الجزائري فكانت العودة إلى التنظيم السائد خلال الفترة العثمانية بتعيين (القايد) الذي وضع في خدمة حاجة المكاتب العربية للإستعلام.

القيادات المحلية الواسعة، التي كانت تنوب في بعض الأحيان عن ضباطهم وتقف بالمرصاد للهيئات التقليدية القائمة[51]».

تمزقت بعض القبائل بفعل التلاعب بها وتحريضها على الاقتتال لأسباب تافهة، وأخرى وقفت في وجه انتفاضات مواطنيها وقمعتها، كسّر الحقد والضغينة التناسق القبلي، لذلك كان سهلا على أعمدة جيش الاحتلال القضاء على القبائل المنتفضة، التي وجدت نفسها بلا دعم، وكذا القضاء بشكل وحشي على قادتها الحكماء. يمكن لقراء كتاب "تاريخ الأغواط"[52] لصاحبه "إمانجين" الملازم بأول فريق الرّماة الجزائريين، الذي وجد في مجازر السكان المحليين عملا غاية في الخطورة، ويستطيع القارئ مع ذلك، استنتاج حجم المأساة الجزائرية.

درس الاحتلال كل القبائل الجزائرية وأحصى ممتلكاتهم العقارية وأماكن تطورها، سمحت هذه المعلومات بإعداد خارطة الانتشار البشري لدواعي استراتيجية التهدئة.

ظهرت إجراءات أخرى لمراقبة السكان الجزائريين عام 1879، فضلا عن تعزيز مخطط الشرطة المكلف بعزل البلد: «تم اعتماد إجراءات مراقبة خاصة ضد المسلمين الأجانب المشكوك في كونهم مبعوثين جاؤوا لإيقاظ النزعة الإسلامية فضلا عن تعليمات أعطيت للإداريين لمنع تنقل المشتبه

---

51 *Les Algériens musulmans et la France 1871-1919*, éd. Bouchène, 2005, ص 130.

52 E. Mangin, *Histoire de Laghouat*, éd. Adolphe Jourdan, 1895.

فيهم وسكان الحدود[53] » وهذا لمواجهة أي عمل سياسي محتمل من شأنه التحريض على الفوضى داخل البلد.

أنهت التسوية والتحاق بعض الوجهاء بالمحتل، استراتيجية مراقبة السكان الجزائريين الذين كان الاستعمار يفتك منهم المعلومة خلال الاستنطاق إلى غاية الاستقلال. يكتب بيير فيدال-ناكي لاحقا: « مارست الشرطة تحديدا التعذيب على الوطنيين قبل انفجار الحرب بكثير[54]. »

سمحت المراقبة الوثيقة والدائمة للسكان بإطالة عمر الاحتلال 132 سنة، رغم أنّها لم تمنع الانتفاضات الدورية للقبائل. للتدليل على ما نقول سنورد تباعا في الصفحات 101 و 102 النشاطات الاستعلاماتية والانقلابية التي قام بها سي عمر بن روش خلال إقامته عند الأمير عبد القادر، رمز المقاومة الجزائرية.

بدل الحاج أحمد باي، في شرق البلاد، بعدما دافع بشراسة عن قسنطينة التي سقطت يوم 13 أكتوبر عام 1837 كل جهوده لمواجهة تقدّم جيش الاحتلال. جال وصال في الناحية من أجل تجنيد القوى ومحاربة الفرنسيين واستمر في فعل ذلك إلى غاية 1848 قبل أن ينال المرض والخيبات من عزيمته.

---

[53] المرجع السابق، ص 231.

[54] In *Le Livre noir du colonialisme*.

« لكل بلد قدر يجب أن يرضى به، بمعنى أن وجوده نفسه، يتوقف على معركة واحدة مهما كانت حاسمة [...] هناك وقت نموت فيه ومع ذلك فإن الرجل الذي يغرق نفسه لديه نزعة طبيعية للتعلق بأية قشة للنجاة، ومن الطبيعي أخلاقيا أن يستخدم شعب آخر وسائله من أجل الخلاص عندما يدفع إلى الهاوية[55]. » يقول المؤلف.

روح التضحية لدى الجزائريين لاسترجاع استقلالهم دفعت العقيد "لالباسات" للقول عام 1865 : « وجدنا وسنجد أنفسنا ولأمد طويل أمام شعب يتحمل بمشقة احتلالنا ويبحث بكل الوسائل وفي كل المناسبات عن التحرر منا[56]. » كانت الانتفاضات عديدة ولكنها ظلت غير حاسمة، ومحصورة في مناطق النفوذ المحيطة بالقبائل، انكمشت في كثير من الأحيان لكي لا تتجاوز مراعي هؤلاء.

أدركت مكاتب الإستعلام الاستعمارية الشعور الوطني للسكان الجزائريين ورغبتهم في تعميم الانتفاضات المسلحة على مستوى البلد. في الفصل المتعلق بانتفاضة العمري عام 1876 ببسكرة، ينقل "ش. ر. أجرون" في التهميش : « كانت الناس في دائرة اقبو وبمجرد شعورهم أنهم غير مراقبين يسترسلون في الحديث عن الثورة التي ستقضي على المسيحيين

---

[55] كارل فان كلوزيتز. المصدر السابق، ص 556.

[56] المصدر السابق، ص 3.

خلال شهرين. وكانت قبائل في منطقة سطيف على استعداد للمشاركة في تلك الثورة إذا لم يتم تحديد مكان الحركة[57]. »

سمح غياب هيئات مديرة وطنية للتجنيد والتنسيق بين حركات التمرد التي شهدتها القبائل الجزائرية للجيش الفرنسي المحتل بالاحتفاظ بتعداد قواته وقدرته على التعبئة في أي وقت يريده.

نشأة مصالح الإستعلام الجزائرية

تواصلت الانتفاضات من أجل استقلال البلاد وسط برك الدم ولم تتوقف إلا مع مطلع القرن العشرين، وتحديدا عام 1916، عندما انتظم الجزائريون حول الأحزاب السياسية وراحوا يدعون المحتل "المتحضر" إلى الحوار.

بعد الحرب العالمية الثانية وبعد مشاركة الجزائريين بالسلاح في تحرير فرنسا، التيتنكّرت لوعودها بمنح الاستقلال للجزائر، ترجمته مجازر 8 ماي 1945، تنخلن رجال "حزب الشعب الجزائري"، بلا شك ضحايا ثقافة الأجداد التي تقدّس العهد، للخداع فالتزموا خيار الطريق الثوري. بالفعل قررت اللجنة المركزية للحزب في 15 فيفري 1947، تأسيس المنظمة الخاصة[58] (OS) التي أوكلت لها مهمة تحضير الثورة لتحرير البلاد : « طلب

---

[57] المصدر السابق، ص 3.

[58] تأسست المنظمة الخاصة (OS) في 15 فيفري 1947 عقب المؤتمر الثاني لحزب الشعب الجزائري، وكانت تحصي في صفوفها قرابة 2000 عضو. كانت تدور حول هيئة أركان

المكتب السياسي من "لجنة الأربعة" (الدكتور لامين وبوقادوم وبلوزداد وأنا) الاجتماع وتقديم اقتراحات بشأن هيكلة الجهاز شبه العسكري [...] في نهاية أكتوبر، دفن المكتب السياسي اقتراحاتنا » يكتب حسين آيت أحمد[59].

عامة والتنسيق بين مسؤولي المناطق والعضوية والشؤون العملياتية. تضمن الهيكل التنظيمي للمنظمة: المصالح العامة والإستعلامات والاتصالات والمتفجرات والخدمات اللوجستية والتسليح. في الفترة ما بين 1948 و 1954، اقتنى مسؤولو (لوس) كميات هامة من السلاح من غدامس بليبيا، سيتم استعمالها في الأوراس عشية اندلاع حرب التحرير.

[59] H. A. Ahmed, *L'esprit d'indépendance*, éd. Barzakh, 2002, ص 122.

من يكون سي عمر بن روش[60]

إثمه الحقيقي "ليون روش" ولد في غرونوبل، وهو ابن مستوطن أقام بنواحي الجزائر العاصمة. نجح عام 1837، بعدما انتحل صفة مسلم، للتسلل إلى الأمير عبد القادر. يعترف في مذكراته أنه أعتاد أن يدوّن في دفتر كل ليلة كل ما شاهده خلال اليوم.

صال وجال في البلد وتمكن من إعداد وثائق وفيرة حول الوضع داخل الجزائر زمن الاحتلال (مثلما يشير كاتب المقال). نجح في الفرار بعد خرق معاهدات (تافنة) ودخول الأمير في حرب ضد المحتل ليلتحق في نوفمبر 1839 بالخطوط الفرنسية. كان ملحقا بهيئة أركان دوق أرليانز ثم ملحقا لدى الجنرال شرام وبعدها مترجما رئيسيا لدى الجنرال بيجو، الذي عيّن حاكما عاما للجزائر.

كان روش يراسل من نوفمبر 1837 إلى نهاية أكتوبر 1839 قنصل فرنسا بمعسكر، النقيب دوماس، الذي صرح: «كان يعدّ تقارير للجيش انطلاقا من مراقبته ويسجّل القبائل قوتهم وقادتهم...» في عام 1841 كلفه بيجو بمهمة التقرب إلى الزمالات بهدف تأليبهم على قائد المقاومة الأمير عبد القادر ويقترح عليهم:

---

[60] يستند هذا المختصر على دراسة نقدية أعدّها "مارسيل إمريت" (أسطورة ليون روش) الصادرة في المجلة الإفريقية العدد 91/1947. ولم يمنع هذا النقد، الذي يعيد النظر في هذه الأسطورة من وصف روش بـ "بطل الحقبات الأولى للجزائر الفرنسية".

أن التيجاني سيكون خادم فرنسا، وسيعيّن باسمها حاكما للجنوب وسيتعاون معها لكسر شوكة الأمير عبد القادر،و ستدعمه بالسلاح والذخيرة وسيتنّقل إلى معسكر رفقة قواته لأخذها وسيجلب معه 500 إلى 600 حصان وعدد كبير من الجمال.

اقترح بيجار في ديسمبر 1862 مترجمه ليون روش لتقلّد وسام جوقة الشرف، ويصبح سفيرا مفوضا.

في ظل هذه المنظمة الخاصة، التي منها برز نجم رجل المخابرات الجزائرية المستقبلية العقيد عبد الحفيظ بوصوف، تمرّس في السرية أبناء الحرية، الذين بعدما ناضلوا دون كلل في حزبهم، صاروا مقتنعين الآن أن تحرير البلاد لن يتحقق إلاّ عن طريق السلاح. صمّم هؤلاء في العام نفسه قواعد الحركة المسلحة المهيكلة على المستوى الوطني حيث ظهرت المناطق الستة العملياتية التي ستتحول في وقت قريب إلى ولايات تاريخية.

قدّم حسين آيت أحمد في ديسمبر 1948، في التقرير-البرنامج أمام اللجنة المركزية الموسعة (حزب الشعب الجزائري / حركة انتصار الحريات الديمقراطية)، القارئ الناقد لـ "ك. ف. كلوسويتز" و"ب. ليدل هارت"، وبالتفصيل خطط عمل المنظمة والحزب التي سيتم بموجبها تحضير اندلاع الثورة الشعبية ويكتب قائلا: «لو نستعرض ببرودة التاريخ العسكري المعاصر، لن نعثر على وضع مماثل تتفاوت فيه القدرات إن من الناحية السياسية والاقتصادية والبشرية أو العسكرية... مهما يكن، ستعطينا الثورة الشعبية مقومات النجاح، أولا بفضل القوة الأخلاقية لقضية عادلة، ثم... كون الجزائر بلدنا[61].»

إدراكا منه بالفارق في علاقات القوة على مسرح العمليات، حيث الانتصار لن يكون إلا تكتيكيا، دعى الزعيم التاريخي في تقريره، في محاولة

---

[61] قرار آيت أحمد، رئيس المنظمة الخاصة، عضو المكتب السياسي لحزب الشعب الجزائري، في اللجنة المركزية الموسعة. في:

Archives de la Révolution algérienne, éd. Jeune Afrique, 1981.

لتعويض بل لقلب هذه الموازين، إلى فتح جبهة دبلوماسية يكون النصر فيها استراتيجيا. أوصى آيت أحمد قبل الخوض في تفاصيل طرق وأساليب بلوغ الهدف الاستراتيجي قائلا: «إنه هجوم سياسي تم التحضير له بعناية ودقة تماما مثل عملية عسكرية سيطلقها الحزب في مرتفعات حرب التحرير مستقبلا... أهل الجبال يستهجنون الأعمال المتهورة، وسيشكرون أولئك الذين يقولون لهم: لا وجود للإمام المهدي. إن المعجزة الوحيدة تتأتى من إرادتكم وقوتكم، من قدرتكم على التحمّل والتنظيم.»

في الفصل المتعلق بحرب التحرير، يؤكد الاستراتيجي الشاب آيت أحمد، الذي لم يكن يتجاوز سن الـ 26 آنذاك: «عندما نقول حرب شعبية نحن نقصد حرب الأنصار التي يقودها الطلائعيون المنظمون عسكريا من الجماهير المجندة سياسيا والمؤطرة جيدا [...] إن الحرب الشعبية هي الأساس الجوهري للمقاومة الحقة، الأسلوب الطبيعي للبقاء في المعركة أطول وقت ممكن، أي إعياء العدو.»

رغم اختراق عناصر من مديرية مراقبة الإقليم (DST)[62] الأحزاب السياسية الجزائرية، لم يتم الكشف عن المنظمة السرية إلاّ بعد حادثة توقيف عام 1950 أحد أعضائها، بلحاج عبد القادر، ما سمح لمصالح الاستعلام الفرنسية من التفكيك الجزئي للمنظمة. وكان يجب انتظار مجيئ

---

[62] شيخ سعيد زهيري، مدير نشر الأسبوعية "المغرب العربي"، كان عميل لدى العقيد شوان في كتاب: *L'esprit d'indépendance, op. cit.* ، ص 108.

أطفال نوفمبر، الذين، بعدما رفضوا وضعا غدت الحياة فيه مرّة والأمل ممنوع والموت خلاص، أعلنوا بيان أول نوفمبر 1954.

حرب التحرير

في الواقع، وتبعا للعمل السياسي السري، تجاوز الشعور بالانتماء الوطني الانقسامات القبيلة والجهوية، لبّت الجزائر نداء أول نوفمبر كحتمية تاريخية. وكتب بشأن ذلك "م. ف. كريفلد" : « بدأ انفجار العنف، خلافا لما يمكن اعتقاده، تمظهرا ساميا للحياة، وفي الوقت نفسه احتفالا بهذه الأخيرة[63]. »

خضعت المناطق العسكرية لقيادة أعضاء "مجموعة 22" الذين فجرّوا الثورة، مدعومون برفاقهم في المنظمة السرية. فضّل القادة أول مرة خيار المناطق المستقلة، تناغما مع مبادئ الحروب الشعبية. يكتب "ك. ف. كلوسويتز" عن الحرب الشعبية يقول : « هي كما الشيء الضبابي أو السائل، لا يجب عليها التكثّف في أي مكان في جسم صلب. [...] أول جهود النهوض الشعبي، وهي ضعيفة، دفعت بالعدو إلى أن يرسل كتائب قليلة الحجم والعدد خشية تقسيم قواته زيادة. إن الاحتكاك بهذه المفارز إلى انتشار حريق الحرب أكثر فأكثر[64]. »

---

[63] M. V. Creveld, *La Transformation de la guerre*, éd. du Rocher, 1998, ص 188.

[64] المرجع السابق، ص 554.

تميز نشاط الإستعلام الفرنسي بعمليات الاختراق والتضليل مثل تلك قام بها جهاز الـ (DST) والمسؤول الأسبق لـ (DGER) جاك سوستيل، فضلا عن البحث واحتيال إطارات جيش وحزب جبهة التحرير (ALN/FLN) بناء على تعليمات المنظمة المسمّاة "اليد الحمراء" التي تتبع الفرع العملياتي لـ (SDECE).

واجه قياديو الثورة، كل حسب ظروفه، هجمات المصالح، مثل تلك التي سنذكرها لاحقا، عبر حملات التحسيس والتأطير المتزايد يوما بعد أخر وسدد السكان، واستغلال حالات التحوّل في الظروف وفي إطارات العدو أحيانا أو المشاركة في عمليات عسكرية.

وتوضّح عملية الاختراق المسمّاة "الصفقة الكبرى" التي خطّط لها الحاكم العام جاك سوستيل، وكان الهدف منها القضاء على جيش التحرير الوطني وإحباط الحركة المسلحة، مثلما يتحدث عنها المجاهد "سي محمد صالح الصديق" في قصته "عملية الطائر الأزرق"، توضح ليس فقط تجنّد السكان حول زعمائه لكن القدرة على الاستجابة الردعية لقيادة حزب جبهة التحرير.

في الواقع، تمثلت العملية في توظيف جزائريين في بلاد القبائل ليتم تنظيمهم في مجموعات تتراوح ما بين 5 إلى 20 عنصرا على شاكلة مجموعات جيش التحرير قبل أن يخترقوا صفوفها «لقد كلّف المدعو "ت. أ." لتنفيذ المهمة في فيفري 1955. أوّل اتصال له كان مع صديقه أحمد الزايد»، وأمام خطورة التهديد الذي بلغه، اتصل بمسؤول محلي للثورة "عزرون محمد" الذي كشف عن المشروع للعقيد "كريم بلقاسم" قائد

الولاية الثالثة. بعد مشاورات مع الضباط يقرّر كريم الإطاحة بالعملية لصالح الثورة.

تم تسليم قوائم المتطوعين المزعومة دوريا لـ "ت. أ" عن طريق صديقه أحمد الزايد، باعتبارها تلك المنتظرة من قبل سوستيل وخادمه. وفي الواقع كانت تلك القوائم لمجاهدين اختارتهم القيادة العسكرية للولاية، ممن سيتولون تحت هذا الغطاء، تصفية المتعاونين مع المحتل بلا قلق، وتزويد الرفقاء بالسلاح والذخيرة المتحصل عيلها من الجيش الفرنسي الواثق من دعم القوة الموازية. تواصلت عملية التطهير (القضاء على الخونة) إلى حين نفذ أعضاء المنظمة أحد الخونة وأخبروا كعادتهم الضابط الفرنسي ليضيف إلى قائمته المرعبة تصفية المجاهد المزعوم الذي تعرّف عليه في عين المكان، وقد كان من أخلص معاونيه.

تصدّى "عبان رمضان" لواحدة من المناورات الهادفة إلى عزل الثورة يقوم بها الحاكم العام جاك سوستيل شهر جوان 1955 وحذر من مغبة الخضوع للمستعمر على خلفية مشروعه لتشكيل قوة سياسية معتدلة تجمع مختلف الحركات الوطنية (المركزيون والمصاليون والعلماء) لخوض حوار آخر مع المحتل مذكرا بمبادئ بيان أوّل نوفمبر.

أطلقت مصالح الإستعلام الفرنسية حملة تضليلية لتقويض أركان الحركة العسكرية بتركيز كل جهودها العسكرية على منطقة الأوراس. وفي محاولة منه تخفيف الضغط الممارس من قبل الجيش الفرنسي على وحدات جيش التحرير المقاتلة في الولاية الأولى، قرر زيغوت يوسف في 20 أوت 1955 مباغتة العدو في ثكناته عبر الإعداد لواحدة من أكثر هجومات

جيش التحرير الوطني جرأة وهو في شهوره الأولى من عمر ولادته، لم يتفطن لها العدو: «أظهرت هجومات 20 أوت 1955 للشعب قوة جبهة التحرير الوطني، كما عكس النشاط الدؤوب لعبان رمضان في العاصمة ضعف فرنسا» يكتب الجنرال "هـ جاكين"[65] مسؤول المكتب رقم 2 لهيئة الأركان الفرنسية بالجزائر العاصمة.

أطلقت مصالح الإستعلام الفرنسية في محاولة لاستدراك ذلك الفشل حملة قمع وحشية ضد السكان العزل: «بلغ القمع الفرنسي ضد الشعب الجزائري ذروة الدموية غداة هجمات 20 أوت[66].»

وصل الجزائريون التائهون أو المشككون في مآلات الثورة إلى القناعة التالية: إن فكرة الجمهورية الجزائرية الملحقة بفرنسا تجاوزها الزمن. جمع عبان رمضان حول جبهة التحرير أعضاء الجمعية الجزائرية ويطلب منهم إعداد بيان مدّوٍ. تطرق التقرير الإعلامي الشهري حول نشاط المسلمين في مقاطعة قسنطينة الصادر عن مصالح الإستعلام الفرنسية لبيان رئيس الجمعية عبد القادر سايح، الذي يعبّر عن هذه القطيعة: «إن الأحداث المأساوية الحالية تشهد على فشل سياسة الاتحاد. ففي الوقت الذي يعرف التراب الجزائري معركة بلا هوادة وتتلاشى حقيقة المجموعة الفرنكو-مسلمة، لا يمكنني أن أصدق فعالية مهمتي ولا البقاء في منصبي[67].»

---

65 H. Jacquin, *La Guerre secrète*, éd. Olivier Orban, 1977.

66 G. Meynier, *Histoire intérieure du FLN*, éd. Casbah, 2003, ص 179.

67 المصدر السابق.

أسّس "العربي بن مهيدي" قائد الولاية الرابعة، رفقة مساعده "عبد الحفيظ بوصوف" غرب البلاد، مصلحة حيوية للاتصالات، لضمان الربط على كل المستويات وتحضير ثورة الأمواج. سيكون على ثليجي مهندس هذه المصلحة العصبة والحساسة مدعوم بالمدعو "سي موسى أبو الفتح" و"لغواطي" قبل أن يباشر تكوين المشفّرين ومشغلّي الراديو. لقد استخلص "نابليون بونابرت" من خلال كل حروبه المتعددة التالي: «كل سرّ فن الحرب يكمن في القدرة على أن تكون سيدا في مجال الاتصالات[68].»

تحصل "مسعود زقار" المدعو "رشيد كازا" على أولى التجهيزات من القاعدة الأمريكية "نواصر" بالمغرب. تفطن العقيد "مصطفى بن بولعيد" قائد الولاية الأولى، المختص في الاتصالات، لقوة هذا السلاح، لكنه استشهد خلال تجربته جهاز راديو مفخّخ.

في 8 أوت 1956، ولدت مدرسة الاتصالات وهي تتوفر على دعم بشري ونوعي معتبر. وفي الواقع سمح النداء الذي وجهته جبهة التحرير إلى الطلبة بإدماج هذه النخبة في جيش التحرير وقبل أن تثري الأخيرة من بين العديد من المصالح تلك المتعلقة بالاتصالات. في شهر ديسمبر من السنة نفسها، دشّن البث الإذاعي حرب الأمواج.

«تمدّد التمرد، ينبّه الجنرال جاكين، لا يعود فقط لرداءة الوسائل المدنية والعسكرية التي تم اعتمادها بهدف الحد من انتشاره، بل قلة

---

[68] مذكور من طرف "ب. ليدل هارت" في كتابه :

Histoire mondiale de la stratégie, éd. Plon, ص 214.

الاستعلام هو من جعل جهود فرقة لم تكن تخطئ أهدافها عديمة الفعالية» مع أن كل مصالح الإستعلام الفرنسية كانت آنذاك مزروعة في الجزائر :

– كانت مصالح الربط (الاتصالات)شمال إفريقية (SNLA)، الملحقة بديوان الحاكم العام في الجزائر والمسيّرة من قبل العقيد شوئين، توفّر للحاكم معلومات مركزّة حول السياسية الإسلامية وحالة الرأي العام[69].

– كان الحاكم العام فضلا عن المعلومات التي تصله من (SNLA) و (PRG) الجزائر العاصمة، يستفيد من المعلومات الواردة من مكتب (SDECE) المزروع في العاصمة الجزائر.

كانت مديرية مراقبة الإقليم (DST) التي تتبع وزارة الداخلية، تخضع لرقابتها المقاطعات الجزائرية الثلاثة.

كان المكتب رقم 2 بقيادة الناحية العسكرية العاشرة بالجزائر العاصمة مكلّف بتوفير المعلومة لوزارة الدفاع.

حذر عبد الحفيظ بوصوف، في محاولة منه تجنب أي مفاجأة قد تكون مدمّرة لوحداته المقاتلة على وجه التحديد: «من غير المقبول أن يتحرك الجيش الفرنسي فوق ميداني دون علمي» ينقل "أ. حساني". جعل بوصوف من سلاح الإستعلام الدرع الواقي ضد كل هجوم مفاجئ وحجر الزاوية في كل

---

[69] O. Forcade, S. Laurent, *Secrets d'Etat*, éd. Armand Colin, 2005, ص 129.

تخطيط للعمليات. في الفاتح جانفي، صار مركز التنصت الراديوكهربائي عمليا في الولاية الرابعة، وكان إنجازا في ذلك الزمان مكّن من اعتراض وقراءة رسائل جيش الاحتلال الإذاعية، كمصدر للاستعلام لا يقدّر بثمن في تلك الحقبة من الحرب. تم لاحقا بناء مركز للتنصت على الحدود الشرقية في فيفري 1958. ألحقت أقسام الشفرة فيما بعد بـ (DVCR).

رغم فعاليتها، أصّرت إطارات مصلحة الاتصالات على اقتناء جهاز إرسال واستقبال عالي الجودة (ANGRC9) من أجل عصرنة شبكة جيش التحرير الوطني، لكن هذا الجهاز الجوهرة، كان حكرا على أعضاء حلف الأطلسي، سيتولّى مهمة الحصول على الجهاز المهم وتجاوز العقبات الضابط الهادئ "عبد القادر شنغريحة" الذي تمكّن بفضل أحد معارفه في ألمانيا وسلطة المال وأمر بالشراء من السلاح الملكي المغربي، من افتكاك الصفقة من ضابط أمريكي مسؤول هذه الأجهزة، وشحن بلا مشاكل تذكر 50 جهاز باتجاه طنجة عبر برشلونة شهر ماي 1957 قبل تحويلها إلى وجهتها النهائية.

نهاية العام نفسه، أبلغ الجنرال "سالان"، ربما لتجنب توبيخ رؤسائه مثلما حدث لمصالح الإستعلام الفرنسية في الفيتنام: «إن عصابة الفلاقة تحولت إلى تنظيم مدعّم بشكل جيد بالأسلحة الآلية والمدافع الرشاشة وقذائف المورتر ووسائل قيادة غاية في الأهمية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى[70].»

---

[70] جاك فريمو، المصدر السابق، ص 127.

أعاد جيش الاحتلال، خلال العام 1956، تنظيم وتدعيم السلاح الرهيب المتمثل في الإستعلام، بلا شك على خلفية توجهات القيادة وتحليل الوضع الذي صار يفلت من بين أيديهم يوما بعد آخر. بالموازاة، ومن أجل ضمان بعض التحالفات وتركيز الجهود العسكرية على الجزائر، تخلت فرنسا بداية هذه السنة عن بعض الأعباء الاستعمارية، وكل فرقها المرابضة في تونس والمغرب وفي ألمانيا التحقت بالجزائر. اشتدت الحرب.

ستكتمل مهمة تنظيم وتنسيق الكفاح المسلّح العام نفسه تحت قيادة وفطنة العربي بن مهيدي وعبان رمضان، وستكون هذه العام عام آخر الترتيبات لنشر القدرات تمهيدا للمعركة الحاسمة.

صوّتت الجمعية الوطنية الفرنسية في 12 مارس 1956 على "القوى الخاصة" التي تمنح سلطة حقيقية في مجال الشرطة والأمن للحاكم العام الجديد في الجزائر "لاكوست".

دعي الجنرال "سالان" ,وهو من قدماء المحاربين في الفيتنام «المقتنع بأولوية الإستعلام في الحرب على السيف» مثلما قال عنه الجنرال "جاكين" لتعزيز القوات كقائد أعلى، فبدل جهدا معتبرا في تنظيم مركز التنسيق ما بين الجيوش (CCI) الذي جمع كل المصالح العسكرية الخاصة فضلا عن نشاطه الموازي مع بقية مصالح الشرطة والدرك. سيكون الأخير هو من ينشئ المنظمة العسكرية الخاصة (OAS).

لم يتحسن أداء وفعالية مصلحة الإستعلام العمليات كفاية منذ صارت تحت إمرة مركز التنسيق ما بين الجيوش (CCI). إن الإستعلام عمل طويل الأمد لا يتلاءم. مع الارتجال: «نصّبنا مصلحة للجوسسة المضادة بتوزيع

مفارز عملياتية للحماية على التراب الجزائري (DOP) مهمتها إحباط عمل المنظمات السرية المناوئة » يضيف الجنرال جاكين دون أن يذكر مصلحة الإستعلام العملياتي (SRO) التي تم تنصيبها العام 1956 المبيّن في الهيكل التنظيمي أدناه. وبتأسيس ومركزة مصلحة الإستعلام العملياتي (SRO) والمفارز العملياتية للحماية (DOP) أنهى مركز التنسيق ما بين الجيوش (CCI) تنظيم الإستعلام البشري الموجود ميدانيا سلفا.

بالموازاة، تدعّم الاستطلاع الجوي بإنشاء العام 1956 ثلاث مجموعات جوية تكتيكية (GATAC) بكل من قسنطينة ووهران والجزائر ومركزين للقيادة الجوية المديرة (PCAD) في بشار والأغواط. كلف هذا الجهاز بتحديد وتأكيد المعلومة والقيام ببحوث ممنهجة في المناطق التي يحتمل فيها تواجد وحدات جيش التحرير وكذا محاور العبور.

تجاوز الإستعلام ذو الطابع الأخطبوطي الإطار العسكري البحت وصار بوليسيا في بحثه عن المنظمات السرية، فكان غالبية الشعب الجزائري هدفه، لكن تبين أن اختراق منظمة جبهة التحرير صعب جدا، فتحولت الأنظار إلى الجمعيات الدينية والصوفية وطلب من الجنرال "ب. ج. أندري" من أكاديمية العلوم الاستعمارية العام 1956 تقديم اقتراحات لتحسيس السكان بهدف الاحتلال.

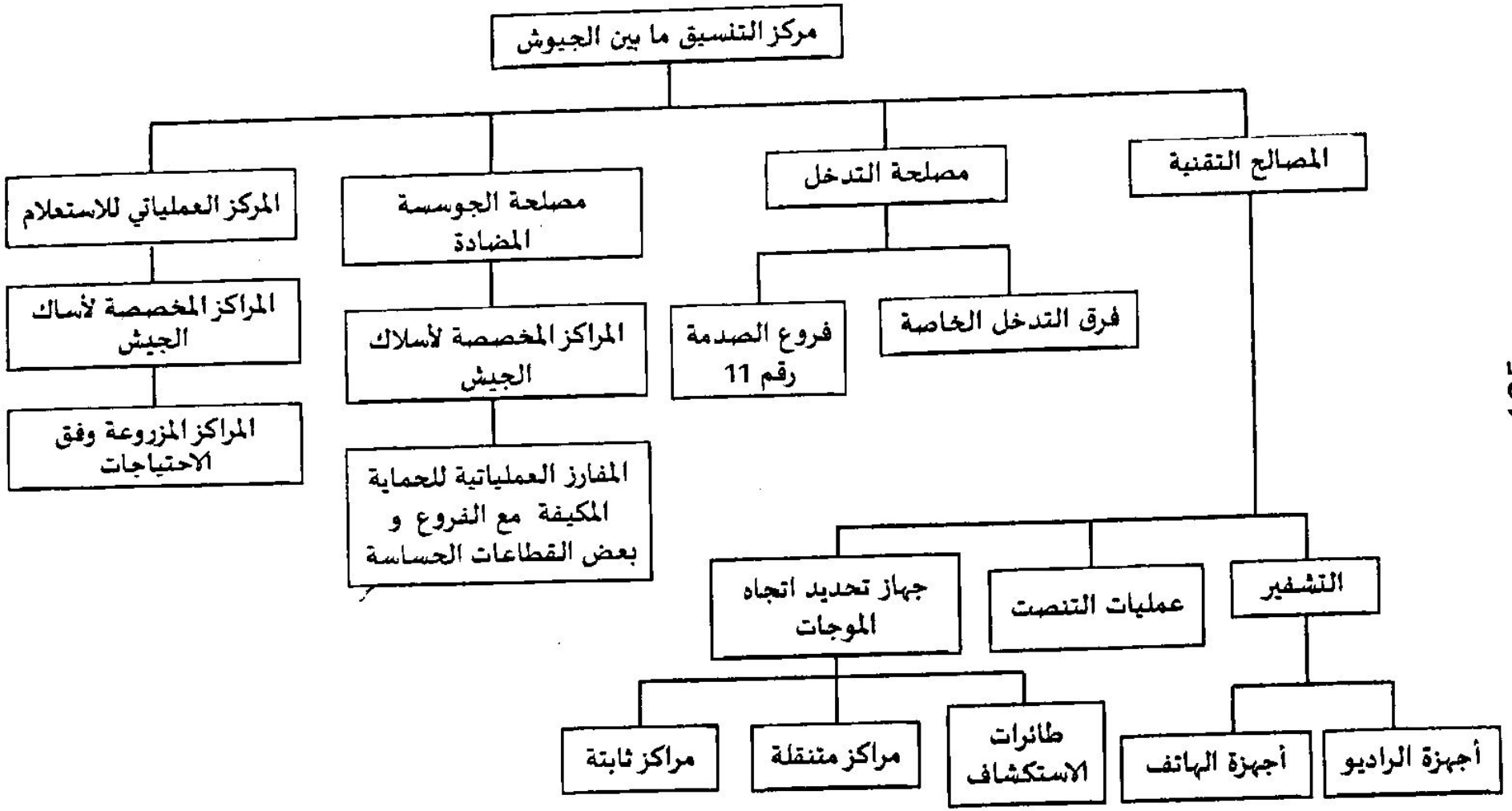
مركز التنسيق ما بين الجيوش
المصالح التقنية
مصلحة التدخل
مصلحة الجوسسة المضادة
المركز العملياتي للاستعلام
فرق التدخل الخاصة
فروع الصدمة رقم 11
المراكز المخصصة لأسلاك الجيش
المراكز المخصصة لأساك الجيش
المراكز المزروعة وفق الاحتياجات
المفارز العملياتية للحماية المكيفة مع الفروع و بعض القطاعات الحساسة
التشفير
عمليات التنصت
جهاز تحديد اتجاه الموجات
أجهزة الراديو
أجهزة الهاتف
طائرات الاستكشاف
مراكز متنقلة
مراكز ثابتة

في أكتوبر 1956، باشر "موريس لاصاب"، محافظ شرطة سابق تحت حكم فيشي، قبل ترقيته divisionnaire في الجزائر، اتصالات مع السجين عبد القادر بلحاج المدعو "كوبيس" الذي انتقد خلال توقيفه العام 1950 مسؤول المنظمة الخاصة. كان هدف الشرطي الفرنسي مثلما يحكي "روجيه فاليغو" و"باسكال كروب"[72] إقناع "كوبيس" بتنظيم معقل مضاد بمنطقة "دوبيري" (عين الدفلى) تحت أعين مديرية مراقبة الإقليم. ظاهريا ستكون ما تسمى "القوة ك": (Force K) ضد فرنسا رسميا، لكنها في الخفاء ستكون قوة مدعومة فرنسيا تحارب جبهة التحرير. تولّى قيادة "القوة ك"، التي تضم مجرمين ومنحرفين ينتحلون صفة مقاتلين في (الأفلان) عميلان في المصالح الخاصة الفرنسية، النقيبين "كونيل" و"هانتيك". كان مصير "كوبيس" التصفية بعدما لفظه الشعب وعزله في المعقل أقرب رجاله، وبعض من هؤلاء التحق بصفوف جيش التحرير ومعهم السلاح والأمتعة.

لم تكن حالة "كوبيس" فريدة، فـ "بلونيس" خدم الاستعمار في نفس الظروف، لكنه وبسبب بعض نزعاته الاستقلالية يتعرض للتصفية عام 1958 من قبل من كانوا يتلاعبون به ومنحوه رتبة جنرال. تم حلّ كتيبته وتوزيع رجالاته على وجدات الكوموندو في الجيش الفرنسي.

وتعد قضية "لا بلويت" (Bleuite) واحدة من عمليات التضليل الأكثر إجراما لمصالح الإستعلام الفرنسية، بدأت مع وصول فتاة تدعى "روزا" إلى الجزائر، تلتحق فيما بعد بصفوف جيش التحرير بالولاية الثالثة، لكن

---

[72] راجع *Le Livre noir du colonialisme*.

سلوكها المريب يثير شكوك النقيب "احسن محيوز" الذي قام باعتقالها قبل أن تعترف خلال استجوابها أنّها كلّفت من طرف النقيب "ليجي" بالاتصال ببعض ضباط جيش التحرير، ويتذكر "أ. الحسني": «أعطي إنذار لكل المناطق والنواحي التابعة للولاية الثالثة لتوقيف كل العناصر التي جاءت من الجزائر ابتداء من شهر جانفي 1958 وتحويلهم إلى أكفادو لغرض التحقيق[73]، إنها مؤامرة "الزرقية".

يكتب "جودي عتومي" وهو ضابط سابق في جيش التحرير في شهاداته: «خيّم الخوف على الولاية الثالثة، رعب "لابلويت" عشعش هناك واستمر عدة أشهر، تلاشى الخوف عندما نددا القائدان "عبد الرحمن ميرة" و"محند أولحاج" في شهر مارس 1959 بالتعذيب.» في الوثائق التي وجدت فوق جثة العقيد عميروش مكتوب عليها: «من بين 542 شخصا تمت محاكمته، 54 أطلق سراحهم و152 حكم عليهم بالإعدام. غالبية الـ 336 الباقون لقوا مصرعهم تحت التعذيب من بينهم 30 ضابطا.»

ومهما كانت الحصيلة، نجحت العملية التي أديرت باحترافية في زرع البلبلة وسط صفوف المقاتلين مدة من الزمن. عدة عمليات تضليلية تم القيام بها أعقبت الاعتقالات وحملات الاستغلال وتحويل مسبّلين صاروا يقومون بمهام ساعي البريد.

لم تكن مختلف الردود، من بينها تلك المذكورة آنفا، محاولات ارتجالية بل كانت عمليات مدروسة ومخطط لها من طرف رجال أفنوا حياتهم في

---

[73] A. A. El Hassani, *Mémoire de combat*, éd. Dar El Oumma, 1998.

العمل السري داخل المنظمة الخاصة، حيث الانشغال بالوقاية وثقافة السرية واحترام التقسيم (cloisonnement) هي مبادئ مطلقة.

من جهتهم، وعلى مستوى جيش التحرير الوطني، اجتمع قادة الثورة، المدرّبون على مصاعب مختلف أشكال النضال، في مؤتمر الصومام 20 أوت 1956 لوضع، ضمن نظرة شاملة، أسس الخطوة التي ستضع البلاد على طريق الاستقلال. ونذكر من بين قرارات المؤتمر :

– تأسيس الهيئة الوطنية للقيادة المسمّاة "المجلس الوطني للثورة الجزائرية" (CNRA) وانتخاب من داخلها مجلس التنسيق والتنفيذ (CCE).

– هيكلة المصالح على مستوى الولايات.

أوكلت مهمة تسيير الولاية لضابط برتبة عقيد إلى جانب ثلاثة ضباط مساعدين برتبة رائد: الأول للعمل السياسي والثاني للقيادة العسكرية والثالث لفرع الإستعلام والاتصالات. بعدها تمّ تنظيم بقية القطاعات بنفس الطريقة التي ذكرناها آنفا.

كان مسؤول المركز يسهر على نقل الرجال والبريد والأمور اللوجستية وعادة ما كانت العملية تتم ليلا ومشيا على الأقدام. وبفضل المعلومات التي كانت تصل المسؤول عن طريق عناصر الربط والحراس كان الأخير يشرف على الأمن ويراقب أخيرا تنقل أفراد جيش التحرير بعد التحقق من رخص المرور.

سيخوض الجزائريون الكفاح لا في شكل انتفاضات متفرقة بل في إطار حرب تعلنها دولة قائمة لذاتها قرّرت طرد المحتل.

تولى الفرع السياسي ونظيره الاستعلامي، مع ما يتسمان من طبيعة تمددية، تأطير السكان ومواجهة النشاط العدائي للمصالح الفرنسية الخاصة. لاحظ الجنرال "إلي" رئيس هيئة الأركان الفرنسية عزيمة السكان فكتب يقول: «بدأ التخريب غداة تنصيب هيئة سياسية وإدارية، كانت تجمع الضريبة وتزوّد الجبال بالمؤونة وتمارس الدعاية في المدن الكبرى كما في القرى والدواوير... التنظيم الذي ميّز الهيئة رغم طابعها الخفي، جعلها أكثر حزم وخفة من إدارتنا.»

يعتبر "مارتينفان كريفلد": «إن الحرب، على غرار أي لعبة، تتميز بالتفاعلية، أي فارق يتوقف قبل كل شيء على تحركات الخصم، بغض النظر طالت أم قصرت، إن القدرة على التأقلم هي من تجعل المشاركين فيها يشبهون بعضهم البعض [...] المنتصر هو من يفقه القواعد ويضبط لعبه على النتائج[74].» وهو ما يؤكده تاريخ 5 جويلية 1962.

مع قدوم الحكومة المؤقتة العام 1958 رفع الإستعلام والاتصالات إلى مصاف وزارة. وسيكون النشاط الإستعلامي ملزما على التسلّل إلى السلطة الفرنسية بما يسمح للحكومة الجزائرية لقيادة هجوم عام على دبلوماسية هذه القوة الاستعمارية. تضمنت وزارة الاتصالات العامة والمواصلات

---

74 M. V. Creveld, *La Transformation de la guerre*, éd. du Rocher, 1998, ص 12.

(MLGC) التي كان يقودها العقيد عبد الحفيظ بوصوف، المدعو سي مبروك، أساسا، مركز الاتصالات العامة والإستعلام (CCIR) المتكون من:

- فرع العمل والدعاية (SAP) مهمته اعتراض النشاط الدعائي للعدو الصادر من المكتب الخامس؛

- الفرع العسكري العام (SMG) المكلف بمتابعة النشاطات العسكرية للعدو واستراتيجية احتلال الأراضي؛

- فرع الإعلام والنشاطات السياسية (SIAP) المكلفة بتحليل تطور الوضع السياسي عند العدو من خلال التوثيق المفتوح والتقارير التي تحمل من مصادر أخرى؛

- فرع الإستعلام المضاد (SCR) المكلف بتحديد ورصد أسماء المتعاونين مع العدو من السكان الأصليين وكشف شبكات المصالح الخاصة الفرنسية.

أنشأ جيش التحرير الوطني لاحتياجاته العامة مدرستين لتكوين الإطارات: الأولى في وجدة بالمغرب، ومنها تخرج من بين أهم إطاراتها العقيد "قاصدي مرباح" ممن سيصبح بعد الاستقلال مدير الأمن العسكري (DSM)، أمّا الثانية فبمدينة الكاف بتونس.

شكلّ التزود بوسائل الاتصال والسلاح التحدي الذي واجهه كل من الـ (MLGC) و (MARG) وستحتاج متطلبات الثورة الجوهرية إلى إدارة الكفاح على عدة جبهات:

-مواجهة الـ DGSE التي أطلقت حملة مطاردة ضد إطارات حزب جبهة التحرير بغرض التصفية والبحث عن مزوّديهم بالسلاح إمّا لحملهم على التراجع أو العمل لصالحها ؛

-مواجهة عقبات ما بعد وضع خطي شال وموريس التي عرقلت حركة مرور السلاح والأشخاص ؛

-مواجهة البحرية الفرنسية المكلفة باعتراض ومراقبة الباخرات التي تحمل المعدّات المطلوبة.

وظفت المخابرات الجزائرية كل عبقريتها للقيام بهذه المهمات المحفوفة بالمخاطر في أوروبا وعبر حدود الجزائر، بعض المهمات حالفها الحظ وأخرى فشلت.

يكتب "ج. مينيير"[75] يقول: «تجّلت فعالية التزوّد بالسلاح إلى حين الانتهاء من السدود المكهربة (خطوط شال وموريس) في ربيع 1956 قدّر المكتب الفرنسي رقم 2 حجم السلاح الجديد الذي كانت تتزود به معاقل المجاهدين شهريا بـ 1300» في تقرير صادر في 12 فيفري 1958 يضيف الكاتب حديث عن مصادر تموين لم تتوقف، كانت تستفيد منها القاعدة العملياتية بتونس ومنها إلى معاقل الثورة... كان الجهد اللوجيستيكي كبيرا.

شهد البث الإذاعي الجزائري، وكان عمليا منذ 1956 في الولاية الخامسة، تنظيما محكما سنة 1958 تحت رعاية الـ (MLGC). واعتبر

---

[75] المرجع السابق، ص 477.

المكتب الفرنسي رقم 2 أن هذه «الإذاعة تحوز على تنظيم تقني عالي الجودة[76]».

من الطرف الفرنسي، راحت كل المصالح الخاصة تتجنّد لكسر زخم الثورة، ونحصي يقول "جاك فريمو" : «أربعة أنواع من ضباط الإستعلام : ضابط الإستعلام في الكتب رقم 2، ضابط الإستعلام بمصلحة العمل (service action)، ضابط العمل البسيكولوجي التابع للمكتب الخامس وضباط الفروع الإدارية المختصة (SAS)، ينضاف إلى هؤلاء فرق مصالح الدرك والـ (DST) والشرطة القضائية والـ RG79[77].»

---

[76] المصدر نفسه، ص 488.

[77] المصدر نفسه، ص 171.

من يكون "عبد الحفيظ بوصوف" ؟

هو أحد أبناء الجزائر البررة، ممن تحدى الموت من أجل سيادة الشعب الجزائري. هو من أوائل المناضلين ممن عُرفوا كقراء جيدين لكتابات الثورية. ولد بوصوف عام 1926 بمدينة ميلة، حيث زاول دراسته الابتدائية. بعد حصوله على شهادة التعليم المتوسط بقسنطينة انضم إلى حزب الشعب / حركة انتصار الحريات الديمقراطية وعمره لا يتجاوز 16 سنة. أصبح بوصوف بعد خمس سنوات عضوا فاعلا في المنظمة السرية (OS) بقسنطينة. في جويلية 1954، حضر اجتماع القادة الـ 22 ممن قادوا البلاد على خطى الاستقلال.

غداة اندلاع ثورة التحرير في الفاتح من نوفمبر أصبح عبد الحفيظ بوصوف فى العام نفسه نائب العربي بن مهيدي مسؤول المنطقة الخامسة آنذاك. ينجح بوصوف بعد مؤتمر الصومام، وقد أصبح عقيدا فقائدا للولاية الخامسة، وهومن وضع نظام للتنصت وتشفير الربط الإذاعي واتصالات العدو في وقت وجيز مثلما تنقل شهادات رفاق السلاح.

تقلّد عبد الحفيظ بوصوف بالتوالي عضويتي لجنة التنفيذ والتنسيق (CCE) واللجنة الدائمة للثورة (CPR) ووزارة الاتصالات العامة والمواصلات (MLGC) ثم وزارة التسليح والاتصالات العامة (MALG).

شارك عبد الحفيظ بوصوف المعروف باسم "سي مبروك" وهو الرجل الحصيف، الذي يقدّر ويحترم الشباب المتعلم، في وضع شبكة للاتصالات

والإستعلام بالولاية الخامسة امتدت إلى ولايات أخرى. أنشأ جهاز الإستعلام والاتصال وبادر إلى تكوين الإطارات في هذه المجالات. ونظرا لصعوبة إيصال السلاح إلى وجهاته أنشأ بوصوف مصانع للسلاح في المغرب وتولّى تنظيم شبكة لنقل الذخائر من دول صديقة.

يكتب علي شريف دروعة في موضوع بعنوان: "بوصوف يخرج من الظل"[78]: «دعا بوصوف في جانفي 1960 العقيد لطفي، وكان في زيارة إلى القاهرة، ليقول له: «يا لطفي، إن الفرنسيين قاموا بثورة عام 1789 لم يتوقفوا عن استغلالها إلى اليوم. نحن قمنا بثورة كبيرة أيضا، وإزاءها لم نكن في المستوى، لأنها سرعان ما غادرتنا وتركتنا في وادٍ.»

يقول الكاتب معلّقا: «يعطى هذا الكلام فكرة عن طبيعة تفكير بوصوف وقيمته ودقته وتنبؤاته حول مستقبل الجزائر» قبل أن يضيف أن بوصوف كأي شخص، لم يكن معصوما من الأخطاء، لعل أبرزها، الشك العميق، لقد كتب في جوان 1956 على أعمدة المجاهد: «ولد جيش التحرير الوطني في نفس اليوم الذي ولدت فيه جبهة التحرير وثورة الفاتح نوفمبر. وبينما يترجم الأفلان أهداف الثورة للشعب الجزائري، يظل جيش التحرير وسيبقى الأداة التكميلية الضرورية. إن كلاهما مرتبط بالآخر، وكلاهما يستقي قوته من نير الاستعمار الفرنسي ومن إرادة الأمة الجزائرية في التحرّر ومن إفلاس الأحزاب السياسية الجزائرية، وأخيرا، من التعنت الأعمى والفكر الرجعي لمصالي.»

نجح جيش التحرير في كسب المعركة، بفضل توجهات وحكمة جبهة

---

78 http://www.djazairess.com

التحرير، لسان حال أمة الشهداء، كما نجح فى كسب معركة الاستقلال والوحدة والتحرر الوطني.

توفى عبد الحفيظ بوصوف، الملقّب بـ "أبو مصالح الإستعلام الجزائرية" بأزمة قلبية في 31 ديسمبر 1980 في شقته بباريس وبحضور زوجته.

وظّف الـ (SDECE) بتونس، إطارا ساميا بوزارة التسليح، قدّم معلومات عملياتية حول بواخر نقل الأسلحة الموجّهة لوحدات جيش التحرير[79]. تعرضت عدة بواخر للمراقبة البحرية (SURMAR). تمكّن العميل من الإفلات من مصالح الإستعلام الجزائرية والالتحاق بالقاعدة العسكرية الفرنسية بمدينة بنزرت.

في تونس دوما، تمكن الـ SDECE، من توقيع الخطوط الهاتفية للرئاسة في الفخّ، وهي المستعملة آنذاك للاتصال مع الحكومة المؤقتة، وهذا بهدف التنصت. اكتشفت إطارات الـ DVCR تعدِ في الاتصالات قامت به الشبكة الفرنسية المسمّاة "ماجنتا" (Magenta)، أخبر هؤلاء الشرطة التونسية فقامت بتفكيكها.

أنشأ "جاك سوستيل" العام 1956، داخل البلد، الفروع الإدارية الخاصة (SAS)، وريثة المكاتب العربية. كلفت هذه الفروع رسميا بمساعدة السكان لمواجهة مصاعبهم اليومية، وكانت مكاتب حقيقية لمصالح الإستعلام وزّعت على مجمل البلديات مثل سابقتها، وبالتنسيق مع المكتب رقم 2 والـ (دس أس تي) حاولت هذه الفروع التسلّل داخل الخلايا القاعدية للأفلان.

قوة أخرى ستظهر العام نفسه وكذلك شكل آخر من الحرب غير متوقع، هو الإرهاب الحضري. ففي 10 أوت، انفجرت قنبلة بشارع "تاب" (Thèbes) بالعاصمة الجزائر أودت بحياة العشرات من بينهم أطفال. قاد الوضع إلى

---

79 Lahreche Brahim, *La Lance et le bouclier*, 1999.

ظهور "منظمة المقاومة من أجل الجزائر فرنسية" (ORAF). رد فعل الشباب العاصمي كان سريعا جدا.

بالموازاة مع الانتشار المخطط له والمنظم بشكل جيد لمصالح الإستعلام، راح الجيش الفرنسي، بعدما رُحّل الجزائريين في بعض مناطق البلاد باتجاه المحتشدات[80] المحاطة بالأسلاك الشائكة، يغلق الحدود الشرقية والغربية بواسطة خطوط موريس وشال. خضع الساحل الجزائري لرقابة البحرية بينما كان الطيران يقوم بطلعات استكشافية وقنبلة القرى عقابا لسكانها في غالب الأحيان. على مستوى الأرض، تعرض التراب الجزائري لعمليات تمشيطية كبرى أطلقت عليها تسميات عدّة مثل شال وجوميل والحجر الثمين والكوروا...

سجلّت مصلحة العمليات، وكانت تزّودها المصالح التقنية بالمعلومات، نجاحات بالأخص مع التنظيم الممنهج لقوات الكموندوس المحمولة جوا. اهتمت المصالح الخاصة بكل صغيرة وكبيرة لإخماد الانتفاضة الشعبية. عمليات خاصة وأخرى سرية حلّت محل التحليل. صار القمع ممارسة مفضّلة.

---

[80] حسب "ج. فريمو" كانوا يتحدثون عن عالم المحتشدات.

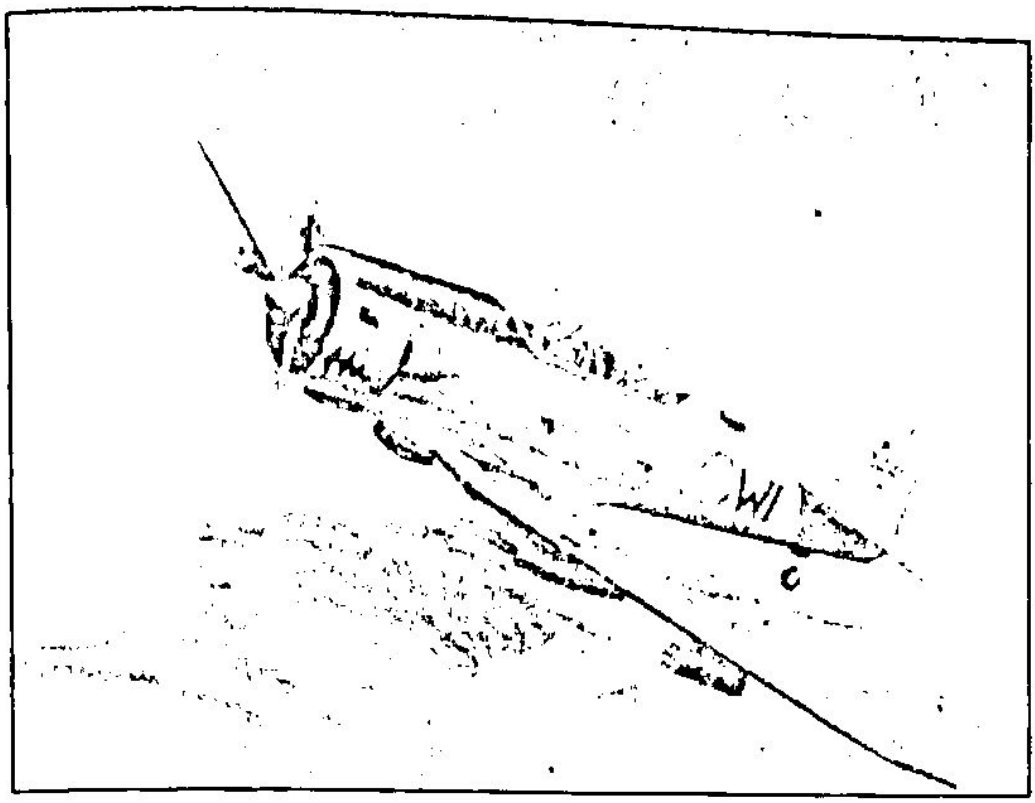

تي 6، طائرة حربية استخدمت خلال حرب الجزائر[81]

واجه الإستعلام العسكري الكفاح الحضري في الجزائر العاصمة باعتماد التعذيب الممنهج والاختطافات الاعتباطية، وفي هذا الصدد يكتب النقيب راسين[82]: «كان التعذيب المآل السوداوي الذي اهتدت إليه مصالح الإستعلام للتغطية على عدم فعاليتنا العسكرية. إنه ثمن ضعفنا.» حرّكت الابتزازات التي قامت بها المصالح الخاصة الوازع الديني للجترال ماسو،

---

[81] كان الجزائريون يسمّون الطائرة "تي 6" المزودة بأدوات فوتوغرافية بـ "الطائرة الصفراء" وكانت تكلّف بمهمات استطلاعية إلى غاية 1959 قبل أن يتم استبدالها بـ "تي 28" أو "الفنك". رؤية هذه الطائرة في السماء كان إعلانا للحريق والدم في المداشر والقرى.

[82] In *La France et l'Algérie en guerre, op. cit.*, ص 236.

الذي كتب في محاولة لتحرير ضميره عبر شراء المغفرة يقول: «إن تصرفاتنا تجاه السكان الجزائريين كانت مناقضة لمبادئ المسيحية» شعور الجنرال بالندم ظل بلا صدى.

انحرفت مصالح الـ DOP وغرقت في منطق المجازر الجماعية: «ضاعفت الـ DOP من الإعدامات ومن أعمال التعذيب الواسعة النطاق. غطّت السلطات العسكرية العليا على فعل التعذيب وتنكرت له العديد من السلطات السياسية.» يؤكد "أ. فوركاد" و "س. لوران"[83].

تأقلم جيش التحرير الوطني مع القيود الجديدة عبر تفعيل تشكيلاته، وتزويد بعض وحداته بالسلاح الثقيل لمزيد من التحرك.

في شهر سبتمبر 1958 وبحضور الجنرال "إلي" رئيس هيئة أركان الدفاع الوطني، أقّر رئيس الدولة الفرنسية الجنرال ديغول، بقسوة وربما بمرارة الهزيمة المعلنة فيقول: «نردد دائما أن الوضع العسكري يتحسن. لن نخرج سالمين أبدا. كان يجب العثور على وسيلة للقضاء على الثورة. إن غزو الجزائر جرى بفِرَق أقل عددا[84].»

قبالة هذا الوضع الصعب الذي يخضع له جيش التحرير الوطني، ومن أجل تنسيق أفضل وفصل لا لبس فيه، قرّر الـ CNRA في ديسمبر 1956 الجمع بين وزارتي التسليح والتموين العام (MARG) و MLGC في إطار

---

[83] المصدر السابق، ص 131.

[84] المصدر نفسه، ص 7.

وزارة جديدة، هي وزارة التسليح والاتصالات العامة (MALG) التي أوكلت مهمة تسييرها للعقيد عبد الحفيظ بوصوف المقتنع بأن « سر النجاح هو السّر ». تمت هيكلة الـ (المالغ) في ست مديريات[85] :

- مديرية التوثيق والبحث (DDR) ؛
- مديرية اليقظة والاستعلام المضاد (DVCR) ؛
- مديرية الربط (DL) ؛
- مديرية اللوجستيك شرق (DLE) ؛
- مديرية اللوجستيك غرب (DLO) ؛
- مديرية الإرسال الوطني (DTN).

أصبحت الأقسام :

- SMG ← تصبح مصلحة الشؤون العسكرية (DAM)

- SIAP ← تصبح مصلحة الشؤون السياسية (DAP)

تم تعزيز المصلحتين بمصلحة ثالثة للشؤون التقنية (DAT)، وتم توزيعها عبر التراب الوطني وفي بعض الدول العربية (المغرب وتونس وليبيا ومصر) وحتى في فرنسا رغم تجند مصالح استعلامها بحثا عن عناصر جبهة التحرير الوطني. أوكلت مهمة التنسيق بين هذه المصالح لـ DCCO غرب البلاد و DCCE في الشرق (مديرية المراقبة والتنسيق بين مصالح إستعلام المالغ).

---

85 S. Seddar, *Ondes de choc*, éd. ANEP, ص 3.

ستتولى هذه المصالح باستغلال كل المعلومات التي تصلها من مراكز التصنت وتقارير الولايات والوحدات الحدودية والصحافة المكتوبة ومصادر أخرى مستترة. في هذا الصدد يكتب "جلبير مينيير" قائلا: «لم يغفر فتحي الديب، مسؤول مصالح الإستعلام المصرية المكلف أيضا بالعلاقات مع المغرب، الذي وجد في بوصوف الأستاذ في المجال البوليسي، اختراق مصالحه[86].»

تم تنظيم مركز الإستغلال الوطني (CEN) الذي تم زرعه في ليبيا، المسمّى "مركز ديدوش" حول ثلاث مصالح:

- الإستعلام، الذي يضم مصالح الشؤون العسكرية والسياسية والتقنية؛
- الإستعلام المضاد؛
- الشفرة؛
- الإرسال.

أوكلت للمركز مهمة ضمان متابعة وتحليل الوضع، بالأخص في الجزائر وفرنسا وفي الدول العربية. تدعّم الإستعلام الجزائري بفضل شبكات الأنصار وبعض المثقفين الملتزمين.

مع مرور الوقت، تمّكن المركز من نسج شبكاته حتى داخل مكتب رئيس الجمهورية الفرنسية الجنرال ديغول، بل نجح أيضا في الحصول على

---

[86] المصدر السابق، ص 578.

خرائط هيئة الأركان[87] (50 000/1) بفضل عناصره المتسللة داخل وزارة الدفاع الفرنسية.

سوف يكون عمل متعاملي الراديو أكثر فعالية وسيسمح بفك رموز رسائل العدو ولو بشكل جزئي، وأحيانا تحديد أهداف العمليات المخطط لها من قبل الجيش الاستعماري. إن إعادة التنظيم، الأكثر عدائية، إن أمكن وصفها بذلك، تترجم الأهمية المتزايدة لدور للإستعلام.

يتذكر "محمد لمقامي" الضابط في صفوف (المالغ) فيكتب يقول: « نجحت المصالح الخاصة الجزائرية خلال فترة الحرب في التسلل إلى الكي دورسي والإدارات المركزية والبعثة العامة للحكومة وحتى الناحية العسكرية العاشرة بالجزائر العاصمة، سمح ذلك للحكومة المؤقتة بالتصدي للنشاط الدبلوماسي الفرنسي بسهولة[88]. »

صارت اللجنة التي نصبّها الرئيس الفرنسي ديغول على مستوى ديوانه بلا أسرار بالنسبة للمخابرات الجزائرية. كان العميل الموظف من قبل الأخيرة، وهو عضو في اللجنة المذكورة، يسلّم للضابط الذي يتعامل معه تقريرا حول أعمال كل دورة، وبهذا الشكل تسلّم عبد الحفيظ بوصوف مسبقا الملف الخاص باستراتيجية المفاوضات الفرنسية، قبل أن يحوّله إلى وزير الشؤون الخارجية بالحكومة المؤقتة سعد دحلب، عضو وفد جبهة

---

87 B. Lahreche, *L'Epée et le bouclier*, 1999.

88 M. Lamkami, *Les Hommes de l'ombre*, SNED, 2004.

التحرير في المفاوضات مع الحكومة الفرنسية. كانت خطابات الرئيس الفرنسي تصل الحكومة الجزائرية المؤقتة قبل بثّها.

لم تكن جبهة التحرير الوطني الرافضة لكل تنازل والعازمة على مواصلة الكفاح حتى تحرير الشارع كامل البلاد، المحاور الذي كانت ترغب فيه فرنسا، الباحثة آنذاك عن مخرج إيجابي. عدة حيل تم طبخها بالإليزي لإبعاد الأفلان. راح المحتل، بعد فشل "سلم الشجعان" العام 1960، وهو منهك الجهود من الحرب، ينظّم "قوة ثالثة" من أجل "طريق ثالث نحو السلم" استبعدت من مساره الحكومة المؤقتة. خرج الجزائريون إلى الشارع لإعلان رفضهم أي مفاوضات تقصي حكومتهم المؤقتة. انتهت هذه المظاهرات مثل سابقتها بحمامات من الدم. كانت النتيجة مبهرة، وتعاليق بعض المراقبين الفرنسيين أثنت عليها:

– إن الطريقة التي أدارت بها جبهة التحرير الحرب تشكّل نموذجا يتحدى به بل إنجازا رائعا[89].

– بالنسبة لـ "أ. أرون" فيقول: «شكل انتهاء الحرب بين المنظمة الجزائرية للتحرير وفرنسا نصرا تاما للجزائريين، طالما حقق هؤلاء هدفهم السياسي المنشود[90].»

---

[89] المصدر السابق.

[90] المصدر نفسه، ص 159.

« حققت جبهة التحرير الوطني منذ سبع سنوات بطولة » يكتب "ألان بيريفيت" : « يظل غير قابل للتمثل، مملكته ليست من هذا العالم [...] على العقيد "لاشيرو" مراجعة كتابه حول الحرب الانقلابية، يضيف بيريفيت. إن الحرب الهند الصينية أظهرت أن آخر درجة في مسار الحرب هو تمثل الخصم في شكل دولة مجهرية، لكن حرب الجزائر أظهرت أن الحرب الثورية في نهاية المطاف غير قابلة للتمثل[91]. وهو ما عبّر عنه الجزائريون من خلال بطل واحد هو الشعب.

« تذكر الرحل، العصفور فانٍ »

فروخ فروخزاد.

بقيت كل الأساليب التي تم تنفيذها على أرض الواقع (تزوير الانتخابات، قضية كوبيس، بلونيس، سلم الشجعان، القوة الثالثة) مجرد محاولات محفوفة بالمخاطر وفرص ظرفية للإبقاء على الوضع على حاله سبق للتاريخ أن دانها.

نبع تكريس القمع والترهيب كنمط للتفاوض من سياسة إجرامية تنم في أحسن الحالات عن قصر نظر. لم تتمكن قوى الأمن وحدها معالجة كل أوجه المشكل. إن السيطرة العسكرية في الحرب لا تعني التوجه نحو السلم، لقد أخطأت مصالح الإستعلام الفرنسية النظر، عندما سقطت في دوامة العنف في محاولة لدرء المخرج الحتمي. لا شك أن حلقة الاستخبارات تم

---

[91] المصدر السابق، ص 327.

كسرها أو تعطّلت. لقد عانت مختلف استراتيجيات الدولة الفرنسية من غياب التنسيق بل الثقة، وربما كانت في حاجة لأخلاقيات مهنة هؤلاء لاستباق ردود الفعل قصد الحفاظ على المكاسب. كانت النشاطات الإجرامية للمنظمة العسكرية السرية (OAS) و (ORAF) مخالفة لخطاب الـ SAS ودعوات أخرى للاندماج. باءت كل تلك النشاطات بالفشل وقادت إلى تقسيم المجتمع الفرنسي حول حرب الجزائر بل إلى سقوط أربع حكومات وجمهورية (الرابعة).

بلغت الأزمات ذروتها مع انقلاب أفريل 1961 الذي دبرته «حفنة من الجنرالات المتقاعدين [...] كانت لا ترى العالم إلاّ من خلال هذيانها[92]» وفي هذا الصدد يكتب "أ. فوركاد" و"س. لوران" يقولان[93]: «تحالف مع حفنة الجنرالات قطاع واسع من مسؤولي الإستعلام العسكري في الجزائر.»

كان مآل النظام الاستعماري الانهيار في النهاية بسبب حماقته نفسها.: «إن امتداد الصراع يكون لصالح من يحافظ على تماسكه الاجتماعي... ومحكوم على المعسكر المنهك الإستسلام فور ما تظهر على تناسقه الاجتماعي مؤشرات التصدع» يقول "مارتين فان كريفلد".

عكف رجال (المالغ) بعد الاستقلال على إعادة تنظيم المصالح الخاصة الجزائرية، لأقلمتها مع الوضع الجديد للبلد، الذي كان يملي تقوية الدولة

---

[92] بهذه الكلمات وصف الجنرال ديغول رئيس الجمهورية الفرنسية، الجنرالات الأربعة: جوهو، سالان، زيلر وشال، مهندسو محاولة الانقلاب.

[93] المصدر السابق، ص 132.

كأولوية. لقد تم جمع مختلف المصالح في إطار مديرية الأمن العسكري (DSM) التي سرعان ما تصبح المديرية المركزية للأمن العسكري بقيادة العقيد قاصدي مرباح، تتوزع مصالحها على الأمن الداخلي (الجوسسة المضادة) والأمن الخارجي وأمن الجيش والإستعلام العسكري ومصلحة الشفرة والمصالح الملحقة. كانت المديرية تحوز على مدرسة تابعة لوزارة الدفاع الوطني.

تحولت المديرية عام 1985 بعد إعادة هيكلتها إلى "البعثة العامة للوقاية والأمن" (DGPS) على رأسها الجنرال لكحل عياط. وخضعت البعثة إلى تغييرات تنظيمية وأصبحت تسمّى "البعثة العامة للتوثيق والأمن" (DGDS).

واقتناعا منه أن الاستثمارات لتحضير المستقبل واستباق التهديدات هي واحدة من مفاتيح مصداقية المصلحة، بالأخص في مجال تكوين الموظفين، دشن الجنرال "محمد بتشين" معهد الدراسات الأمنية يتخرج منه الطلبة بشهادة في الدراسات العليا المتخصصة، قبل أن يبادر في العام نفسه إلى إدخال الإعلام الآلي إلى المصلحة التي شهدت في عهده وثبة نوعية على مستوى المقاربة الأمنية، بعد فتح مكاتب أمنية في الخارج، صارت، في إطار التعاون، عنصرا كامل العضوية في الهيئات الدولية للإستعلام.

في عام 1990 حلّت مصلحة الإستعلام والأمن (DRS) محل "البعثة العامة للتوثيق والأمن" (DGDS). وواجهت المصلحة التي تتبع وزارة الدفاع الوطني (MDN) وعيّن على رأسها الجنرال مدين، المعروف باسم توفيق، ثلاث حركات مسلحة وهي في بدايتها: حركتان ذات نزعة استقلالية تنشطان

على حدودنا الجنوبية، الجزائر – مالي والجزائر – نيجر، وجب التعاطي مع تأثيرهما الآني والمستقبلي، بمعنى نتائج انتشارهما المحتمل، وحركة داخلية عنيفة وانقلابية ممثلة في الحزب المحل "الجبهة الإسلامية للإنقاذ" (الفيس).

ومع ذلك، ورغم كثافة النشاط الإرهابي الذي كانت تعانيه البلاد وما فرضه من تجنيد وتنسيق للجهود لاجتثاث جذوره والقضاء على الخراب الذي كان يهدد أسس الجمهورية، فإن عزيمة عصرنة المصلحة والنهوض بمستوى تركيبتها البشرية لم يتم التفريط فيها.

سيكون الموظفون الجدد في المصلحة من الآن فصاعدا، من خريجي الجامعات، على اعتبار التكوين من الأمور الواعدة التي تقود إلى احتراف الإستعلام ونشاطات المصالح الخاصة، وسيكون بإمكان الطلبة، بعد تلقي المعلومات العامة والقاعدية، من الاستفادة من فترة تدريب متقدمة تفتح إمكانية الدراسة ما بعد التدرج.

وضعت سنوات الثمانينات مصالح الإستعلام الجزائرية على المحك التي وجدت نفسها في البداية أمام امتحان مطاردة الجماعة المسلحة التي كان يقودها بوعلي إلى غاية القضاء عليه في كمين.

في الفترة نفسها، وصل النظام الاقتصادي السائد آنذاك إلى آفاق مسدودة، ستعّريه الأزمة الاقتصادية عام 1986 ويعترف بهشاشته الرئيس الشاذلي بن جديد أمام اللجنة المركزية للحزب الوحيد، جبهة التحرير الوطني، ويقترح إصلاحات لكن يواجه معارضة من لدن الناطق الرسمي باسم وزارة الدفاع الوطني الذي قال: « إن الاشتراكية خيار ثوري لا يمكن بحال التراجع عنه ». كان الرئيس وحده في مواجهة مسؤولياته.

أطلق الشاذلي في 16 سبتمبر 1988 نداء إلى الشعب الجزائري يدعو فيه إلى دعمه. في 5 أكتوبر 1988 تندلع انتفاضات في كل مدن الجزائر باستثناء قسنطينة وتستمر خمسة أيام سقط خلالها 190 جزائريا (رقم تضمنه تقرير سلّم لرئيس الجمهورية الشاذلي بن جديد). رغم حالة التذبذب التي طبعت السلطة تمّ انتخاب الشاذلي لعهدة رئاسية ثالثة. منحت له النتائج الضوء الأخضر لوضع البلاد على طريق الإصلاحات، كان الوضع الدولي موات : انهيار جدار برلين وإطلاق غورباتشوف البيريسترويكا والغلاسنوست. كانت الجزائر على موعد مع التاريخ لكن دون حساب التيار الإسلامية وتحديدا الجبهة الإسلامية للإنقاذ الذي سيضع حدا لحلم الانفتاح الديمقراطي. « ليعلم الشعب أنها المرة الأخيرة التي ينتخب فيها [...] إن الانتخاب من صلاحيات المجلس الشوري (المجلس الاستشاري للفيس) » يصرّح رابح كبير أحد قادة الحزب المحل للتلفزيون الجزائري عشية أول انتخابات تشريعية حرة في تاريخ البلاد، وكأن توسيع المجلس إلى كل الشعب الجزائري (استفتاء) يعدّ بدعة. من جانبه أيّد علي بلحاج فكرة أن الديمقراطية كفر. فيما راح أنصار الحزب المتطرف يرفعون خلال مسيراتهم العمومية شعارات مثل « لا ميثاق، لا دستور... ».

قاد الهجوم على ثكنة عسكرية جنوب شرق البلاد (مدينة قمار) وسرقة السلاح والقتل من طرف مجموعة إرهابية يقودها ملياني، ملازم سابق لبويعلي، إلى تعتيم الأفق. تسارعت الأحداث بشكل أدى إلى توقيف المسار الانتخابي التشريعي الذي جرت جولته الأولى في 26 ديسمبر 1991. دعيت الأحزاب السياسية للبقاء على أهبة الاستعداد. وحده (الفيس) رفض الامتثال ودخل في صراع مع السلطة.

دعمت بعض القوى الغربية "الجماعات الإسلامية المسلحة" (الجيا) بينما راح أئمة محليون وأجانب يصدرون الفتاوى لصالح الإرهاب... تدرّج الوضع شمال البلاد نحو النار والدم، فيما اهتز الجنوب على الحدود مع مالي والنيجر تحت وقع انتفاضات الطوارق. أعلن ملك المغرب من جهته بالجهة الغربية دعمه لـ (الجيا). صارت مراقبة الحدود والأماكن والسكان آنذاك رهانات جوهرية في هذه المعركة " التي سترسل الضحايا من الأبرياء إلى الجنة " مثلما كان يردّد أئمة الإجرام.

كان يجب انتظار إعداد ترسانة قانونية لمعالجة التململ قصد ترشيد عمل مصالح الأمن بحيث يظل في إطار القانون. انطلقت عمليات مكافحة الإرهاب وانتشرت مصالح الأمن واحتلت الميدان، فيما تم تكثيف شبكة الإستعلام بالتوازي مع تواصل جهود القضاء على "الجيش الإسلامي للإنقاذ" (AIS).

« يعطّل الحوار عملية ما، أو تهديد ما، أو فرصة ما، ويخلق أيضا إمكانيات التصدع في جبهة العدو، هو يسمح بـ "تسيير المخاطر"[94]. » سمح الحوار والدعوات إلى التعقل وكذا الاختراق وإغراء بعض قيادات الإرهاب والكمائن من تطهير المدن وقمع (الجيا) في المناطق الأكثر عدائية. شوّهت التجاوزات وسوء معاملة المدنيين، في نهاية المطاف، صورة الإرهابيين لدى الشعب، فيما كان قانون الرحمة الذي بادر إليه الرئيس اليامين زروال بمثابة الضربة القاضية لهؤلاء. وكانت المشاركة الطوعية للعديد من

---

94 Lady Manningham-Buller, *op. cit.*

المواطنين في جهود مكافحة الإرهاب ضمن صفوف "الحرس البلدي" و"مجموعات الدفاع الذاتي" التي انتشرت في كل مكان، حاسمة في جميع النواحي.

إذا كان الإرهابيون في بداية المعركة قادرين على الأذى بالشكل والمكان الذي يريدونه، فإن مرتكبي أي عمل إرهابي في المدن صاروا ابتداء من 1998 يُعتَقلون في ظرف زمن يعادل أقل من ساعتين بعد وقوع الجريمة.

لا يمكن لأي مراجعة هادئة أن تغفل السؤال بشأن إعادة توجيه النظام السياسي الجزائري، هل حدث ذلك بإرادة الرئيس الشاذلي بن جديد وطاقمه أو بإرادة مجمل الهيئات التي شاركت في اتخاذ القرار منذ الاستقلال (جيش التحرير الوطني ومصالح الأمن وجبهة التحرير أو بعض الضغوطات الخارجية[95] عندما كان البلد يختنق تحت ثقل الديون. على أي حال، كانت النتائج المثيرة للجدل مأساوية وضلت تغذي الخوف من التغيير الذي استغلته السلطة بشكل شنيع. المعركة مستمرة إلى يومنا هذا، وكانت إلى غاية 1999 قد أودت بحياة ما يعادل 10 آلاف قتيل من المدنيين وأفراد الأمن والإرهابيين.

ومع ذلك، ورغم التجربة الهامة لمصالح الإستعلام الجزائرية المتراكمة من حرب التحرير ومكافحة الإرهاب، هل يمكن القول أن الأخيرة تمكّنت من التكّيف مع التطورات السريعة والمرعبة للقرن الـ 21 ؟ هل يتلاءم تنظيمها

---

[95] خطاب الرئيس الفرنسي "ف. ميتران" في 1990/06/29 بمدينة "بول" الفرنسية يوضّح هذه النقطة.

مع متطلبات الانفتاح الذي يرغب فيه المجتمع ؟ هل تستعد لهذا المستقبل المطبوع بـ "فرط المعلومات والاتصالات" الذي بدأ يغيّر العالم ؟ إن كل هذه التحديات، تنضاف إليها استعجالية إعداد استراتيجية شاملة لمراقبة الحدود البرية (تنقل السلاح والإرهاب وكل أصناف المهرّبين) تستدعي تصورا جديدا للأمن وتفرض وسائل مناسبة. إن مواصلة الاستثمار في المناهج القديمة هو بمثابة خطأ جسيم في التقدير على الأقل، إن لم يكن شبيها بسياسة النعامة. لا يمكن لأمن البلد أن يكون حقيقيا إلاّ بمعالجة شاملة للاختلالات، تأخذ بعين الاعتبار إعادة تنظيم المساحات الحدودية.

ورغم أن الإرهاب اليوم، محلّ إدانة المجتمع الدولي، فإن تعاون سوى العالم في الحرب على الإرهاب، المتوقف على جمع المعلومات، لا يهدف، على ما يبدو، إلى اجتثاثه وإنّما الإبقاء عليه، في مستوى ضعيف في الدول المستهدفة. إن القيود المفروضة على اقتناء التجهيزات ذات الصلة بالاستعلام والمراقبة الملائمة لطبيعة المكان وطبيعة التهديد تعزّز هذا الاعتقاد.

وأمام خطورة الوضع الأمني المحيط بها، لا خيار للدبلوماسية الجزائرية سوى مضاعفة الجهود للمساهمة في تحقيق استقرار الجوار. هل من الضروري الإشارة إلى أن الملاحظة المباشرة لجغرافيا الصراعات الإقليمية تبرز، ولأسباب واضحة، التوسع الممكن وتداخل مجالات المواجهة. من شأن حالة الميوعة المفرطة التي تطبع الحدود، وتأثير أزمات وصراعات الجوار أن تجّر البلاد نحو الإعصار. ولعل حادثة الاعتداء على الموقع الغازي لـ

"تيقنتورين" في جانفي 2013، إن لم تكن مدّبرة من الخارج لإضعاف مصالح الإستعلام، فإنها تشرّع المخاوف.

لا يمكن استهلال الفصل الخاص بحروب التحرير الكبرى التي ميّزت القرن العشرين دون التطرق إلى الفيتنام، حيث يجسّد الأسطوري "هوشي منه" المثل الأعلى للحربة حسب الاستراتيجيين العسكريين الفرنسيين. وكان يكفي في نظر هؤلاء التلاعب باختلاف الثقافات داخل المجتمع الفيتنامي لإحباط أي مقاومة للاحتلال العسكري والقضاء على إدارة "فييت مينه" ومعه قتل كل رغبة في الاستقلال.

الفيتنام

الاحتلال العسكري الفرنسي

كشفت دراسة تناولت سكان الهند الصينية انقسامات اجتماعية لم تتأخر مصالح الإستعلام الفرنسية في استغلالها لتقوية احتلالها. وفي هذا الصدد يكتب العقيد غالييني: « إن الضابط الذي ينجح في إعداد خريطة إثنوغرافية دقيقة إلى حد كاف تخص المنطقة التي يسيّرها يكون قد أوشك على تحقيق خضوعها التام له...كل مجموعة أي كانت طبيعتها، أشخاص أو عرق أو شعب أو قبيلة أو عائلة تمثل كمًّا من المصالح المشتركة أو المتنازع عليها. فإذا كانت هناك تقاليد وعادات يستوجب احترامها، ثمة أحقاد

وتنافس وجب كشفها واستغلالها لصالحنا، بوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر[96].»

كتب النقيب "بارولت" عام 1927 يقول: «ألا نرى أن الثنائية في الأعراق بين الحضارات، المختلفة عن بعضها البعض، هي أفضل ورقة رابحة لفرض السيطرة الفرنسية؟ حينئذ ستصبح "استراتيجية" التهدئة محددة: سيقود تفاقم الانقسامات إلى دخول المجموعات العرقية في مواجهة بعضها البعض. لقد تم احتلال الفيتنام والكمبودج واللاووس بواسطة الإدارة مباشرة كما كان الحال في الجزائر. لقد تجاهلت مصالح الإستعلام أنه أمام العدوان المعَمم، تتناغم الشعوب فيما بينها لتمجيد حروب التحرير.»

مطاردة هوشي منه

كان يستوجب الاستحواذ على الفيتنام، القضاء على زعماء الثورة الفيتنامية، حسب خبراء الجيش الفرنسي. بالنسبة للقيادة الفرنسية: «لا جدوى في حل دائم على المدى البعيد دون تحييد حكومة "هوشيه منه". من هنا كانت الحاجة إلى إطلاق عمليات واسعة النطاق في "طونكين"[97]» حدّد الأميرال "تيري دارجنتيو" وهو يأمر بـ "ضرب الرأس" الهدف للجنرال "فاليي"

---

[96] G-H. Soutou, J. Fremaux, O. Forcade, *L'Exploitation du renseignement*, Economica, 2001.

[97] المرجع السابق، ص 194.

قائد القوات البحرية التي أوفدت إلى الهند الصينية، والأخير وجّه مصالح الإستعلام للبحث عن أهداف. سيتولّى المهمة الجنرال "صالان"، الموجود على رأس القوات المشاركة في "طونيكين" عبر دراسة وتحضير العملية وفقا لتعلميات الجنرال "فاليي": «سنضع كل إمكانياتنا لمحاولة القبض على القائد "فييت منه" وإرباك صفوف القوات المحيطة به.» كان ذلك خطأ في التقدير ستدفع فرنسا ثمنه غاليا في هزيمة "ديان بيان فو".

كان "هوشيه منه" (1890-1969) البطل الذي جسّد المقاومة المسلحة. نشر عام 1919 بيان "مطالب شعب الأناميت" التي كانت تطالب باستقلال الفيتنام. في عام 1943 أصبح "الفييت منه" جيش التحرير الوطني بقيادة الجنرال "فو نغوين جياب". تدعّم الجيش بمصلحة استعلام عسكرية الـ "كوان باو" فيما أوكل الأمن الداخلي لـ "تينه باو".

بعد ضمان نجاح "فييت منه"، لم تسر انتخابات جانفي 1946 في الاتجاه غير المعلن الذي كان يرغب فيه المحتل. في نوفمبر من العام نفسه، اختار الجيش الفرنسي التهديد. تجنّد الشعب الفيتنامي وراء "فييت منه" الذي رفع التحدي بواسطة الوسيلة التي فرضت عليه، الكفاح المسلح.

ميدانيا، وجد الجنرال "صلان" صعوبة في إخفاء مخاوفه، فيكتب في الدراسة جول العمليات التي كانت يقودها: «إن الهدف المنشود، هو، بلا منازع، حشد السكان كوسيلة وحيدة للحصول على المعلومة، أساس الحرب المضادة والإرهاب المضاد، ثم توظيف السكان الأصليين.» أيّا كانت طبيعة المستعمر، يظل احتلال الأرض، بطبيعة الحال، في صالح السكان الأصليين دائما. في هذا الصدد أدلي المقدم "سوفانياك" بالملاحظة التالية:

« إذا كان الجيش لا يهم، فإن كل البلد بالمقابل محكوم بشبكة سياسية قوية مع أمن متعدد ومخلص للقضية[98]. » تفهت هذه الملاحظة استراتيجية قيادة الجيش الفرنسي وجعلتها عديمة الفعالية.

رغم جهودها المعتبرة في جمع وتحليل المعلومات، انتكست مصالح الإستعلام الفرنسية انتكاسة مأساوية. لقد اتهمت بالوقوف وراء الخراب الذي نتج عن المواجهات مع الجيش الفيتنامي، خصوصا خلال المعارك التي شاركت فيها الـ(RC4) في سبتمبر وأكتوبر 1951 على الطريق الاستعماري على الحدود مع الصين. ولعل من بين أهم الانتقادات التي وجهت لها فشلها في كشف التقدم النوعي والكمي للجيش الفيتنامي، الذي بدأ يحقق مكاسب في الميدان إلى غاية النصر المحقق في "ديان بيان فو" وضعت مفاوضات جنيف حدا للحرب في جويلية 1954 قبل أن ينسحب الجيش الفرنسي من الفيتنام في 11 ماي 1955.

الخلافة الأمريكية

رغم تحذيرات وكالة الاستخبارات المركزية بشأن إصرار الشعب الفيتنامي على الكفاح إلى غاية التحرير الكامل لبلدهم، قررت الولايات المتحدة الأمريكية خلافة فرنسا للقضاء على الشيوعية التي لم يتمكنوا من تهديدها بقوة السلاح. في العام 1961، توافد على سايغون 1364 ضابطا

---

98 Jacques Valette, *Les Grandes opérations au Tonkin en 1947.*

- كان الأمن والأمن العسكري يمثلان في تلك الفترة الجوسسة المضادة المنفذة.

مستشارا بهدف دعم جيش جنوب الفيتنام في مواجهة "الفييت منه". بدأت حرب الاستنزاف والمجازر.

كان التحرش من جهة والتفجيرات باستعمال الـ "بي 52" والنابالم والغازات السامة من جهة أخرى المشهد اليومي للفيتناميين، الذين قرروا عدم التنازل عن أي شبر من بلادهم في حرب غير متكافئة فاقت حدود التحمّل. تجاوزت تضحيات المرأة الفيتنامية مستويات لم يشهد التاريخ مثيلا لها من أجل القضية الوطنية، لم تتردد بعض الفيتناميات اللائي لم يتخلين عن البندقية، وواجهن كل المخاطر، في استخدام أجسادهن كسلاح بيولوجي، بعدما كن يحقن أنفسهن بأمراض معدية تنتقل جنسيا، قوضّت الروح المعنوية للقوات الأمريكية.

أوهم الجنرال "جياب" عام 1967 أنه يحضّر لهجوم كبير على القاعدة العسكرية الأمريكية "كهو سان" فراح يطلق عملية تضليلية في 20 جانفي 1968 ضد القاعدة دفعت بالقيادة الأمريكية إلى أن تسارع في إرسال تعزيزات إلى عين المكان، فما كان على "جياب" إلاّ الانتقال إلى المرحلة الثانية في خطّته، فأرسل قواته إلى الشريط الساحلي، حيث تعرضت ثلاثين مدينة من بينها سايغون إلى الهجوم. لقد استمرت المعارك الشرسة بين الطرفين شهرين كاملين انتهت بخضوع واشنطن للأمر الواقع وهو أن قوة السلاح لا يمكنها أبدا التغلب على إرادة الشعوب.

لا يمكن التسليم بأن تحضيرات عسكرية أشركت آلاف المقاتلين في عمليات مصيرية مثل "ديان بيان فو" و"فو" و"كهو سين"، تكون قد جرت في سرية تامة في غفلة عن مصالح أمن ومخابرات كلتا القوتين. قد يجعلنا

هذا، نعتقد، دون الإنقاص من شجاعة الفيتناميين، بتقدير غير صحيح للمعلومات وقعت فيه مصالح استعلام الطرفين، أو تعاطٍ ممنهج مع بيانات اعتمدت على خبرة طويلة مكتسبة أو الاكتفاء باستقراء الوضع بعيدا عن التحليل.

إن التقليل من شأن الخصم وسلوك المسؤولين، أحيانا، غير معتدٍ بهما أمام الإستعلام، بمقدورد أحيانا أن يقود نحو المآسي. مهما يكن، لا يمكننا سوى الانحناء أمام احترافية مصالح الأمن الفيتنامية.

حاولت الولايات المتحدة الأمريكية أمام إصرار الـ "فييت منه" مواصلة المعركة إلى النصر، مخدوعة بتقدير مبالغ فيه لإمكانياتها العسكرية المتطورة القادرة على الإبادة، وهي المدانة لدى الرأي العام الدولي، حاولت قبل فكّ الارتباط مع الفيتنام، "فتنمة" الصراع عبر عصرنة جيش الجنوب المصطف إلى جانبهم، وهؤلاء ركزوا جهودهم على الـ "فييت منه" من خلال عمليات جمعت ما بين القصف المهول بالقنابل وهجومات برية مخطط لها عام 1967 وفق مخطط "فونيكس" لإعادة السلم انطلاقا من سايغون. أمام هذا التصعيد غير المسبوق في العنف أمرت قيادة "فييت منه" في جانفي 1968، بالهجوم العام، هجوم "تات" الذي وضع حدا للمغامرة الاستعمارية ولتفوق تقني فشل في التغلب على إرادة شعب كافح من أجل قضية عادلة. احتضنت باريس العام 1973 المفاوضات التي أنهت التدخل الأمريكي المباشر في الفيتنام.

لقد تركت أمريكا الفيتنام وهو يسبح في دم أبنائه، لكن جنودها، المسكونون بـ "متلازمة فيتنام" عادوا إلى الديار وهم مخبولو العقل.

ترتبط مصداقية مصلحة الإستعلام بمدى حضورها في الميدان ودقة تحاليلها. لقد أثارت المناهج التي اعتمدتها الاستخبارات المركزية الأمريكية في العمليات وفق هذا البرنامج انتقادات لاذعة عبر كل العالم. في هذا الصدد تحدث "وليامكولبي" (Le DCI)عن مقتل 20 ألف و 587 فيتنامي واعتقال 28 ألف و 978 فضلا عن 17 ألف و 717 عميل (فييت-كونغ). قد تكون هذه الأرقام أكبر بكثير وظروف الاعتقال أكثر مهانة لكن برنامج "فونيكس" في الفيتنام ولّى من غير رجعة.

رفضت الولايات المتحدة الأمريكية، التي أعماها تفوقها العسكري الفذ في مسارح العمليات أي نظرة مخالفة لهدفها السياسي، الضربات المذهلة جرفت القرار، وعجزت وكالة الاستخبارات الأمريكية، القوية بتجربتها السابقة في "خليج الخنازير" (كوبا) عن الإقناع.

سواء تعلق الأمر بالجزائر أو الفيتنام أو الهند أو مكان آخر، فإنه أمام جيوش أوروبية عصرية، مدرّبة وجد منظمة، تدرك الشعوب ضحايا الاستعمار، المنظمة سابقا في قبائل أو مجموعات عرقية، بأسى، قدم قواها. وسيكتشفون أيضا، وهم يستجيبون لنداء أحزابهم الاستقلالية مدى تقليدية معتقداتهم وسيقيسون الخسائر القاتلة المترتبة عن مفارقات تاريخية تجعلهم يأخذون مصيرهم بأيديهم.

كشف حصول هذه الدول على استقلالها عدم قدرة مصالح استعلام الدول الاستعمارية أو الإمبريالية على استباق الأحداث بوضوح وتوّقع عواقبها بلا انفعال.

إن النتيجة النهائية بمثابة حكم لا شك تم التأمل فيه. إذ من الممكن مصادرة أراضي واحتجاز أملاك الغير، ولكن لا يمكن اختراق مخيلة الآخر مثلما نسجن رجال دون سلطة ونحبس أفكارهم. لقد مثّل اعتراف وثيقة هيئة الأمم بالسيادة الوطنية هزيمة الاستعمار، فضلا عن رفض التشريع الدولي استعمال القوة العسكرية لأغراض توسعية. ويتأسف مع ذلك "أرنولد توينبي" فيقول: « بالنسبة للغرب لا وجود إلاّ لتيار حضاري واحد هم أصحابه، وكل الآخرين، هم روافد، وبدونهم سيتوه هؤلاء في الرمال. »

الفصل الرابع

الحرب الباردة :
حرب عالمية ثالثة ؟

منذ تراجع ألمانيا، توجّهت مصالح استعلام الحلفاء نحو استقطاب العلماء الألمان الذين كانوا في خدمة النظام النازي لصالح دولها. حوّل الاتحاد السوفياتي العام 1946 واحتفظ بما يقارب 3 آلاف مهندس ضمن مناطق نفوذها. التحق 444 عالم بإنجلترا وسرعان ما استثمرت بريطانيا في قضية تنظيم هجرة الكفاءات في القطاعات المفتاحية السوفياتية قصد تأخير الاحتياجات الحيوية للاتحاد السوفيتي.

وضعت الولايات المتحدة الأمريكية برنامجين اثنين، أحدهما يدعى "بايبر كليب" بغرض استنزاف القدرات العقلية الألمانية بشكل منهجي. من بين العلماء الذين غادروا إلى الولايات المتحدة من خلال نذكر العالم الشهير "دبليو فان بروان" صاحب برنامج الصواريخ الألمانية (V2). لم يتوقف سباق المعرفة والتحكم في التكنولوجية أبدا، بل تواصل وامتد لدول

صناعية أخرى عبر توظيف المهندسين وتنظيم شبكات التجسس المسمّاة تكنولوجية. لكن الحرب الباردة لم تتبلور إلاّ بداية العام 1948 عندما راح المعسكران الشرقي والغربي يتواجهان على كل الأصعدة. وسعى كل معسكر لكبح الهيمنة الأيديولوجية للآخر عبر استراتيجيات أهمها احتلال الميدان وتعزيز المكاسب. لم ينج أي بلد من هذه الحرب التي جرى التعبير عنها بأشكال مختلفة (عسكرية واقتصادية وعلمية وثقافية ورياضية...).

فيما سرعان ما تقاسمت فرنسا وانجلترا إفريقيا والشرق الأوسط وحافظت بعض دول آسيا على استقلالها، دخلت الولايات المتحدة الأمريكية، تماشيا مع سياستها للاحتواء، في حرب احتلال دول مثل الهند الصينية والفلبين، ومن جهته سعى الاتحاد السوفياتي العام 1962 إلى زرع صواريخ في كوباتم اكتشافها بواسطة طائرة (U-2) حلّقت فوق الجزيرة. وجدت الأزمة التي تلت الحادثة حلّها في الاتفاق الذي اقترحه الرئيس السوفيتي خروتشوف الذي التزم بسحب صواريخه في حال تراجعت الولايات المتحدة الأمريكية عن أي غزو لكوبا وسحبت كل صواريخها "جوبتير" من تركيا.

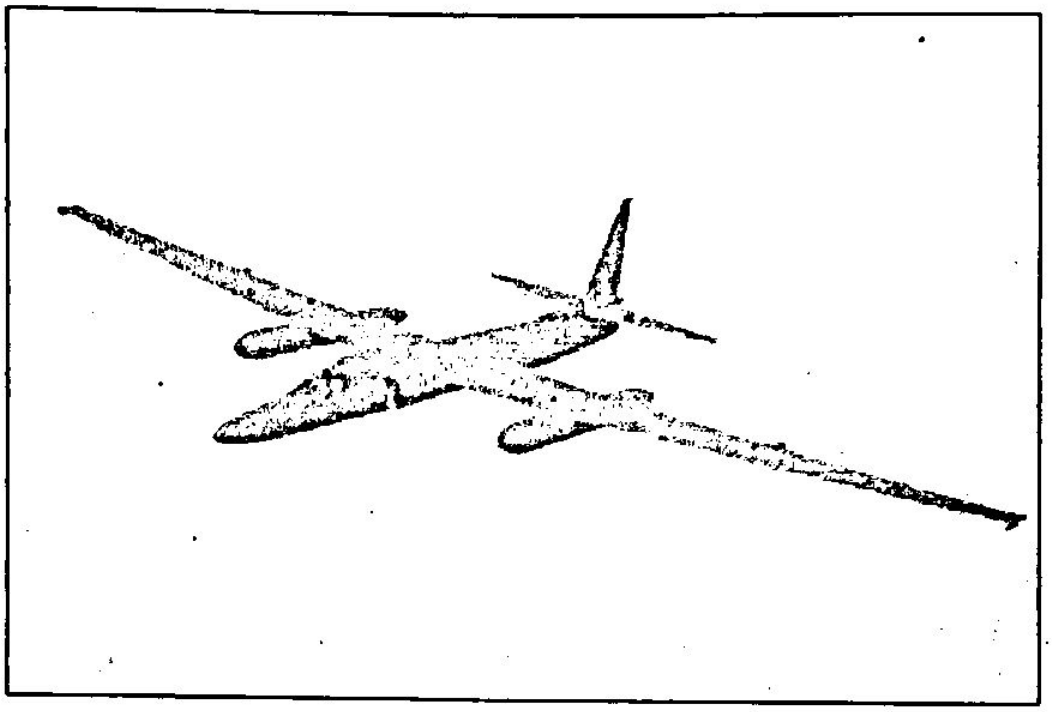

طائرة التجسس الأمريكية (U-2)[99]

تميزت الحرب الباردة بشكل خاص بالصراع الأيديولوجي عبر الدعاية والأنشطة التضليلية الخفية وعبر سباق التسلح للحفاظ على توازن الرعب وتوجّهت مصالح الإستعلام نحو حماية الأسرار الصناعية والتقنية الوطنية والتجسس التكنولوجي للعدو بالمراقبة عبر الاستطلاع الجوي تحديدا، والتي أصبحت ضرورة حتمية ستحفّز تطوير وسائل الكشف. سيستمر الوضع إلى غاية العام 1999 تاريخ انهيار الاتحاد السوفيتي الذي أملى إعادة تنظيم جهاز المخابرات (KGB) وظهور:

-مصلحة الإستعلام الخارجي (SVR) التي تهتم بالاستعلام في الخارج؛

[99] تم رصد الطائرة في الأجواء الروسية، وتمّ إسقاطها العام 1960 على يد دفاع الجو.

– المصلحة الفيدرالية للأمن (FSB) المكلفة بالتجسس المضاد ومكافحة الإرهاب والجريمة المنظمة ؛

– المصلحة الفيدرالية لمراقبة الحدود (FPS) ؛

– الوكالة الفيدرالية للإعلام والاتصال الحكوميين (FAPSI) المكلفة بتسيير أعمال التنصت وأنظمة الاعتراض الإذاعية والتجسس الإلكتروني.

تبعا لتكريس النموذج الليبرالي، راحت مصالح استعلام الدول السابقة تشكّل جبهة في وجه الغرب عبر إعادة تنظيم نفسها، بعضها فعل ذلك سريعا وآخر تدريجيا بغرض التكّيف مع التحولات الجديدة. ومن خلال بعض البيانات، نكتشف التوجه نحو ليونة أملتها إلزامية مراقبة دستورية مختلفة ونمط هياكل تذكّر بعض جوانبها بالنماذج الغربية.

ومع ذلك، لا يمكن الاستغناء عن طرح السؤال حول فعالية مصلحة قوية وديناميكة مثل الـ "كا جي بي" فشلت السياسة التي ظل يخدمها قرابة نصف قرن فشلا ذريعا وانتهت بلاده إلى التفكك. لا شكّ أن الـ "كا جي بي" الحاضر على الدوام في مختلف دواليب السلطة والموجود في الدول "عالية التقنية" كان قد حذّر الساسة، وفي وقت مبكر جدا، من الفجوة المتنامية بين نظم إنتاجهم مقارنة بالغرب بسبب عدم مرونة أنظمتهم من جهة وعدم التناغم بين خطاب التمجيد وحقائق الواقع من جهة أخرى.

يمكن أيضا تجريم ذلك المنحى نحو التقديس الذي قاد إلى الرقابة الذاتية التي تقتضي القول لصانع القرار ما يريد أن يسمعه. آلت الشيوعية، الجامدة والمتسلطة، إلى الزوال وأغضبت حتى أكثر الأنصار

إخلاصا. ألم يكن الرئيس خروتشوف أحد ضحاياها ؟ ألا يجّرم تقديس الأيديولوجية أي فكرة تسعى إلى الإصلاح ؟

حمّل "مايكل هاردت" و"أنطونيو نيقري"[100] مسؤولية احتضار النظام السوفياتي إلى فشل النظام في التعاطي مع متطلبات المجتمع واستباقها فيشيران : « جمّد "ليونيد بريجنيف" كلّيا مجتمعا مدنيا إنتاجيا بلغ مستوى عاليا من النضج، والذي، بعد التعبئة الواسعة للحرب والإنتاجية طالب بالاعتراف السياسي والاجتماعي. لم يلق هذا النداء الصدى المنتظر، رغم وجود واحد مثل "أندروبوف" على رأس الـ "كا جي بي". يجب التذكير أن الإستعلام ما هو سوى وسيلة في خدمة السياسة. »

تماما مثل الدول الرأسمالية، يضيف الكاتبان، « ارتسمت صورة جديدة لليد العاملة. تعبّر عن إمكانيات إنتاجية هائلة. هذه الكتلة النشطة الحيّة، هي من حاول القادة السوفيات سجنها في أقفاص اقتصاد حربي صارم (حرب يتم التآمر عليها دوما بالخطابات) وركنهم في مؤسسات تحكمها أيديولوجية اشتراكية للرأسمال لم يعد لها معنى منذ زمن طويل... » كان هذا القمع وهذه الطاقة القوى التي حطّمت الخصومات الموجودة بيّنها العالم السوفييتي كما قصر من ورق.

أيّا كانت المقاربات، تباينت الاستنتاجات حول فشل النظام السوفييتي. في هذا الصدد، يكتب "بريجنيف"[101] يقول في تحليله المقارن بين التحالف

---

[100] M. Hardt et A. Negri, *Empire*, éd. Exils, 2002, ص 340.

[101] المرجع السابق، ص 32.

الديمقراطي والمعسكر الشيوعي «عكس ما كان يُعتقد، شكلّت العقيدة الذوغماتية وجمود الهرمية، المعبّر عنها بالأهمية المبالغ فيها للمركز الوحيد، الذي تتحول تعليماته إلى قانون، عامل هشاشة. [...] غذى الخراب الاقتصادي بالمقابل الإحباط الإيديولوجي [...] وخنقت القلادة الإيديولوجية التي كانت تحيط بعنق كامل النظام في الاتحاد السوفيتي كل مقدرة إبداعية، وأسسّت للتبذير الاقتصادي وكبحت التطور التكنولوجي». سنلاحظ مع ذلك، أن انقلاب المحافظين ضد الإصلاحيين في 1991 لم يكن يحظى بالإجماع داخل الـ (كا جي بي).

– رفض فلادمير بوتين مساندة الانقلابين ؛

– لم تتلق القوات الخاصة لمجموعة "ألفا" التي تتبع الـ (كي جي بي) الإذن بمداهمة البيت الأبيض في موسكو، مقر حكومة فيدرالية روسيا، واعتقال رئيسه بوريس إلتسين ؛

– من مجموع 7 آلاف إصلاحي كان يعتزم الـ (كا جي بي) اعتقالهم، لا أحد منهم تم توقيفه، يكتب "ف. فدروفسكي"[102].

تعالت الدعوات إلى الإصلاح قبل انهيار الاتحاد السوفييتي بكثير وتولّى ذلك مسؤولون في مصالح الإستعلام. وكان "لافرنتيبريا" رئيس مصالح الأمن تحت حكم جوزيف ستالين وعضو "تريومفيرات" (Triumvirat) العام 1953، أول رجل سياسي سوفياتي يبادر إلى الإصلاحات (أي محو آثار

---

[102] المرجع نفسه، ص 103-182.

الستالينية) قبل إعدامه. ولم يتأخر التاريخ في الانتقام ممن أمر بإعدامه "نكيتا خروتشوف".

شرع "يوري أندربوف" رئيس جهاز الـ (كا جي بي) آنذاك (1967-1982) في تحضير البرسترويكا قبل خليفته "ميخائيل غورباتشوف" بكثير. ويقول عنه "فلادمير فدوروفسكي"[103] يقول: «كان أندربوف أيضا، للمفارقة، أمل الحدائيين واللبراليين كذلك، وأولئك الذين تأملوا في تطور سياسة النظام.» وفي حوار مع قناة "هستوريا" التلفزيونية صرح غورباتشوف قائلا: «كان من المفروض أن يكون ربيع براغ (1968) الحدث المفجّر للبريسترويكا.»

يقول "أوليغ كالوجين"، المدير السابق للمكتب رقم 1 بجهاز الـ (كا جي بي) متحدثا عن الإستعلام: «لا يمكنه وحده، أن يحلّ محل حكمة القوانين أو تغيير الضرورات السياسية أو العسكرية.»

ولعل السؤال الذي يطرح والحال هذا، هل الجهاز الأقوى المسمّى "كا جي بي" هو من يكون وراء خنق المقدرات الإبداعية وكبح روح المبادرة في المجتمعات التي كان يراقبها ؟ إن الصين، التي لا يختلف نظامها كثيرا عن نظيره في الاتحاد السوفييتي، أطلقت منذ العام 1978 إصلاحات اقتصادية عوض الدفاع بعناد عن الأرثوذكسية الماركسية.

---

[103] نفس المصدر السابق.

إن إمبراطورية الوسط، المصرّة اليوم على التوجه نحو المستقبل تفرض نفسها أمام الغرب. ومع ذلك ونظرا لأن أي تغيير يثير ردود الفعل، وأي إرجاء للحلول قد يكون وراء وضعيات غير مريحة، فإن بكين، رغم أدائها الاقتصادي وإصلاحاتها، واجهت في أفريل 1989 أحداث ساحة "تيانانمين". كان القمع ردّا دمويا على طموحات ديمقراطية لشباب صيني من قبل نظام شيوعي يرفض بشدة الانفتاح السياسي.

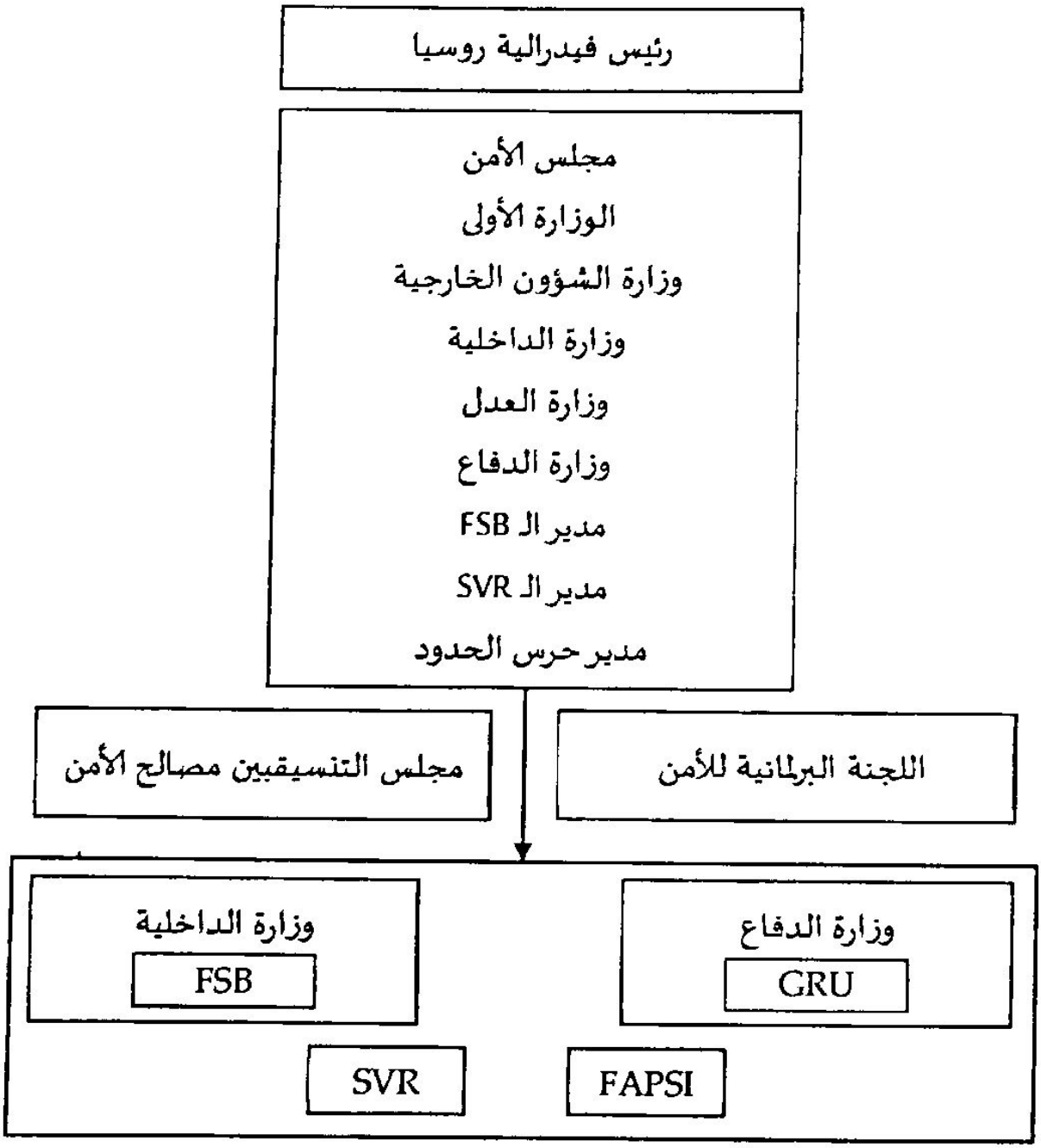

المصدر: ج. بود، "موسوعة الإستعلام".

هذا هو خطأ التقدير الذي يولدّه عدم التناغم بين الأنظمة التسلطية وشعوبها. وتنقل صحيفة رسمية "غنغزو دايلي" عن مسؤول صيني سام قوله: «ستتضاعف ثورات المواطنين، ووعي الشعب بقيم الديمقراطية والمساواة والحقوق ستتعزّز، وبالتالي سترتفع المطالب... تسيير الحركات الجماهيرية أصبح أكثر صعوبة» في الواقع، قادت مراجعة العقوبات المتصلة بـ "إعادة التربية بالعمل" و"سياسية الطفل الوحيد" إلى التوقيع في نوفمبر 2013 على قائمة المطالب الشعبية. إنها العولمة.

عصر العولمة

كان أول مظهر يعلن عصر العولمة نهاية القرن الماضي، سحق التحالف الدولي للعراق العربق، وكانت قواته قد غزت الكويت. أُجبر الجيش العراقي على العودة إلى ثكناته، وبعد عدة محاولات دبلوماسية دعت الرئيس صدام حسين إلى احترام القانون الدولي وميثاق هيئة الأمم كانت الكلمة العليا لمنطق الحرب.

وكانت تلك أول مرة في تاريخ البشرية، تتآمر قوى عسكرية كبرى بمباركة أممية العام 1991 ودعم من بعض بلدان المنطقة، التي تحمّلت جزءا كبيرا من أعباء الحملة، لضرب بلد كانت إمكانيات دفاعه ضعيفة أمام الترسانة الحربية للتحالف.

في ردّه على سؤال بشأن العناد الانتحاري لصدام، قال دبلوماسي أمريكي أن الرئيس العراقي وقع في الفخ ولم يكن قادرا أساسا على مغادرة الكويت، أو التهرّب من الحرب، وهو ما يشرّع السؤال حول دور مصالح

الإستعلام العراقية وقتذاك، وأي علاقة كانت بين هذه المصالح وصانع القرار. والحقيقة أن ما وقع، يحدث أحيانا، عندما تركز مصالح الإستعلام نشاطها على حماية السلطة وضمان ديمومة النظام القائم.

والواقع، أن هيئات الإستعلام في الأنظمة التسلطية، عادة ما تنزلق نحو تسيير بوليمي سري، منهمك بتشديد الخناق على الشعب أكثر من اهتمامه بالتهديدات الخارجية. إن مسألة تسييس الإستعلام صارت تطرح نفسها كموضوع في دراسات الإستعلام.

أعقب الهجوم العسكري، البري والجوي والبحري، حربا نفسية. وبالرغم من تحذيرات عملاء الـ (سي أي آي) المنتشرون في الميدان، التي تفيد أن: «العراق بعد صدام، ستتمزق على يد زعماء الحرب والقبائل والعصابات والطوائف الدينية والعائلات الكبيرة» وكانت تلك التحذيرات بمثابة نبوءات صدّفها الواقع، كان الطيران الأمريكي يمطر مئات العراقيين بمنشورات تدعو إلى الانقلاب عليه. من جهتها دعت محطات إذاعية نصبتها الوكالات الأمريكية" الشعب العراقي النبيل إلى الإطاحة بالدكتاتور" لكنها كانت بلا جدوى.

في العام 2002، تعرض العراق، الموجود تحت الحصار منذ 1991، لاحتلال الجيوش الأنجلو-سكسونية على وجه الخصوص، وهو مسلوب الدفاع والسلاح والذخيرة. وكانت الأسباب التي برّرت الغزو «أن العراق يحوز على أسلحة الدمار الشامل (ADM)». وكان يجب اختلاق حقيقة تفرضها رؤية استراتيجية قصد دعم العمل الميداني. أصبح تحليل

المعلومات الاستخباراتية، أساس كل معرفة موضوعية، أداة لإجازة المسعى السياسي.

في شهر أوت من العام نفسه، يعلن نائب الرئيس الأمريكي "ديك شيني" : « ليس هناك شك من أن صدام يمتلك الآن أسلحة دمار شامل، وليس هناك شك من أنه يجمعها لاستخدامها ضد أصدقائنا، ضد حلفائنا وضدنا. » اختفت المعلومة لتدع المكان إلى التضليل.

ظلت النتائج التي كشفت عنها لجنة التحقيق الأممية حول ادعاءات "ديك شيني" المثيرة للجدل، غير قابلة للاستئناف : « كانت تلك المزاعم عارية من الصحة. » والواقع، أن التحليل استند على ملاحظة الوقائع، وتمثل التضليل في حمل الضحية على تصديق ما يقدم له ويشاهده، "أحلّى ما أراه" أي تركيز انتباه الضحية على إغراء ما.

وراح الرئيس العراقي من جهته ولتفادي الحرب يدعو الاستخبارات المركزية الأمريكية الـ "سي أي آي" لمباشرة عملها في الميدان إلى جانب فرق التفتيش. ويعترف "سكوت ريتر" رئيس الفرقة المكلفة من قبل هيئة الأمم لتفتيش المنشآت العسكرية العراقية (UNSCOM) بوجود ما لا يقل عن سبعة عملاء من الـ "سي أي آي" ضمن فريقه.

ويؤكد "مارتين فان كريفالد" في مقدمة الطبعة الفرنسية لكتابه : « لو اتضح أن صدام حسين كان يحوز ولو على بضع عشرات رؤوس نووية قادرة على ضرب باريس أو لندن، لما كانت الحرب لتقوم بدون شك. » عزّز هذا التأكيد المقاربة الغربية تجاه النووي شمال-كوري. علاوة على ذلك، السلاح النووي هو الردع بمعناها الحقيقي، الذي يمنع اللجوء إلى الحرب.

أرّقت الإدانات التي استهجنت التضليل الحاصل بشأن أسلحة الدمار الشامل المزعومة في العراق الإدارة الأمريكية، لم تتوان الأخيرة في استخدام الترهيب تجاه من كان يزعجها وقاد ذلك إلى المخاطرة بعملائها في جهاز الاستخبارات وكشفهم. وقضية "فليري بالم" مثال على ذلك، فاسم هذه العميلة في الـ "سي أي آي" – زوجة الدبلوماسي جوزيف ولسون – التي كشفت وجود وثائق مزورة حول محاولات صدام حسين اقتناء اليورانيوم من النيجر، تم كشفه في الصحافة الأمريكية شهر جويلية 2003. ولأن القانون يحمي العميل ناشدت الـ "سي أي آي" العدالة التدخل، لكن الموضوع أثار حفيظة رئيس الديمقراطيين في مجلس الشيوخ "هاري ريد" الذي انتفض قائلا: « إن القضية أكبر من أن تكون مجرد تسريب لمعلومات غاية في السرية بل تتعلق بالطريقة التي فبرك بها البيت الأبيض لبوش وتلاعب بالمخابرات للمرافعة لصالح الحرب في العراق وتشويه سمعة كل من يجرؤ على معارضة الرئيس.»

إذا كان الدافع الأساسي للولايات المتحدة الأمريكية من وراء "حملتها المدمّرة" ليس ضمان الوصول إلى منافذ الطاقة في مثل ذلك الظرف المتميز بالتنافس والطلب المتزايد للقوى الناشئة، وهذه سداجة، فإن الأمر يتعلق بالمقابل في رغبة أمريكا في إدامة بقاء دولة إسرائيل.

لتحقيق هذه الرغبة راحت الولايات المتحدة الأمريكية تستعين بوسائل ميكيافيلية: توظيف شعار القاعدة لتشويه سمعة الحركات الإسلامية والجمهوريات التي تشكّل "جبهة الرفض". يمثل هذان الكيانان "التهديد المحتمل" للدولة الـ 51 الأمريكية. سيكون العراق بناء عليه الهدف الأمثل

لضربات تحييد مقدرات الدفاع العربية والقضاء على الخبرة المكتسبة خلال الحرب الباردة. كان على بقية الزعماء العرب مراجعة قناعاتهم. مهما كان الحال، يبدو أن الإعلان عن النظام الدولي الجديد كما جاء على لسان الرئيس الأمريكي جورج بوش خلال حرب الخليج الأولى، كان إعلانا عن سلام سيغدو كارثيا على العالم العربي.

إن قراءة المعلومات الاستخباراتية مثلما يلخصّه مدير الـ "سي أي آي" الأميرال "سيدني سورس" (1946) تطرح مشكلة أخلاقية فيقول: «تقدير المعلومات ليس علما دقيقا، هي تفرض الكثير من الضمانات لمنع أي إمكانية لتفسير المعلومة من قبل مصالح، كل على حدا، تؤكد سياسيات تم قبولها سلفا أو آراء مسبقة[104].»

يتضح أن الغزو الأمريكي للعراق بناء على اختراع حقيقة (أسلحة الدمار الشامل)، المدعوم من طرف عملية دعائية وتلاعب إعلامي، لا يستجيب إلا للنموذج الأنغلوساكسوني للشرق الأوسط. سيغدو أي تحليل استعلاماتي تلاعبا بمجرد خضوعه لتأثير تعاطف أو انتماء ديني أو أيديولوجي أو سياسي، ومنه تأتي أهمية أن يتقفّى صانع القرار آثار المعلومة الاستخباراتية.

ومهما يكن، لقد أظهرت الحروب العربية – الإسرائيلية وحرب جزر المالوين (1982) وحرب الخليج (1991) ضد أفضل جيش عربي وضربات حلف الأطلسي ضد صربيا (1999) وكذا النزاع الليبي التشادي على شريط

---

104 In *L'Exploitation du renseignement, op. cit.*, ص 297.

"آوزو" والتدخل العسكري الفرنسي لصالح الجيش التشادي (1987)، أنه بدون مهارات تقنية وبدون شراكة دفاعية قد تعوّض أي تفوق تكنولوجي محتمل للعدو، تظل منظومة السلاح التي تقتنيها دول العالم الثالث بأثمان باهظة عديمة الفعالية وغير مؤكدة تماما مثل عقيدة هؤلاء الدفاعية. لهذا السبب، لا الوثوق في منظومة السلاح ولا الأسرار المتصلة بها يمكن ضمانها. فاستغلال بعض الأنواع من الأسلحة لا يتوقف على المالك وحده بل تخضع لشروط صانعيها.

الفصل الخامس

دورة الإستعلام

1 - مقدمة

لا يمكن فصل الإستعلام عن التنظيم الذي ينتجه، هو انعكاس له. وتختلف النظرة إلى دورة الإستعلام، فالبعض يراها تقليدية، وآخر غير مكتملة والبعض الآخر يجدها بدائية، وهو توصيف يخّل ببعض مظاهر هذا النشاط. ويبدو أن الإستعلام كنموذج قدمه محللو الاستخبارات المركزية الأمريكية منذ أزيد من نصف قرن، يكون قد أدرك حدوده الوظيفية.

مهما يكن، يبدو أن المجموعة الدولية للإستعلام، المستفيدة من الإسهامات العلمية والتقدم التكنولوجي قد اكتشفت، منذ نهاية الثمانينيات، تقليدية هيئاتها، التي تجاوزها الزمن على خلفية ظهور ما نسميه الآن مجتمع المعلومات والاتصال.

وبالفعل، فإذا كانت الانتقادات توجّه لأدوات الإستعلام بسبب بعض الإخفاقات مرّدها أخطاء يمكن تحديدها على مستوى عدد من الأصعدة في الدورة الإستعلامية، أي على مستوى جمع المعلومة وتحليلها وتقديرها، أو على مستوى ثقل ردود الفعل التي تبرّر الوسائل المحدودة وغير المناسبة للمهمة فإن دورة الإستعلام تجد نفسها محل جدل الهدف منه حمل أصحاب القرار على الاستعاضة عنها بمنظومة لائقة أكثر، أي منسجمة مع العصر الجديد للاتصال. وبهذا، فإنه بعد الدعوات إلى إعادة النظر في منظومات الحكم للقرن الماضي، جاء دور مصالح الإستعلام للتكيّف مع متطلبات العولمة.

2 - وضعية الفن

تتباين أشكال دورة الإستعلام لكنها تتشابه. فهي بمثابة رسم بياني منتظم لمختلف المراحل الضرورية التي تعقب تأكيد المعلومة المستقاة. كمثال على ذلك، نقترح هذا الشكل البياني الذي يعكس الخطوات التي يتكرر ذكرها في أكثر المخططات الأقرب للواقع.

مسار الاستعلام

Joint Publication 2.0 (2007).

يدور هذا النموذج الكلاسيكي المرتبط بعملية التخطيط لجمع المعلومة وتقديرها وتحليلها وتركيبها وكذا تأويل كل المعلومات الضرورية لاتخاذ القرار أو استباق الحدث سواء تعلق الأمر بالمجال الاستراتيجي أو النشاطات العملياتية. تسمح المعلومة الموثوق فيها بتغذية قاعدة البيانات التوثيقية والتثبت من الحقائق (الإستعلام التوثيقي) ومعالجة المسائل ذات الصلة بالأحداث الآنية (استعلام الحالة) والتنبؤ بها بناء على التقديرات (إستعلام الطوارئ ولا يجب الخلط بينه وبين الإستعلام الاستشرافي).

يتم التعبير عن الحاجة إلى الإستعلام عبر مخطط بحث تضعه القيادة أو الزبون. دورة الإستعلام هو التوصيف العام للتنظيم النظري للمراحل

الدقيقة في معالجة المعلومة. بعد التخطيط والتوجيه يتم إطلاق العملية عبر :

1 – جمع المعلومة ويتطلب ذلك البحث وتحديد المصادر المناسبة (التوثيق، بشري و/أو تقني) الميدان (حيث يختلط التضليل بالتلاعب، وحيث ينشط العملاء المزدوجون) ؛

2 – معالجة المعلومات الخامة ويتطلب ذلك التحقق منها ومقارنتها مع أخرى معروفة سلفا أو تنويع المصادر بهدف تقليص هامش الخطأ عند التقييم. وتهدف الخطوة إلى تأكيد التخمينات أو إعطائها نسبة من الاحتمالات، إذ لا يوجد عنصر استعلاماتي يمكن اعتباره محايدا. يتعلق الأمر إذن بكشف الدوافع الخفية وراء إنتاج المعلومة ونوايا المصدر أو المصادر والسياق الذي أنتجب فيه ؛

3 – يسمح التحليل الذي يرافق المعلومة المستقاة بمقارنة النتائج المتحصل عليها بالفرضيات قصد بناء المعلومة الاستعلاماتية القابلة للاستغلال وإعداد استشرافات بشأن تطور الحدث. قد يقود التعميم والاستقراء إلى الوقوع في الخطء ؛

4 – بثّ المعلومات الاستعلاماتية إلى مستقبليها، وإلى الذاكرة (الأرشيف) في شكل ملخصات.

وتستلزم المطابقة (حاجات/بحث) إلى رجع الصدى (feedback)، وكذلك يثير التحليل استفهامات كما بإمكان الأجوبة التي تعطيها مصلحة الإستعلام

أن تثير بدورها أسئلة جديدة. يشرح هذا المسار التفاعلي والمتكرر مفهوم دورة الإستعلام.

في الواقع تكون متطلبات الأبحاث في الميدان بتحصيل المعلومة في الغالب من طرف المحلّلين من أجل إحاطة أفضل للإشكالية. بينما طلبات المرسل إليهم تتعلق عموما بالتحليل والبحث أو تقييم المعلومة. ويلاحظ ممارس الاستعلام أنه في كل مرحلة من العملية، يكون ضروريا أحيانا العودة إلى مرحلة سابقة. فجمع المعلومة ومعالجتها وكذلك تحليلها قد تميط اللثام عن قصور كان يستدعي بذل مزيد من الجهد في الخطوة السابقة. تبرّر هذه الاعتبارات اختيارنا لدورة الإستعلام، أين تبرز، على كل المستويات، النشاط الأساسي للتقييم، الذي يستوجب عليه فكّ فخ التضليل وتقنيات الإحباط، وهما مصادر الشك التي تبرر ردود الأفعال (رجع الصدى).

وعادة لا يتم إثارة مسألة الاستنتاج انطلاقا من فك الشفرات أو تأويل الإشارات. وتضع الإشارات، مقدمة أي حدث، على المحك حاسة وحدس وخيال المحلّل المطلوب منه استباق الحدث.

ولا يتم قبول المعلومة في دورة الإستعلام إلاّ بناء على دقتها وأهميتها وأهمية المصدر والظروف التي جرى فيها استقاؤها، وهي كلها خطوات من المفروض أن تقود إلى تثمين المعلومة. يلاحظ أيضا أن المنتوج النهائي الذي سيرسل إلى وجهته بإمكانه أن يثير قرارات مهمة، فالأمر يتعلق إذن باعتماد مقاربة تأويلية، أي البحث عن فهم الحدث أكثر من تفسيره. الفهم أعمق من التفسير، فهو، زيادة عن ما وراء سبب الحدث يحاول تحديد المقاصد

والتداخلات الكامنة في موضوع الدراسة. بناء عليه، مطلوب من المحلّل تقدير الشك أو الاحتمال في السيناريوهات المتوقعة والاحتراس من أي انحراف في التقييم أو مغالطات أخرى.

يحذر "فرنسيس باكون" زعيم التجريبيين: «إن المعرفة تأتينا في شكل أشياء من الطبيعة، لكننا نفرض على هذه الأشياء تأويلاتنا الخاصة. وعليه، فنظرياتنا العلمية مبنية انطلاقا من نظرتنا للأشياء، وبالتالي تبقى الفرضيات التي يعلن عنها الكائن البشري منحازة»، كذلك يكشف فرويد أن الكبت ينتج معرفة لا نسيطر عليها مع أنها تتحكم في سلوكنا. ويهدّد اليقين المكتسب والتبسيط الأرعن، مثل الميل نحو الأمور المفضلّة أو الانسياق وراء الجاهز من الأحكام، يهدّد بشكل خطير التحليل الموضوعي، حتى الذين يستقبلون المعلومة الإستعلاماتية ليسوا دائما في مأمن من المفاهيم الذاتية التي قد تؤثر على تقييمهم. لقد خلص بعض خبراء في هذا المجال: «نعالج المعلومة في غالب الأحيان حسب مبدأ جهد قليل واكتفاء بهدف المعالجة. أحكامنا هي نتاج توافق بين الجهد المعرفي وصحة القرارات الذاتية.»

«إن تنشيط البيانات المتاحة في الذاكرة، الممكن استرجاعها بسهولة، يعدّ الوسيلة الأساسية لاتخاذ القرارات ليس في الظروف الروتينية فحسب بل في الظروف الجديدة كليا أو جزئيا» يقول "ت. مير" في كتابه "السنة

البسيكولوجية"[105]. نحن نطبق هذه القواعد عند التقييم والاستنتاج والتقرير، طالما أنها تفي بمعيار القابلية المناسبة للسياق الذي يتخذ فيه القرار.

3 - التحذير من علم النفس المعرفي

« يمكن اعتبار عمل "كهنيمان وتفرسكي" في بعض جوانبه بمثابة بدايات علم القرار الموجه معرفيا، الذي يحاول الإمساك بالأسس البسيكولوجية (المعرفية) لسلوك القرار، خلافا لنظرية القرار السلوكي، الوصفي والموجّه على حد سواء، أكثر نحو الكمّي. »

شولتز.

يكمن طموح عملية "دورة الإستعلام" في كشف نوايا الجهة المستهدفة وقدرتها على التحرك أو تحديد هوية الفاعلين وتطور الحدث محل الملاحظة. إن معرفة الأسباب الكامنة وراء ظاهرة ما، هو التوفر على دلائل تسمح بالتقليل من حظوظ ظهورها ويسمح بإعداد استراتيجية ملائمة للوقاية منها وعلاجها. فهم أسباب ونتائج الحدث يعني التحكم فيه، بالفعل فإن التحليل الإستعلاماتي هو في الواقع عملية ذهنية وفكرية بامتياز.

---

105 *L'année psychologique*, Année 2000, volume 100, numéro 3, ص 527-563.

إن الحصول على المعلومة، حسب البروفسور "ر. م. هوغارت" أحد الأباء المؤسسين للاقتصاد السلوكي «يمكن أن يتأتّى من البيئة وذاكرة الشخص أو بالتفاعل بين الاثنين»، لهذا السبب، يعدّ الشغل الشاغل للمحلّل هو التأكد من قيمة مصادره قبل الحكم على أهمية المعلومة التي يحوز عليها، هو مطالب أيضا بالاحتفاظ بتصوراته الشخصية، التي قد تكون خاطئة، وقد تصبح في حال تم ترسيخها، يقينية ثم بمثابة مرجع يرفض أي معلومة جديدة غير مطابقة إلى حد رفض أي تغيير.

وفي هذا الصدد، لاحظ "ج. دو لافونتان" في زمانه: «نخطئ أحيانا في تحليل حدث ما لأننا نحبس أنفسنا في وجهة نظر واحدة تبدو لنا صحيحة.»

مهما يكن، يتحمل المحلّل مسؤولياته خلال معالجة المعلومة. وتبقى المقاربة الكشفية أو المنهجية التجريبية، الوسيلة الوحيدة في التوجيه والتوضيح في اتخاذ القرار أو اعتماد خيار تفرضه علينا حالات خاصة.

لقد أظهر خبراء في علم الاجتماع النفسي، من بينهم "دانيال كهنمان" و"أموس تفرسكي" عدة مناهج للكشف عن الأخطاء المرتبطة بطرق استخدامها. ودون المخاطرة في مجال ليس مجالنا، نقدم بشكل وجيز الاختلالات الملاحظة في معالجة المعلومة بسبب مناج الكشف الأكثر انتشارا في الأدب: التفرغ، الصفة التمثيلية، الرسوخ، والتعديل، وهي أمور يتطلبها على وجه التحديد، الحكم عند الشك.

تخضع المعلومة أولا، مثلما هو مبيّن أعلاه، من المصدر وإلى غاية نشرها، إلى اختبارات التأكد من صحتها، يقوم بها المحلّل، كما تخضع في نهاية

المطاف لتقييم صانع القرار قبل أن تترجم إلى أفعال. و هي بالتالي، معرضة، نكرر هذا، للتشويه بسبب الانحيازات المعرفية، على مستوى مختلف مستويات المعالجة.

الحصول على المعلومة

تخضع المعلومة للمنهج الاستكشافي الإرشادي الخاص بالوفرة، التي تحدّد نمط تفكير يرتكز فقط وأساسا على المعلومات المتاحة في الحين، بمعنى آخر "أول شيء يخطر بالبال" دون البحث عن معلومات جديدة من شأنها توجيه القرار المتعلق بالحالة المعنية ولو كانت أكثر عقلانية. يلاحظ الكاتب "لو ني" (Le Ny) « إن الاحتمال التقديري لحدث ما يعتمد على السهولة التي يمكن بواسطتها ذكر أمثلة عن هذا الحدث» بمعنى آخر، يقتضي المنهج تجاهل المعلومة الإحصائية لصالح أمثلة بارزة أو شهادات. ويمس هذا التعريق مختلف جوانب الكشف المعبّر عنهم من قبل مختلف الكتاب.

في دراستهما حول الأحكام المسبقة (التحيزات المعرفية) لدى الحاكم يقدّم "م. برابيل" و"أ. مير" خلاصة مفاهيم باحثين مهمين حول منهج الكشف المتعلق بالوفرة فيكتبان: « هو آلية تحكم على الأشياء أو الوقائع البارزة والأكثر حدوثا والأكثر سهولة في ملاحظتها على أنها عناصر سببية في الحدث.»

التثبيت والتعديل

يعرّف التثبيت على أنه بناء لمنطق تفكيري ما انطلاقا من معطى يتضمنه نص المشكلة والحالة أو تنفيذ سابق لحالة، وهو يحدّد إطار التحليل الأولي واحتمالات التعديل اللاحق "عاموس تفيرسكي ودانيال كانمان" (1974). ويقّر "أ. آيشتاين": «قليل من الناس قادرون على التعبير بهدوء عن رأي مخالف للأحكام المسبقة المنتشرة في بيئتهم، بل غالبية الناس ليسوا قادرين على التعبير عن مثل هذه الآراء.»

التثبيت يقود صانع القرار إلى ارتكاب نوعين من الانحياز مثلما يبيّن بعض الخبراء:

– إبعاد كل معلومة لا تتماشى مع التوجه المحدد سلفا (تصفية المعلومة)؛

– الانتباه الانتقائي تجاه معلومات مؤكدة (ظاهرة داعش كمثال).

هي إذن عملية يستند فيها صانع القرار إلى الراسخ في ذهنه وقد تكون معلومة معينة، قبل الشروع في تقدير الهدف مع بعض التعديلات، وبالتالي فلا يعتد صانع القرار بمعلومة أو يحتفظ بها إلاّ في حال كانت تتماشى مع الفرضيات الموجودة في مخياله المعرفي. وفي حال العكس سيتم رفضها أو تحويلها بالشكل الذي يجعلها متوائمة مع نظريتنا ونظرتنا للعالم. إن هذه الرغبة في تقليص الشك هو وصف لتأكيد الانحياز.

التمثيل (La représentativité)

يقضي التمثيل منح صفة شيء لمجموعة ما تحمل نفس مواصفاته، وبالتالي فالمنهج الاستكشافي التمثيلي هو قاعدة تقدير احتمال انتماء هذا الشيء إلى مجموعة أشياء انطلاقا من تشابهه مع أحد عناصر هذه المجموعة "عاموس تفيرسكي ودانيال كانمان". يرى البعض أن التمثيل يقضي بالحكم على حالة فردية بل معزولة انطلاقا من تصورات مسبقة عامة مجردة ونمطية (المسلم = إرهابي، أصولي). ولتفادي أخطاء التمثيل، على المحلّل وصانع القرار أن يدركا أن الحالة المطروحة أمامهما ليست بالضرورة نموذجية مثلما يحذر خبراء علم الاجتماع النفسي.

النشر

وهم المراقبة

يمكن تفسير وهم المراقبة بالتقييم المبالغ فيه من قبل شخص في حظوظ نجاح مشروع يحمله بفعل مهارته فقط، ما يعاكس تماما الضمان الذي قد يتيحه التقييم الإحصائي العقلاني. وترتبط هذه الظاهرة باستراتيجية التقليل من العوامل العابرة والمجهول تنتج شعور بالثقة في النفس غير مناسب "داس وتنغ" (1999). وتكشف بعض الدراسات في مجال علم النفس المعرفي أهمية الإحصاء في تدريس الاستشراف وتشير أن الأشخاص الذين يستعينون بالإحصائيات هم أقل عرضة للتحيزات التي يتحدث عنها "تفرسكي وكهنمان".

في نفس سياق الجهود التي تتوخّى السقوط في فخّ المنهج الاستكشافي، ولنفس الأسباب، راح "ريتشارد هوير" إطار سابق في الاستخبارات المركزية الأمريكية، يضع عام 1970 منهجا أطلق عليه اسم "تحليل الفرضيات المنافسة" المسمّى بالإنجليزية "Analysis of Competing Hypotheses" (ACH). وتستفيد هذه الأداة التحليلية من أفكار علم النفس المعرفي والتحليل ذي الصلة بالقرار لتجاوز تحيّز الوفرة. تساهم هذه الطريقة أيضا في التحكم في الاتجاهات التي لا نلاحظها إلا من خلال الوقائع التي تؤكد فرضياتنا (استكشاف التوفر والانحياز التأكيدي) التي ليست في نهاية المطاف سوى أحكام مسبقة غير واعية. وتوصي الطريقة بالبحث المنتظم عن الأدلة التي تؤكد فرضياتنا، هي تساعد المحلّل على إقصاء أو على الأقل التقليل من هامش الإنحيازات المعرفية، هي إذن منهج افتراضي-استنتاجي قابل للفرز يعارض التحليل الحدسي. لقد اختصرنا الخطوات الثمانية لهذه الطريقة في الملحق. يمكن الاستعانة بهذه الطريقة (ACH) عبر أحد البرمجيات الحرة (ACH2.0.3) المتوفرة على الموقع التالي :

http://www2.parc.com/istl/projects/ach/ach.html

4 - نحو نماذج أخرى للإستعلام

لم تتطور الدورة الإستعلامية منذ أزيد من نصف قرن رغم قصورها في توصيف الديناميكية الحقيقية للأشياء. « على مرّ السنين أصبحت دورة الإستعلام نوعا من التصور اللاهوتي : لا أحد يشكّك في صلاحياتها. مع ذلك، عندما نسأل عددا من ضباط الإستعلام يعترفون أن العملية الإستعلماتية لا تعمل حقيقة بهذا الشكل » يقول "روبرت كلارك" في كتابه

"تحليل الإستعلام: هدف المقاربة المركزية 2010"، فمسارها الخطي وصلابتها المفرطة صارت مشكوك فيها تماما كما نمط عملها الذي لا يمثل كل جوانب النشاط الاستعلامي.

لقد اقترح "إليوت جردينس" وهو مدير سابق لـ "مركز المصادر المفتوحة" في شهادة أمام الكونغرس الأمريكي العام 2005 تطوير الإجراء وابتكاره: «يجب علينا الشروع في إعادة النظر في الدورة التقليدية والخطية للإستعلام التي باتت تمظهرا للهيئة البيروقراطية للمجموعة الإستعلامية أكثر منها تمثيلا لمسار الاستعلام» (يذكر هذا المحلل السابق في الإستعلام العسكري "كريستان ويتون" في (rapport-minoritaire.net) بتاريخ 19 جانفي 2012.

يعكف الجامعيون وخبراء الإستعلام في أيامنا هذه على بحث اختلالات دورة الإستعلام من أجل إعادة تنظيمها جزئيا أو وضع تصورات أخرى من أجل تكيّف أفضل لهذه المنظومة مع واقع الممارسة: «المطلوب إعادة التفكير في دورة الاستعلام، لا لتذوب بشكل أسهل في الهرم التسلسلي التقليدي، بل لتستفيد بشكل كامل من تطور تكنولوجيات الإعلام وتستطيع أن تعالج إشكاليات معقدّة... الهدف من العملية هو بناء تمثيل مشترك للهدف، تمثيل يمكّن كل المشاركين من استخراج العناصر التي يحتاجونها في عملهم والمشاركة فيها بمصادرهم ومعارفهم.»

فرضت تفجيرات 11 سبتمبر 2001، التي كشفت اختلالات "القانون الأمني الوطني" (National Security Act) 1947، مقاربة أمنية جديدة في الولايات المتحدة الأمريكية. فبالنسبة لأول مدير بوزارة الأمن الداخلي "طوم

ريدج" : « إن الهدف رقم واحد من إطلاق وزارة الأمن الداخلي هو توصيل المعلومة إلى أعلى هرم في السلطة وتقاسمهم الاستعلام بين مختلف الوكالات الأمريكية، على اعتبار أن النقص في الاتصال قبل أحداث 11 سبتمبر يفسّر إلى حد ماّ كيف أن التهديد لم يتم أخذه بعين الاعتبار كما يجب فضلا عن الفشل في إحباط العملية[106].

وكيبيديا أخرى أو أنتلبيديا مكيّفة ؟ يبدو أن الطريق الذي تم اعتماده، يترجم التوجه نحو تخفيف مبدأ الفصل.

فيما يتعلق بمسار معالجة المعلومة، اختبر الباحثون نظرية المعرفة. ففي إطار الإستعلام، يتم التشكيك في التفكير الاستقرائي بسبب طبيعته الاحتمالية الشديدة: إن الاستنتاجات الاستقرائية، لا شك، لا توفّر أية معلومة صحيحة صارمة يعتد بها، إنها ستصبح بناء على ذلك استنتاجات محتملة. »

إن النقاش الفلسفي يظل مفتوحا حول إشكالية النموذج التجريبي التي تفاديناها إلى اليوم بفضل تعدد المصادر. أمّا المقاربة المعرفية لأسس الإستعلام فهي مطلوبة قصد الوصول إلى وضع منهج للتقييم صالح و/أو العمل على ملمح إطار الإستعلام على مستوى التكوين، وهو ميدان حساس، فيه يبرز معنى المصالح الخاصة.

---

106 يذكره ستيفان فولشر وفرانسوا في:

Renseignement et lutte contre le terrorisme : De la fin de la Guerre Froide jusqu'à nos jours. Ifas 2008.

وتستجيب الرغبة في الاستفادة من إسهام وتوجيهات البحث العلمي على كل مستويات دورة الإستعلام، بما في ذلك ملمح المشتغلين على استغلال المعلومة، لهدف تحديد العقبات التنظيمية والانحيازات المعرفية لتحسين مناهج استغلال الاستعلام وبالتالي مراقبة أسباب الأخطاء لتجويد التقدير.

لا يتوقف تطور مصالح الاستعلام على تجويد الأداة العلمية وملمح الإطار بل يشمل أيضا مسألة أخلاقية النشاط في وسطه الطبيعي، بمعنى أين يستقي النشاط قواعده الأخلاقية. إن هذه المؤسسة، المنظمة والمجهزة بوسائل الاتصال، والتي ظلت تظهر وجودها ومسؤولياتها برفض القرارات والأعمال المثيرة للجدل صارت تشترط، ليس فقط الشفافية لمصلحة سرية بالطبيعة ولكن مراقبة واقعية، بمعنى، لا يمكن بحال أن تعترض فعاليتها.

في هذا السياق، يسلط "كريستيان هاربيلو"، مدير المدرسة الحربية للاقتصاد الفرنسي، الضوء على التطور الصارم للنظرة إلى الإستعلام كموضوع أثناء نقاش حول التوجس من الاستعلام من قبل الأنتلجسانيا الاقتصادية فيكتب: «إذا كان الاستعلام قبل كل شيء، هو ثقافة السّر، فإن الفضاء التصادمي لمجتمع المعلومات يمثل ثقافة المكشوف، حيث المضمون يشمل مجمل الممارسات الهجومية التي تهدف إلى زعزعة خصم من خلال الجدل أو التشويه.»

يصدر الجدل والنقاشات والهجمات الإعلامية أساسا عن المجتمعات المدنية كما يتضّح من خلال حملات المنظمات الدولية غير الحكومية ضد المؤسسات أو الحركات الاحتجاجية المدبّرة من قبل شبكات التواصل الاجتماعي خلال "الثورات العربية". إذا كان واضحا أن تقنيات التضليل

والاختراق يمكن استعمالها من قبل المصالح الخاصة (التركيب خلال سقوط تشاوتيسكو، صور مفبركة خلال حرب لبنان) فإن منطق المواجهة المتولدة عن مجتمع المعلومات بلغت حدا حرجا. فالعدد المتزايد للفاعلين وتنوع النقاشات يتجاوز قدرات المناورة التقليدية لعالم الاستعلام (التضليل، الكذب، الإشاعة، الدعاية السوداء)عندما يضع الأخير نفسه في موضع المرسل للمعلومات والمعارف لأهداف عملياتية.

وعليه، ولكي يأخذ الإستعلام مكانته كواقع اجتماعي ويسترجع كل هيبته فعلى كل أنواع المراقبة المناسبة الاستجابة لروح أخلاقيات المهنة والنزاهة.

5 - فلسفة الإستعلام... واجب وأخلاق

« إن المحاكمة التي يشعر بها الإنسان داخله تمثل الضمير. »

إيمانويل كانت.

إن الغرض من عرضنا هذا، ليس معالجة أسس أو فلسفة الإستعلام الذي هو عنصر حيوي يُشبه بالضبط نظام المناعة في جسم الإنسان، والذي غايته الأمن الوطني المبرّر شرعيته، وإنّما التطرق إلى جانبه الأخلاقي الذي يمس قيم تعتمد عليها كل المجموعات البشرية، قيم تنسجم مع ثقافتها. فيستوجب على السادة الجنتلمان (gentlemen)، الذين يقومون بهذا النشاط، أن يدركوا أن القيم الأخلاقية للفرد أساسية. لا شك، يجب على هذه الخطوة أي كان الحال، أن لا تنتهك الشرعية، الخطأ الذي من المفروض ردعه بقوة داخل المصالح الخاصة، مع العلم أن قضية الأخلاق في العمل مثيرة للنقاش أحيانا.

وعلى كل مستويات القيادة، من أول مسؤول على الأمن الوطني، رئيس الجمهورية وإلى غاية المنفذ، تثير القيم الأخلاقية اهتمام عناصر مصالح الإستعلام، وفي هذا الصدد يشير "أ. دنيمي" مدير المركز الفرنسي للبحث حول الإستعلام: «تحدّد الحكومات أولويات لمصالح الإستعلام وترفض أو تقبل عمليات تهدف إلى تحقيق غايتها وبهذا الشكل فهي تنخرط مباشرة في العملية وتخضع هي الأخرى لواجب أخلاقي تماما كما المصالح التي يعهد لها العمل. ويمكن للحكام أن يخلّوا بميثاق الأخلاق في عدة أنواع من الحالات: عدم الأمر بالبحث عن معلومات استعلاماتية هامة تخص الدفاع الوطني، أو عدم منح الوسائل الضرورية للمصالح الخاصة التي يتمثل دورها في المساهمة المباشرة في الأمن الوطني، أو تحويل المصالح عن مهمتها الرئيسية لصالح خدمة مصالح خاصة، أو ممارسة الضغط المفرط على الوكالات الاستخبارتية بغرض الحصول على المعلومات بأي ثمن ولو بدفعها إلى اغتصاب القانون، أو الإملاء المسبق للنتائج ومحاولة التأثير عليها بالشكل الذي يفرز لهم الوقائع التي تخدمهم (أسلحة الدمار الشامل في العراق)، أو فرض عمليات مشبوهة أغراضها(اغتيالات، اختطافات، تخريب (رينبو واريور (1985)... إلخ)،أو تحميل مصالح الاستعلام مسؤولية الأخطاء المترتبة عن قراراتهم السيئة أو عن اختلالات الجهاز الأمني الوطني. تظل هذه الاتهامات سهلة لأن الجهاز لا يحتّج أبدا[107]...»

---

[107] Denécé Éric, *L'éthique dans les activités de renseignement*, Revue française d'administration publique 4/2011, (n°140), ص 707-722.

يجب مناقشة المسألة الأخلاقية خصوصا على مستوى التوجيه داخل مصالح الإستعلام. والواقع أن مهمة مصالح الاستعلام والأمن تتمثل في السهر على الأمن الوطني في كل زمان ومكان، التحرك على وجه التحديد ضد تهديدات الجوسسة أو الإرهاب وأي تهديد يتم الإعداد له أو يهدف إلى زعزعة النظام القائم عبر وسائل سياسية واقتصادية أو عنيفة. ويبرّر الإنجليز مهمة الأمن الداخلي بحماية "الديمقراطية البرلمانية" وفي المصطلحات الفرنسية يتحدثون عن "أمن قومي" كأولوية، أما الألمان فيعتقدون أن الأولية هي في الحفاظ على القانون الأساسي الأسمى في البلاد فيما آخرون يساعد الأمن على الحفاظ على السلطة القائمة. فبالتالي، نجد أن مفاهيم مثل العدو والحرية والتفكير والاستشراف، والمصلحة الوطنية وأمن الدولة تتباين بشكل حساس، لذلك فإن هموم المواطنة والاستقرار والحريات وكذا فضاءات الحقوق والواجبات لا تحركها نفس الانشغالات عند قادة المجتمعات الحرة أو مجتمعات "الإعلام والاتصال" وعند قادة الأنظمة التسلطية في المجتمعات المنغلقة والخاضعة للرقابة والتقسيم.

ثمة مبدآن اثنان يوجهان وينوّران خطوتنا ونحن أمام صلاحيات تفرضها المهمة أو النشاط، عندئذ سنجد أنفسنا لوحدنا مع ضميرنا أمام الواجب. سيما البحث عن هذه الدلائل الإرشادية التي من المفروض أن ترافق إجراءات تنفيذ المهمة، في الامتثال الصارم للقانون، الذي إن لم يكن يعكس الأخلاق بأتم معنى الكلمة فإنه يستوحي منها. وبالتالي فإن تنفيذ الخطوة أو العملية ببساطة سيخضع لمبادئ أخلاقيات المهنة التي تحيل معاييرها إلى قواعد السلوك المتفق عليها عموما. علما أنّ صدى العمليات تقييمي أخلاقي وليس قضائي.

وفي هذا السياق، تؤكد النظرية الأخلاقية، أن أي من العمليات، يجب أن يتم تقييمها وفقا لمطابقتها أم لا لبعض الواجبات، أي التفكير النقدي حول أخلاقية المناهج، الذي يستلزم مراقبة شديدة لكل عملية. خارج هذا الإطار نكون في موضوع الشك والتعسف وكلاهما يحرّض على العنف ويغذيه. إن مراقبة النشاط، والامتثال للقواعد الأخلاقية والتحسين المستمر لملمح الإطار، هي المجهودات التي ينتظرها المجتمع من قبل مصالح الإستعلام.

لقد ذكرنا "ج. كامرون" و "جرزنسكي" آنفا ويمكننا أيضا الحديث عن صاحب المقولة "الغاية تبرر الوسيلة" (ن. مكيافيلي) وعدد آخر كبير من السياسيين الذين يبرّرون بطبيعة الحال، في توصياتهم أو استنتاجاتهم الوسائل التي يعتمدونها عندما يتعلق الأمر بالأمن القومي. ستكون الأخيرة أكثر وضوحا لو ثم الاستعانة بها في سياقها، أي في إطار منظومة القيم الخاصة بكل أمة، والتي يحكمها هي نفسها «تنظيم مستديم للمعتقدات يتصلب النمط المأمول للسلوك وتصورات الحياة».

بالموازاة مع ذلك، وتماشيا مع ميثاق الأخلاق، يجد رجالات الدولة والفلاسفة من أمثال (أبو حسن علي و"سبينوزا و"هـ.كسنجر" كما ذكرنا سلفا، في الأمن والعدالة تحديدا، قوام الدولة، فيما يقترح مؤرخون وباحثون وخبراء (ج. ب. آلام والجنرال رينهارد غوهلين) في مقاربتهم الاهتمام بـ "بروفايل" الإطار ووضع مدونة لقواعد السلوك للمصالح الخاصة التي يجب أن ينشّطها «رجال يتوفرون على صرامة فكرية وأخلاقية، ويتمتعون

بدرجة عالية من برودة الأعصاب وحسن التدبير». إن الأمر يتعلق، في كل الحالات، بقيم ومبادئ ومعايير وبمعنى العملية، أي بميثاق الأخلاق.

ويقتصر حديثنا على ميثاق الأخلاق الذي يتصل بممارسات المهنيين خلال كل مراحل دورة الإستعلام، والروح التي يمارس بها الرجال والنساء الذين اختاروا هذه المهنة.

فيما يتعلق أولا، استقاء المعلومة، فإن ترشيد الوسائل المجمّعة يجب أن يأخذ بعين الاعتبار الهدف المتوخّى وأهمية المعلومة المرغوب جمعها. في هذا الصدد تضع المديرة السابقة لـ (MI5 2007-2002) "إ.مانينغام-بولور" نقطة نظام فتقول: «فيما يخص السؤال إن كان التعذيب قد جعل العالم أكثر أمنا، فجوابي هو: لا[108].» من جانبه يصرّح "ج. ب. لابورد" المدير التنفيذي للجنة محاربة الإرهاب (CTED) : «لا يمكن بحال الاعتراف بشرعية دلائل تم الحصول عليها تحت التعذيب.»

إن احترام الالتزامات وحماية المصادر هي سلوكات أخلاقية لا يجب إنكارها من شأنها تعزيز مصداقية المصالح الخاصة وثقة أعوانها.

تتمثل الخطوة الثالثة في تسليم المعلومات الاستخباراتية لصناع القرار، وهنا تنتهي دورة الإستعلام بالنسبة للذي يمتلك المعلومة لكن مبدأ المسؤولية فيما يتعلق بالتسليم ليست دوما محترمة. ويعد الفعل اللاأخلاقي هنا، الاحتفاظ بالمعلومة قصد الحصول على الأهمية والإحساس بالتفوق

---

[108] المصدر السابق، ص 49.

والسلطة امتثالا للمثل القائل: «الذي يحقق النجاحات أكثر من غيره هو الذي يمتلك المعلومات أكثر» أو أن المعلومة ليست مطابقة لمفهومه للمصلحة الجماعية، وبالفعل، ففي الوقت الذي يحدد مالك المعلومة وقت تسليمها ويختار وجهتها فإنه يكون هنا يمارس السلطة. مثل هذا التصرف، الذي قد نجده في مستويات عليا من السلطة، يسيء للمصلحة ويشوش على وضوح المهمة. مثل هذا التهديد لحسن سير الجهاز بالإمكان حلّه أو التقليل من شأنه عبر تنظيم تحدد فيه المهام بوضوح وبتنسيق من أعلى هرم السلطة.

إن تعمّد التشويه في تحليل وتقديم المعلومة الاستعلاماتية من الأخطاء المهنية الخطيرة التي قد تكون لها آثارا وخيمة. فمصالح الإستعلام تخضع لواجب أخلاقي يتمثل في إخبار الساسة بكل موضوعية.

مثل كّل المهن، يحوز النشاط الاستعلامي على قواعد ومبادئ ومدونات سلوك، ومع ذلك لا يمكن للإمكانيات التقنية التي تحوزها المصالح أن تساوى قيمة الإنسان وثقافته وإدراكه للقدرات البشرية. في كل الحالات، انخراط المواطن في أمن بلاده، كعنصر مركزي في أي سياسة، وكقوة رئيسية في الأمة، وكغاية وليس وسيلة (أ. كانت) لا يجب أن تنسينا أن الإنسان قيمة وليس رقم. ومثل هذا التذكير يثير مسألة "أخلقة مكافحة الإرهاب دوليا".

يعرّف "دروز" الأخلاق بأنها «مجموعة عقلانية منظمة من القيم الصريحة تحدّد الخير والصحيح والجميل، يستطيع بموجبها الفرد أن يعي نفسه ويدرك أسباب وجوده وكيف يتصرف. هي تملي كيف يجب على

الإنسان أن يعيش واعتمادا على ماذا يمكنه التقييم والتقرير. يتعلق الأمر في نهاية المطاف بمنظومة قيم واضحة وتحوز على حججها تنتج سلوكات وممارسات اجتماعية».

لكن، عن أي قيم يتعلق الأمر عندما يبرّر أقوياء العالم كل تصرفاتهم بالكسب والمصلحة المسمّاة البراغماتية أو السياسة الواقعية ؟ وأن ضمان أمنهم القومي يستدعي إضعاف الدول الأخرى ؟ وأن سيطرتهم يجب أن تنظر لها بقية الأمم أنها حتمية.

إن فضيحة سجن أبو غريب ما تزال لحد الآن لم تجد أجوبة أو تبريرات بشأن التجاوزات التي ارتكبها عسكريون من الجيش الأمريكي وعناصر من جهاز الاستخبارات المركزية الأمريكية، الذين خرقوا حقوق الإنسان في تعاملهم مع السجناء خلال حرب العراق ما بين عامي 2003 و 2004، وهي سلوكات تصفها "لايدي ماينغام-بولر"[109] بـ "الخطأ العميق" تعرض هؤلاء المساجين لكل أنواع التنكيل النفسي والجسدي مثل التعذيب والاغتصاب واللواط والتصفية، لقد طلب آنذاك "ديك شيني" المدعوم من قبل الرئيس جورج بوش، من أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين منح ترخيص لعناصر الـ (سي آي أي) لممارسة التعذيب على الإرهابيين المشتبه فيهم (أسوشيايتيد برس). مع أن هؤلاء كانوا أسرى حرب، لكن الولايات المتحدة الأمريكية، التي ليست من الموقعين على معاهدة جنيف، ليست تعبأ بالأخلاق، فبالنسبة للرئيس الأمريكي، كان الأمر يتعلق بضمان الأمن لبلده.

---

[109] المرجع السابق.

ولم يتم التنديد بهذه الأعمال إلا بعد مجيئ خلفه الرئيس أوباما، الذي طالب بعد منشر الصور لأنها تعكس "همجية بربرية بشعة". لم تنجح التنديدات اللاحقة المتنافضة في إخفاء الحقد تجاه الآخرين، وعليه سيجد الجنود العراقيون أنفسهم خارج الخدمة بعدما تم حلّ الجيش العراقي من قبل سلطة جيش الاحتلال الولايات المتحدة الأمريكية (2007) المدعومة من قبل الجيوش الأنغلوسكسونية[110]. لقد أهدى هؤلاء لتنظيم (داعش) التأطير العسكري الذي لم يكن يحلم به.

يمكننا أيضا الإشارة إلى السجون السرية التي فتحتها الـ (سي آي أي) بالأخص في الدول الأوروبية، والاختطافات التي تقوم بها خارج إطار القانون والتصفيات الجسدية التي تعمد إليها دون أي شكل من المحاكمات مثلما حدث مع أسامة بن لادن الذي رُميت جثته في أعماق المحيط... هذه الممارسات الإجرامية التي ارتكبتها مصالح الإستعلام الأمريكية في إطار "الحرب على الإرهاب" التي تدفع إلى التشكيك في النموذج الأمريكي، تعزّز ضرورة المراقبة وميثاق الأخلاق.

ويمكن التساؤل بالنظر إلى النتائج الهزيلة لـ "الحرب على الإرهاب" التي بادر إليها وأطلقها الأمريكيون منذ 2003، إذا ما كانت الأخيرة كلّية، عديمة الجدوى، بعدما أفرزت بشكل غير مباشر عدة بؤر للإرهاب عوض تجفيفها

---

110 منذ 2007، رافعت عدة هيئات دولية، بالأخص المجلس والبرلمان الأوروبيين، لصالح وضع مدونة صارمة للسلوك وتبني قواعد أخلاقية ترتكز على احترام مصالح الإستعلام لحقوق الإنسان.

من جهة، وتوجيه هذا الإرهاب باتجاه الجمهوريات العربية لإخماد أي تهديد محتمل ضد أمن إسرائيل من جهة أخرى. وعليه فإن اعتماد القواعد الأخلاقية في جمع المعلومة الاستعلامية ليست فقط التزاما يندرج في إطار الجانب الأخلاقي وإنما ضرورة لتجنب الإساءة إلى الحرب على الإرهاب.

ولا يختلف سلوك المجموعات الإرهابية تجاه السكان والمختطفين عن السلوك الهمجي المعتمد لدى من يدّعون الرقي والتحضر، ويحاولون عبر محاربة الإرهاب إهانة الشعوب.

إن التفريق بين الخير والشر، عير مرحّب به، من طرف دول تمتلك أسلحة الرعب بكل أشكالها : التهديد بالأزمة الغذائية (العزل الأمريكي لكوبا، وللعراق الذي قاد إلى وفاة عشرات الآلاف من المدنيين، الضعفاء منهم، الحصار الإسرائيلي على غزة)، التهديد بالتدخل العسكري ضد شعوب تمتلك أسلحة تخضع للمراقبة فضلا عن قدمها، مراقبة ثمن المنتجات المعيشية التي كانت تنتجها وتسوّقها الشعوب الخاضعة بالأمس إلى ويلات الاستعمار، غض النظر عن تسلط ونهب الأنظمة مقابل ضمان بقائها في الحكم من أجل المصلحة...) عادة ما تملي المصلحة وحدها تطبيق الشرعية الدولية وتوصيات هيئة الأمم على حساب القانون.

ونحن نستعرض هذه الحالات، فإننا نحصي جزئيا التجاوزات والانتهاكات التي تم رفضها أو التنديد بها من خلال المبادئ الكبرى التي تحمي الأديان والمواثيق والقانون، ومع ذلك فإن المناهج غير الشرعية وانتهاك الحريات والحقوق الفردية ليست صناعة أمريكية بحتة.

لا يمكن لمسألة حماية حقوق الإنسان أن تكون عقبة أمام الحرب ضد الإرهاب، بالعكس، إن احترام الحريات الأساسية وسيادة القانون هي أدوات جوهرية لمحاربته. لا يمكن بأي حال لدولة أن تحل محل منظمة إرهابية وتسمح لنفسها بالوقوع في فخ التقليد

وخلافا للعمليات المشينة والإجرامية التي تستهدف الأجانب، تبقى المقاربة الأمنية عندما يتعلق الأمر بالخطر الداخلي تتمتع بالمراقبة أكثر فأكثر، استجابة للنضالات المدنية ضد التجاوزات(الرصد والمراقبة، الاختلالات اللغوية غير المحتملة، الأضرار الأخلاقية الناجمة عن الإشاعة... ويختلف الإجراء تبعا إن كان العدو حقيقيا أم مواطنا له سلوك مشكوك فيه. « تصرّف كما لو أن شعار عمليتك يجب أن تتحول بفعل إرادتك إلى قانون عالمي للطبيعة » هكذا يلّخص "إ. كانت" الأخلاق.

من الضروري في كل عملية الحرص على العلاقة "الأرباح/الأضرار" أو على تلك الأكثر مغامرة "الأرباح / المخاطر" الناجمة عن ميثاق الاستنتاجية التي تعني أنه لا يمكن الحكم على العملية إلاّ بناء على النتائج المترتبة عنها. إن الجواب عن طرق القوانين وقواعد السلوك لم تعد مرضية، فاللجوء إلى المراقبة وتشكيل لجان ضد التجاوزات أو الانزلاقات تقصي الآن بعض التصرفات أو التدخلات غير المبررة في حياة الناس. « مهنة موجبة وخاصة يمارسها من يمتلك حماية متينة معنوية ودليل عن التصرف يعطيه معالم ضرورية تمنعه من الغرق في الفصام (schizophrénie)، الهَذيان (paranoïa) أو الانحراف غير المتحكم فيه. » إ. دينيسي.

إن فن الإستعلام[111] يتجّه من حالة مجموعة مناهج وتقنيات متطورة تجريبيا نحو "علم الإستعلام". فتماسكه ونبله يظل لصيقا بالموضوعية والمعرفة واحترام التقاليد والمقدس والممنوع وقيم وحقوق المجتمع الذي يراقبه، وهي كلها عوامل تحدد المجال السوسيو ثقافي الذي يتم فيه تقييم العلاقة "النجاح/ الأضرار الناجمة"، كإشارة إنذار حول تصور النشاط، وهو كذلك مؤثر على نوعية "الانتصارات" الكارثية أحيانا أي غير منتجة.

إن ثقل منظومة القيم، واللاوعي الجماعي الوطني، والدور الذي يلعبه الإستعلام في تاريخ أمة والطريقة التي يلجأ بها الجهاز التنفيذي من عدمه لآلية العمل الخارجي للدولة، تتباين بصفة معتبرة بين دولة وأخرى. ينتج ذلك ثقافة وطنية للإستعلام، تعبّر عن العلاقة التي تقيمها المجموعة الوطنية مع الانضباط[112].

---

111 ليس الإستعلام علما بمعنى تخصص علمي ينتج النظريات والمعارف العالمية. الإستعلام بمعنى مجموعة مناهج ومعارف متطورة تجريبيا ومستخدمة من طرف مجموعات تطبيقية. يمنح له درجة من العلمية يمكن تقييمها. مذكور في:

Renseignement et analyse d'information : une approche épistémologique, Dr Franck BULINGE.

112 "إ. دينيسي" مرجع سابق، ص 10.

كم من مرة أفاجئ نفسي بالتفكير حول النوايا المبيّتة لبعض الإرهابيين الذين حركتهم الرغبة في الثراء أو الانتشاء بالكلاشنكوف والسكين لدى نزولهم عند مواطنين عزل، كانوا أحيانا يستقبلونهم لعدة أشهر. أتذكر ذلك الأمير الذي كان يقوم بزيارات دورية لإحدى ضحاياه، فتاة صارت له "عبدا جنسيا" ولم تكن تملك إلاّ دموعها لاستماتة "ضمير" ذلك الدموي. المأساة أن حراسة المكان كان يؤّمنها خال الضحية. أتذكر هؤلاء الأطفال المدربين على القتل من قبل أقاربهم، مثل ذلك الشاب الذي لا يتعد 18 سنة ينحدر من الشلف. كان يرافق عمه في جبال الونشريس منذ سن الـ 14. هذا الشاب الذي يصرّح بسذاجة الأطفال أنه تخصص في الحواجز المزيّفة يقول لي: " سلمت نفسي عندما شاهدت مسؤولا مدنيا مسلحا يشتغل لحساب قوات الأمن ونحن لحساب الـ (الجيا). جئت هنا للتنديد بما يقومون به ومساعدتكم " وعن سؤالي إن كان لا يخشى الانتقام ردّ أن عمه قد قتل. صورة أخرى بقيت محفورة في ذاكرتي، تتصل بفتاة لا تتجاوز الخمس سنوات. بعد الإعلان في حدود الساعة الواحدة صباحا عن مجزرة وشيكة في مزرعة تقع على بعد كيلومترات عن وحداتنا، تلقيت الأمر للذهاب هناك لإنقاذ سكان هذه المزارع. دقائق من بعد سارعت قوات الجيش والشرطة (BMPJ) إلى المكان المحدّد. شاهدتها وهي تخرج من القصب وبيدها عصا خشبية وضعت على رأسها منديل أبيض كراية بيضاء. دفعها والداها باتجاهنا وكان يناديان لا تطلقوا الرصاص. خطت الصغيرة خطوتين وتوقفت، جامدة يسكنها الرعب ممّا قد يحدث لها بين الدقيقة والأخرى. قبالة هذه الطفلة نسيت كل تعليمات الأمن وسارعت إليها قبل أن أحضنها وأنا جالس على ركبتي في محاولة لطمأنتها فوشوشت

في أذنها « انتهى الخطر نحن هنا لحمايتك » لم أفّك ذراعي حول الطفلة إلاّ بعدما شعرت باسترخائها.

أتذكر أيضا تلك الأم التي تمّ توقيفها وهي هاربة خارج الوطن، بعدما وضعت قنبلة في مكان عمومي تحت التهديدات الإرهابية والتي قالت لي: « أخي افعلوا ما تشاؤون لكن لا تقتلوني. » كانت حاملا وبحجرها طفل صغير، أما زوجها الحاضر معها، فكان وجهه شاحبا، كان يرى لا شك أن نهاية عالمه قد أوشكت. أجبت المرأة قائلا لها: « سيدتي، لا نملك الحق في فعل ما نشاء، هنا تنتهي مهمتي، عدالة بلادي هي من تحاكمك... عليك بتوكيل محامي، أما فيما يتعلق بحياتك فمن المستحيل أن نترك هذا الطفل والذي ببطنك يتامى، نحن في حاجة إلى كل الأمهات، اعلمي سيدتي أنني لست أعتبر نفسي جزائريا أكثر منك باستثناء أن طريقينا اختلفا. اعترفي أنك انخرطت في الإجرام وقتل رفاقنا ونحن نتعقبكم للحفاظ على حياتهم. » ردّت المرأة قائلة: « أخي ندمت على ما فعلت وقمت بذلك تحت وطأة الابتزاز، ماذا عساني أفعل لإنقاذ عائلتي ؟ » أجبتها: « إن الرئيس زروال يمنح "قانون الرحمة" لإنقاذ كل الجزائريين، عليك أن تتوجهي إليه. » قرأت في عيون المرأة الشك فقلت لها: « لم تنفجر القنبلة سيدتي. » عندئذ، قفزت هذه الأخيرة وكأني أهديتها طوق نجاة: « أخي القنبلة لم تنفجر، حتى كنت أرغب في إخفائها في صدري وتفجيرها لكنني لم أعرف كيف... » لم يتمّ إزعاج هذه السيدة لا من قبل العدالة ولا الشرطة. بعد سنوات، شاهدت تلك المرأة رفقة زوجها وطفليها الاثنين بنهج ديدوش مراد وهي تتمتع بالسعادة العائلية.

الفصل السادس

وسائل المراقبة الإلكترونية

استعلام ميدان المعركة

«إن نهاية تطور فن الحرب يتمثل حصريا في جعل البيانات مستقلة أكثر فأكثر عن الصدفة.»

ك. ف. كلوزويتز.

شكّلت المصادر البشرية (Human Intelligence) بالمصطلحات الأنغلوساكسونية، منذ زمن طويل الدعامة الأساسية لمصالح الإستعلام. إمكانيات هؤلاء كانت ضئيلة والنتائج المترتبة عن تضليلهم أو توظيفهم لصالح جهات أخرى كانت تقود إلى إفشال المشروع الذي كانوا يخدمونه. كانت تصفيتهم تعمي القيادة. مع تطور التكنولوجيات والتهديد الدائم، تنوعت وسائل مصالح الإستعلام وتقدمت لتشهد ميلاد المصادر الإلكترونية

(Signal Intelligence)، التي إلى جانب جمع المعلومة الاستعلاماتية، تتكفل بمهمة التشويش والحماية الذاتية.

شهدت الحرب العالمية الأولى الاستخدام المكثف للهاتف اللاسلكي. وسمحت هذه الأداة التي استعملت في القيادة وربط الاتصالات على كل الأصعدة، بالإستعلام المعمّق والآني كذلك بفضل فرق الرصد (الاستطلاع) التي كانت تخترق أو يتم إنزالها خلف خطوط العدو. كانت هذه الأداة تستجيب لانشغالات الجنرالات، الذين كانوا، مثل "أ. دابليو. ويلنغتن" المنتصر في "واترلو"، متشوّقين لمعرفة ما يجري خلف الهضبة.

ظهر الرادار، لاحقا عشية الحرب العالمية الثانية، وسيعطي هذا الجهاز لسلاح المدفعية الجوية(الدفاع ضد الطائرات) وهو المتخصص في الكشف وتحديد المكان والتعرف على هوية الهدف، ومسار الطلقات، التشغيل الآلي الضروري لمطاردة الأهداف وتعقبها لمنع الطائرات من التحليق، أول الأمر "بلا حصانة".

استمر تطور قدرات الملاحظة البشرية بفضل وضع أجهزة للرؤية الليلية والليزر للقياس عن بعد وتحديد الأهداف وأجهزة استشعار أرضية.

وساهم التصوير الفوتوغرافي الجوي العمودي والأفقي والبانورامي، في اليل كما النهار، وبفضل التصوير الحراري (الأشعة تحت الحمراء) في تزويد المحطات الأرضية الصور المطلوبة البحث قصد تحليلها. ونظرا لكثافة النار والمدى المتطور باستمرار الذي بلغه سلاح المدفعية الجوية، ظلت هذه الوسيلة الإستعلاماتية ضعيفة. ومن أجل الحفاظ على "الدماغ" المتحكم في العمليات من هجمات العدو، وضمان في الآن نفسه دوام الإستعلام،

صارت عمليات الكشف بالرادار تتم عن بعد فيما تضاعف استعمال الأجهزة دون طيّار.

سمح التطور التكنولوجي الذي أوجد وسائل المراقبة الإلكترونية، بالتحليق أيضا على ارتفاع عال والتشويش الإلكتروني والتقليل من الانبعاثات الكهرومغناطسية فضلا عن حماية وفعالية مثلى للطيران.

تضمن أنظمة مرتبطة ببعضها البعض في الأرض اكتشاف الرادارات المحمولة بحرا، فيما تضمن المهمة جوا، طائرات تحلق بعيدا عن مسرح العمليات من مثل "الأواكس" (AWACS) ونظيرتها "جي ستارس" (JSTARS). وهاتان الطائرتان من نوع بوينغ 707 المجهزة بالرادارات وأنظمة الاتصال والكشف (مجسّات)، المستعملة في حربي الخليج وصربيا، لعبت دورا قياديا لدى تحليقها فوق ميدان المعارك. كلفت الطائرة الأولى برصد الطائرات أو الصواريخ العراقية وتنبيه الأجهزة التي تعترضها وكذا الوحدات المنتشرة برا، أمّا الثانية فكانت مهمتها تمشيط الميدان لكشف وزعزعة نظام ومختلف القوات العسكرية العراقية وتدميرها.

حسب اللواء "توماس. س. سوالن" من قوات الجو الأمريكية، مثلما يذكر "أ. توفلر"[113] فإن طائرة "جي ستارس" أعطت للقيادة في الميدان «صورة دقيقة عن تحركات العدو على مسافة تبعد بحوالي 250 كلم» كانت حصيلة أداء الطائرتين جد مرضية، إذ يضيف: «من بين 49 خرجة استطلاعية تمكنت هاتين الطائرتين من تحديد أزيد من ألف هدف بما فيه

---

[113] المصدر السابق، ص 101.

القافلات العسكرية والدبابات والشاحنات وسيارات النقل المدرعة للجنود وسلاح المدفعية فضلا عن مراقبتها 750 طائرة مقاتلة.» حسب اللواء نفسه، فإن الطائرات الموجّهة بواسطة الـ "جي ستارس" كانت تكتشف أهدافها من أصل تسعة على عشرة في أول طلعة.

تضاعفت فروع الـ (SIGINT) التي كانت تشمل في البداية اعتراض الاتصالات (COMINT) واعتراض الإشارات والـ (ELINT) أي الاستعلام الإلكتروني، بفضل تقدم تكنولوجيات الاتصال والكشف وسوف تتوجه نحو التخصص بناء على المناهج المكتسبة، قاد ذلك إلى بروز الـ (FISINT) و (TELINT) و (MASINT)... مراجعة (غلوسير).

تعدّدت أساليب الاقتناء، فالطائرات (UAV) من دون طيّار، التي يجري التحكم فيها من مركز توجيه أرضي متحرك أو ثابت فسمحت بالاستطلاع الجوي ومراقبة ميدان المعركة والحدود وكذا الحرب الإلكترونية. وكانت الطائرات الحربية الأمريكية من نوع "بريداتور" مجهّزة بوسائل الرصد وأسلحة لكشف وتدمير الأهداف في الأرض. شكّل النوع الجديد "ريبر" السلاح الأكثر طلبا في الحرب ضد القاعدة وطالبان. لقد تم استخدامه في مالي للأسباب نفسها.

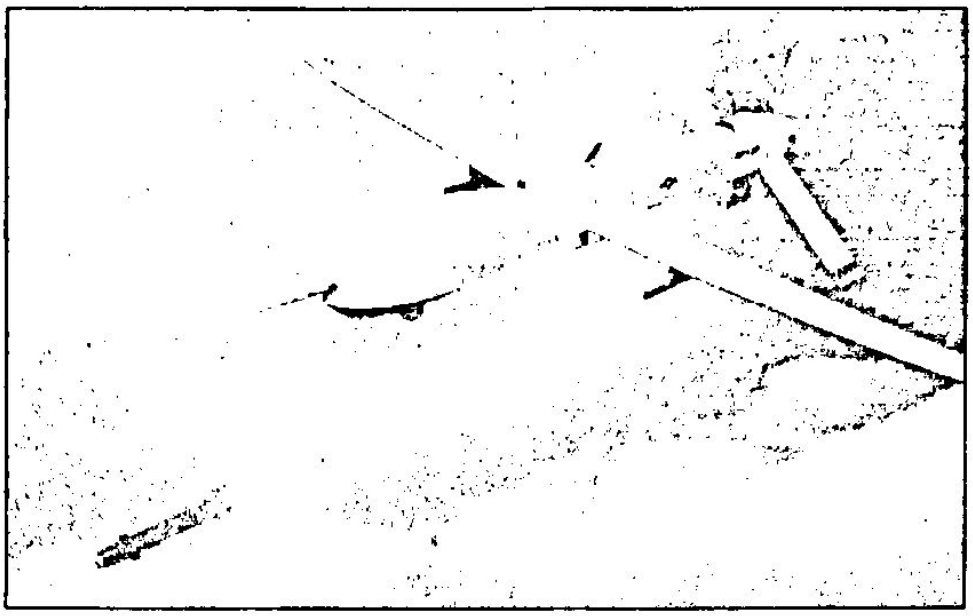

بنية لتوريق ذخص اروخ دليل ز

بعد فتح السماء للطيران، أضافت التكنولوجيا هذه الأيام بعدا رابعا لميدان العمليات باستخدام الفضاء بفضل الأقمار الصناعية في المدار. في هذا المجال، تظل الأقمار الصناعية الثابتة الأكثر فعالية بالنسبة للإستعلام الإلكتروني واعتراض الاتصالات السلكية واللاسلكية. فهي قادرة على كشف وتحديد موقع التجهيزات في الأرض واعتراض إرسالياتها، هي تسمح بتحليل الأهداف والنشاطات والمرافق ورسم خريطة للموقع فضلا عن إمكانية توصيل المعلومات في حينها.

إلى جانب وظيفة الاتصالات السلكية واللاسلكية، تستطيع الأقمار الصناعية في (مدار مرتفع) رصد عن طريق الكشف بالأشعة تحت الحمراء على امتداد مساحة واسعة جدا، إطلاق صاروخ باليستيكي أو انفجار نووي، لكن مساوئها الوحيدة أنها باهضة الثمن وصلاحياتها لا تتجاوز خمس سنوات فضلا عن سرعتها التي لا تسمح بضمان مراقبة مستمرة

لنفس الهدف[114]. إن صلاحية المراقبة والإستعلام تتوقف بناء عليه على دمج الوسائل.

إن ميدان المعركة الذي كانت تغطّيه إلى وقت غير بعيد شبكة من منظومات اتصال تقليدية (الهاتف والاتصالات الهرتزية والبرق وإرسال الصور...) مثل النظام الفرنسي " ريتا "صار اليوم محل متابعة آنية بفضل رقمنة المعلومة. فالتطور الكمي والنوعي للوسائل التقنية قادت إلى ميلاد، داخل المجموعة الاستعلاماتية، وكالات متخصصة في تسيير مختلف الاعتراضات. ويتوقف فرز واستغلال التدفق الهام للمعلومات التي تم جمعها أو اعتراضها على مدى فعالية الأداة الإلكترونية المستخدمة لهذا الغرض من قبل وكالات الاستخبارات المعنية.

تتوفر الولايات المتحدة الأمريكية على وكالة الأمن القومي (NSA) ومكتب الاستطلاع الوطني (NRO) تتكفل الأولى، وقد أنشئت العام 1952 كهيئة تابعة لوزارة الدفاع الأمريكي، بالتجسس التقني، فهي تعترض كل أنواع الإشارات (الاتصالات الهاتفية والهرتزية، الفاكس والبريد الإلكتروني(عبر العالم وبناء عليه فإن الوكالة مكلّفة أيضا بالبحث في التكنولوجيات الجديدة وفي التشفير فضلا عن البحث والتحليل في اللغات الأجنبية، هي تضمن أخيرا أمن منظومة الإعلام الآلي، والعاملون فيها

---

[114] خلال حرب الخليج تم تجنيد (6) قمرا صناعيا وعشرات الطائرات دون طيار لمراقبة التراب العراقي المتواضع.

يتجاوزون 20 ألف موظف غالبيتهم علماء في الرياضيات والفيزياء ومهندسون وخبراء في الإعلام الآلي ولسانيون.

فيما يتعلق بالهيئة الثانية، أي مكتب الاستطلاع الوطني، فإنه يتبع وزارة الدفاع الأمريكية، مكلّف بجمع المعلومات في شكل صور من خلال الأقمار الصناعية المكلفة بالمراقبة. وتمتلك روسيا هيئة تدعى (FAPSI) أنشئت بعد إعادة هيكلة مصالح إستعلام الإتحاد السوفييتي سابقا. وتتوفر الوكالة الروسية على وسائل الـ (SIGINT) الموجودة سلفا بجهاز الـ (كا جي بي). لا تختلف نشاطاتها عن نظيرتها في الـ (NSA)

وتحوز بريطانيا من جانبها على "المقر الرئيسي لحكومة الاتصالات" (GCHQ) التي يتم تنسيق نشاطاتها مع لجنة الاستخبارات المشتركة (JIC). وتستفيد الهيئة، فضلا عن إمكانياتها الخاصة، من تعاون في مجال تخصصها مع الدول الأنغلوساكسونية.

ولا تتوفر فرنسا على وكالة متخصصة في الإستعلام عن طريق المصادر الإلكترونية (SIGINT). فـ الـ "DGSE" والـ "DRM" تضمن جمع المعلومات بوسائل تقنية متعددة. ويتم مركزة الإستعلامات على مستوى "تجمع المراقبة الكهروإذاعية" (GCR). وتتمثل إمكانيات التجميع في محطات للتنصت موجودة في فرنسا وخارجها، وأقمار صناعية للتجسس موضوعة في المدار مع تطوير برنامج "هيليوس 1" و"هيليوس 2". وحسب الكتاب الأبيض "الدفاع والأمن الوطني – 2008" فإن قدراته الاستعلاماتية فيما يتصل بالصور سيتم تطويرها من قبل البرنامج الأوروبي "MUSIS" (Multiuser Satellite Imagery System) الذي سيسمح بإطلاق الجيل

المقبل من المجسّات الفضائية الذي منحها العام 2015 القدرة على الاستطلاع، أي توفير صور عالية الدقة وقدرة عالية على الكشف.

عند الحاجة، تستعين فرنسا بالطائرات دون طيّار، وبالفعل، استعانت القوات الجوية الفرنسية عام 2008 بأربع طائرات عسكرية دون طيار (EADS-Harfang-MALE) لدواع استخباراتية. تتبع هذه الوحدة قيادة القوات الجوية، وسبق لها أن جرّبت عامي 2008-2009 بأفغانستان هذه الطائرات عبر 5 آلاف ساعة تحليق لتنفيذ 500 مهمة فوق مسارح العمليات (مصادر صحفية)، وهي الطائرات نفسها ت التي م تجنيدها عام 2013 في مالي إثر التدخل العسكري الفرنسي.

يجري الآن في فرنسا دراسة 4 مخططات (وحدات تتشكل من 3 إلى 4 طائرات بلا طيّار) لاقتناء طائرات جديدة لقوات الجوّ، طائرتان أمريكيتان بلا طيار من نوع "ريبر" تم اقتناؤها العام 2013، في انتظار 19 أخرى من نوع (MALE) سيتم الحصول عليها مشارف 2019. والحقيقة أن استعمال هذه الطائرات يمتد إلى قطاعي الحماية المدنية والشرطة.

إننا نشهد حاليا، سباقا سريا نحو اقتناء طائرات مقاتلة بلا طيار، والحرب الإلكترونية، التي تستدعي تكنولوجيا عالية الدقة تتطور باستمرار، والدول الغربية مثل روسيا والصين وإفريقيا الجنوبية وإسرائيل والهند صارت تخصّص لها ميزانيات جد مهمة.

ونظرا للحاجة إلى التكيّف والتخطيط من حيث التحليل والتقييم الذي يأخذ بعين الاعتبار حقائق الواقع والتطور السريع أحيانا للأحداث، تبقى الموارد البشرية هي وحدها من تحضّر القرار. فإذا كانت الموارد التقنية

توجّه الإستعلام نحو التركيز على إمكانيات الخصم، فإن الموارد البشرية بإمكانها توضيح نواياه وترقبّه وتحديد الجواب وتقليص هامش الشك.

إن الوسائل الإلكترونية، وهي تسمح اليوم بتحديد واكتشاف الاتصالات الصوتية بدقة عالية وفي حينها، تعزز الفعالية التقنية للعمل. نتذكر كيف أن تصفية الرئيس التشيكي "جوكار دوداييف" تمت بفضل هاتفه الموصول بالأقمار الصناعية ما ساعد على تحديد موقعه واستهدافه بصاروخ. وقد يكون هذا سببا في تقليص الاتصالات الهرتزية لدى تنظيم القاعدة.

وأمام هذه الشبكة الواسعة للتنصت وغيرها من وسائل اعتراض الاتصالات، يعكف مصممو الشفرة على تطوير التشفير الكمي، كنظام تشفيري غير قابل للتكسير على مستوى الممارسة العملية وغير قابل للتكسير في المطلق، رغم انه بالإمكان استغلال هذا النظام لأغراض مافياوية عابرة للقارات أو الإرهاب الدولي أو أنواع أخرى من الإتجار غير الشرعي، ولا شك أن مصالح الإستعلام لن تذخر جهدا لمراقبة القوة " التهديدية " لهذه الأداة بالموازاة مع تطور شبكات الاتصال وفضاءات التواصل التي لا تعترف بالحدود (وسائل الإعلام والأنترنت) – مواضيع تثير القلق والاهتمام كذلك – تدعّمت بعض مصالح الإستعلام بوسائل اتصال قوية تربط على الدوام كل مصلحة بعميل في الميدان، نذكر مثلا "أنتلينك" (Intelink) بالنسبة لمصالح الإستعلام الأمريكية و"سقراط" (SOCRATE) "الدعامة العملياتية المؤسسة لشبكات القوات المسلحة من أجل الاتصال" بالنسبة لمصالح الإستعلام الفرنسية.

الفصل السابع

الإستعلام الاقتصادي

شكّل الإعلام والمعرفة أحد الأملاك العمومية العالمية الأربعة التي تضمنها تقرير نشره برنامج الأمم المتحدة للتنمية (PNUD) عام 1999. ومما جاء في التقرير: «نحن ممثلي شعوب العالم، المجتمعون في جنيف في الفترة الممتدة ما بين 10 و 12 ديسمبر 2003 في إطار المرحلة الأولى للقمة العالمية لمجتمع المعلومات، نعلن إرادتنا وإصرارنا على تشييد مجتمع معلومات له طابع إنساني بحث يثمّن التنمية، مجتمع معلومات، يجد فيه كل فرد إمكانية إنتاج والحصول وتقاسم المعلومة والمعرفة، وحيث بإمكان الأفراد والمجموعات والشعوب تنفيذ كل مقدراتهم لتعزيز التنمية المستدامة وتحسين مستوى المعيشة استنادا لأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة والاحترام والتنفيذ الكامل للإعلان العالمي لحقوق الإنسان.» (إعلان المبادئ للاتحاد الدولي للاتصالات السلكية واللاسلكية (UIT)، التابع لهيئة الأمم).

ولأن الابتكار والمعارف التقنية صارت مهمة أكثر فأكثر لحياة الناس فإن الإستعلام يتوسع في كل مكان بما في ذلك مجالات البحث والتطوير والاقتصاد وباقي القطاعات الاستراتيجية. إذا كان مفهوم الاستعلام الاقتصادي حديثا نوعا ما فإن النشاط المناسب له ليس جديدا، فلطالما تم إقحامه ضمن استراتيجية المؤسسة ليصبح أكثر فأكثر بمثابة سياسة الدول. وعادة ما يتم الخلط بين الإستعلام الاقتصادي والجوسسة الاقتصادية، وفي هذا الصدد يكتب "موريس بتول" مدير نشر "عالم الإستعلام" : « الإستعلام الاقتصادي نشاط مشروع يجري القيام به عبر تنظيم البحث عن المعلومة، أما الجوسسة الاقتصادية فيجري تنفيذها بوسائل غير شرعية كليا[115]. »

عدة تعريفات للإستعلام الاقتصادي تم الاهتداء إليها من بينها التعريف المقترح من قبل المهندس "مايكل زارطارين"[116] :

- التحكم والحفاظ على الموروث العلمي والتكنولوجي والتنافسي للمؤسسة ؛
- الكشف عن التهديدات والفرص التي من شأن المؤسسة ان تواجهها ؛
- بناء استراتيجيات التأثير لصالح المؤسسة.

---

115 مذكور من قبل "ي. كرايون" في :

Intelligence économique, compétitivité et cohésion sociale, La documentation française, 2003.

116 المرجع السابق.

إن الأمر يتعلق بمسار متواصل، دائم ومعرفي، الهدف العام منه، تحسين تنافسية المؤسسة بإعطائها الوسائل التي تمكّنها من معرفة وفهم المحيط بغية اتخاذ القرارات بكل وضوح.

وليس وحدها المهام الأمنية من تقع على كاهل الإستعلام الاقتصادي، بل يدخل ضمن مهامه أيضا التنافسية والتأثير والتكوين، وهي عناصر مفتاحية في المنافسة. ويرتكز الإستعلام الاقتصادي على ثلاثة محاور:

- دعم النشاط الاقتصادي القومي ؛
- إدراك ومراقبة البيئة التنافسية لتعزيز مسار النشاط الاقتصادي ؛
- التكوين الجامعي في البحث والتعليم.

إذا كان الإستعلام الاقتصادي ملزم باستخدام الوسائل المشروعة فإنه لا يحرم نفسه من طلب المساعدة من المصالح الخاصة لبلوغ أهدافه. في هذا الصدد يكتب المدير السابق لجهاز الاستخبارات الفرنسية " بيار ماربون " ملخصا سلوك الدول التي تتعاطى الجوسسة الاقتصادية لدى حلفائهم العسكريين والسياسيين: " نحن حلفاء، هذا صحيح، لكن في مجال الاقتصاد والتكنولوجيا، نحن متنافسين ". من جانبه يضيف وبكثير من التفاصيل "ستانفيلد تورنر" مدير الإستعلام (1977-1981) تحت حكم الرئيس كارتر: « إذا كان يجب الاعتراف بالاستعلام الاقتصادي كعنصر مهم من الأمن القومي، لا يختلف عن القوة العسكرية، فلماذا إذن يجب على الولايات المتحدة الأمريكية أن تخشى سرقة واستخدام الأسرار الاقتصادية.»

لاحظ "فلاديمير تسخانوف" رئيس المديرية العامة للتجسس الاقتصادي الروسي في جوان 1994 : « الحقيقة، أنه منذ نهاية الحرب الباردة، تزايدت أنشطة أجهزة الاستخبارات الأجنبية الموجهة ضد الاقتصاد الروسي ونفس الشيء انخرطت فيه أيضا بلدان المعسكر الاشتراكي سابقا والبلطيق. انتقلت الأولويات على ما يبدو من المواجهة العسكرية إلى المواجهة الاقتصادية... » صار العالم مجالا للتبادلات بلا ضمير.

في هذا الجو المطبوع بإعادة توجيه التحالفات، يعد الإستعلام الاقتصادي، حاليا، السلاح المناسب لضبط استراتيجيات المنافسة في سوق تتطور باستمرار. ومع ذلك تبقى مساهمة الجوسسة حاسمة، فالأخيرة، الموجّهة نحو البحث عن العوامل التنافسية وغزو الأسواق الخارجية، تسمح للجهات الراعية لها بتقليص نفقاتهم والرفع من أدائهم وزيادة حصصهم في السوق على حساب منافسيهم. تملي الآثار المحتملة لهذه التصرفات على سوق العمل وبالتالي على السلم الاجتماعي، على الحكومات والمؤسسات تصور وتنفيذ الاستراتيجيات التجارية وبرامج التحسيس. تحقيقا لهذه الغاية تجد المصالح الخاصة نفسها مدعّوة لمضاعفة جهودها للكشف عن التهديدات التي قد تؤثر على المصالح الاقتصادية والتجارية لبلدانهم، ورصد فرص خدمة هذه المصالح : « تغّير وجه الحرب، وللموتى وجودهم الافتراضي، إنهم لا يسقطون الآن في ميدان الشرف بل يتم القضاء عليهم في ميدان شرف الإقصاء والبطالة. »

كثيرة هي القصص الطريفة التي يجري تداولها في هذا الصدد توضحها الأمثلة التالية :

– في العام 1994، راحت الـ (DGSE) تضع ميكروفونات في شكل دبابيس في طائرة الخطوط الجوية الفرنسية درجة أولى، أجبرت الشركة على تقديم الاعتذار بعدما تم كشف فخّها ؛

– نجحت كاميرات تعمل بالأشعة تحت الحمراء في جمع معلومات إستعلاماتية حول ابتكارات تكنولوجية ونماذج من شركة فولسفاغن عام 1996. ظلت الكاميرات تنقل من داخل مراكز وحلبات الاختبار حيث كانت مخبأة الصور عن طريق الموجات الهرتزية، مرّت الحادثة دون اكتشاف أمر أصحابها ؛

– تم الالتفاف عام 1993 على طلب لاقتناء قطار فائق السرعة "تي جي في" تقدمت به كوريا الجنوبية ليتم تحويله لصالح منافس أنغلو-فرنسي (GEC-Alsthom) على حساب الممون الألماني (Siemens) الذي كان عرضه أكثر إغراء. استنكرت الشركة اعتراض اتصالاتها داخل إدارتها بسيول ؛

– السيطرة الأمريكية عام 1996 على شركة "جمبلوس" الدولية (Gemplus international) الفرنسية المتخصصة في صناعة البطاقات الذكية الحيوية في عدد من القطاعات الصناعية المفتاحية: الدفع الإلكتروني (البطاقة البنكية) والاتصالات (بطاقات سيم) والصناعة الأمنية (التشفير). هذه المجالات الثلاثة هي في صلب عمل الاقتصاد العالمي وتنظر إليها الولايات المتحدة الأمريكية على أنها عنصرا أساسيا في قوتها.

في عددها الصادر بتاريخ 5 نوفمبر 2002، كتبت صحيفة "لوموند" بشأن هذه القضية في ختام مقال استنادا إلى مصادر من وزارة الاقتصاد والمالية

التي تابعت الملف «هل تبحث المصالح الخاصة الأمريكية عن بسط يدها على البطاقة الذكية ؟» ونقرأ في هذه الفقرة: «كلهم يتأسفون، دون أن يتطرقوا إلى وقوف الاستخبارات المركزية الأمريكية ووكالة الأمن القومي وراء القضية، من أن تكنولوجية فرنسية استراتيجية من هذا الطراز يتم "نقلها"، لكنهم يقولون أن لا أحد يمكنه التدخل في إطار شركة خاصة.»

كرونولوجيا الأحداث

في عام 2000، نجح الصندوق الأمريكي "مجموعة تكساس للسلام" (TPG)، المعروف بعض مسؤوليه بقربهم من مصالح الإستعلام الأمريكية، في محاولة ثالثة، في الدخول في رأسمال "جمبلوس" بنسبة 26% مقابل الحصول على الحق في تعيين غالبية أعضاء مجلس الإدارة وتحويل مقر المؤسسة إلى لكسمبورغ ومنح له اسم "جمبلوس إنترناشينل". في أوت 2002 عين مجلس الإدارة على رأس الشركة "ألكس ج. ماندل" إداري سابق في مؤسسة "إن كيو تيل". أنشأت الـ "سي آي أي" صندوق رأسمال المخاطر لتؤكد رغبة وكالة الأمن القومي (NSA) في السيطرة على التشفير (البرءات وتحويل التكنولوجيا) الموضوع في البطاقات الذكية. في 2 جوان 2006 اندمجت "جمبلوس أنترناشينل" مع "أكسلطو" (Axalto) لتشكيل مجموعة "جملتو" (Gemalto). في العام 2009 تشتري فرنسا 8% من "جملتو" عبر الصندوق الاستراتيجي للاستثمار لتصبح بذلك المساهم الرئيس في المجموعة، لكن فعلت ذلك بعد فوات الأوان، إذ لم يكن في وسعها منع الأمريكيين من الحصول على تكنولوجيات فك التشفير من البطاقات الذكية. بعد عام باعت مجموعة تكساس للسلام (TPG) كل أسهمها.

ثمة استراتيجية ثالثة تنضاف إلى استراتيجيتي الهجوم والدفاع، هي استراتيجية النفوذ[117] والأخيرة وإن كان يؤخذ بها في كل المؤسسات لكن بتكتم، تنحو باتجاه أن تصير هي سياسة الدول. وتعد الإطارات الأجنبية التي تتدّرب في مدارس هذه الدول استثمارا بشريا يجب تنظيمه بالشكل الذي يكثّف ويضاعف شبكات تأثيرها عبر العالم. يشكل هذا المخطط مداخل عدة وقنوات توضع في متناول مبعوثيهم.

إن أكبر المزايا التي تحظى بها الدول الصناعية الكبرة في مجال الإستعلام الاقتصادي على نظيرتها السائرة في طريق النمو، تكمن في قدرتها على التقاط الإشارات الهرتزية (SIGINT).

خلال الحرب الباردة، ومن أجل مراقبة تدفق المعلومات، انتظمت الدول الأنغلوساكسونية حول شبكة تنصت للاتصالات والمواصلات السلكية واللاسلكية عبر العالم تسمى "إشلون" (Echelon). عالجت الشبكة حوالي 3 مليار اتصال في اليوم، ولأنه تم تنظيمه أساسا ليستهدف في البداية دول حلف وارسو، فإن مخطط التنصت والتجسس وضع لخدمة الاقتصاد الأمريكي منذ انهيار الاتحاد السوفييتي. يمكن ذكر تحويل

---

117 «عندما قررت الحكومة الجزائرية إطلاق مناقصات دولية لبناء محطات توليد الكهرباء [...] كانت "جنرال إلكتريك (GE)" ضمن المتنافسين على الصفقة بقيمة 2.5 مليار دولار [...]. في أكتوبر 2012، عدت إلى الجزائر لتشجيع الحكومة بقوة على مواصلة الإصلاحات السياسية [...] استعلمت بشأن "جنرال إلكتريك" وعندما غادرت الجزائر كنت جد متفائل [...] بعد أقل من سنة، تم فعلا الاحتفاظ بـ (GE)... » عن:

Hillary Rodham Clinton, *Le temps des décisions*, Fayard, 2014, ص 612.

صفقات "إيرباص" في المملكة العربية السعودية و"طومسون ألكتال في البرازيل" بفضل هذا المخطط:

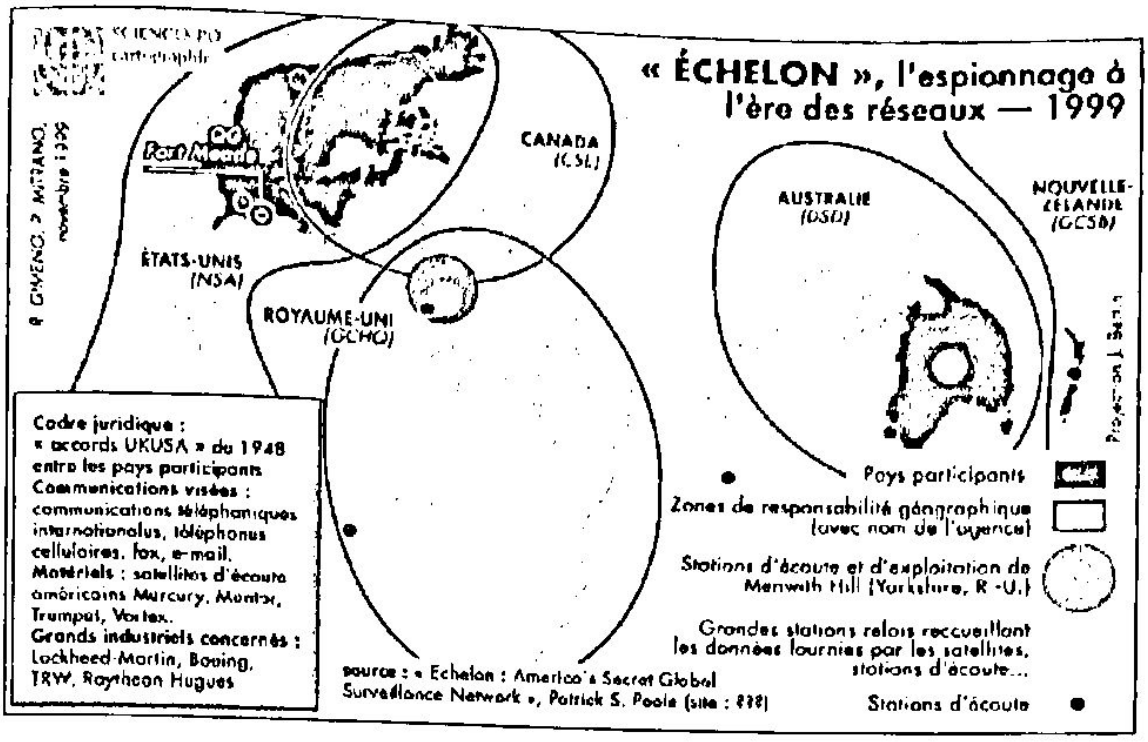

إشلون... الجوسسة في عهد الشبكات 1999.

– سمح اعتراض مركز الأمن القومي (NSA) لاتصالات المناقص الفرنسي "طومسون-آلكتال" الذي قبلت الحكومة البرازيلية عرضه لإنجاز مشروع لمراقبة الأمازون عبر الأقمار الصناعية العام 1994، سمح بكشف عملية رشوة داخل مجموعة الاختيار البرازيلية انتهت بفعل ضغط الحكومة الأمريكية، بمنح هذا السوق المقدّر بـ 1.4 مليار دولار أمريكي إلى شركة أمريكية تدعى "ريتيون" (Raytheon).

– ساعد اعتراض وكالة الأمن القومي الأمريكية لاتصالات هاتفية وفاكسات بين المجمع "إيرباص" والخطوط الجوية السعودية، الأمريكيين

على الحصول على حصة من الصفقة تقدر قيمتها بـ 6 مليار دولار أمريكي عام 1994.

إذا أصبحت المعرفة والابتكارات بمثابة رهانات فإن مصدر الإنتاج يصير محل تحويل. وفي هذا الصدد يقول الخبير في إدارة الأعمال "طوم بيتر": « إن أحد أكبر أسرار "سليكون فالي" هو هروب رأس المال البشري في العالم الثالث، بالتأكيد [الأهالي] يغادرون، لكنه سرعان ما يتم تعويضهم بمهاجري الهند وطايوان. »

يتفق خبراء استشارهم "المجلس القومي للإستعلام" (NIC)[118] على أن هجرة الأدمغة الحالية من إفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط ستتضاعف مع الارتفاع المرتقب في عروض الشغل بالأخص في أوروبا.

يوصي "س. ب. هوتنعتن" حتى تكون الهجرة مصدرا ممكنا لقوة ورأسمال بشري أن تعطى الأولوية لـ «الأشخاص المؤهلين والحيويين وأصحاب المهارات والخبرة، الضرورية للمجتمع الذي يستقبلهم[119] ».

يظل البحث وتحديد وإحصاء الاحتياجات التقنية والعلمية المكّملة لتحكّم هذه الدول في وسائل التطور – احتياجات من شأنها الإفضاء إلى

---

[118] هيئة استشارية توزّع تحاليلها على مختلف المجموعة الاستعلاماتية إلى غاية رأس الجهاز التنفيذي

http://www.foia.cia.gov/collection/national-intelligence-councilnic-collection

[119] المرجع السابق، ص 457.

استثمارات محلية أو تشجيع البحوث في المجالات التقنية والعلمية ـ من أجل التكفل بها في الخارج ـ، أحد أهداف المصالح الخاصة والباحثون عن الأسواق. تنعكس عواقب هذا الحرمان فتؤدي إلى تثبيط المبادرات الخلاقة وخنق أي فرص للتعبير الإبداعي.

مثلما كان الحال في الماضي، ما تزال ثروات دول العالم الثالث محل النهب، وما يزال الإكراه الوسيلة المثلى للاستحواذ على قوة العمل والمنتجات الزراعية والمصادر المعدنية والطاقوية.

صارت المجتمعات اليوم مفرغة من مادتها الحيوية "قوة العقل" فالخبراء المعترف بهم وبقية العمالة المهرة تهاجر بحثا عن مساحات يستطيعون في ظلها التعبير عن أنفسهم والإحساس بالتطور، حيث يتم تقدير كفاءاتهم والاعتراف بمجهودهم. رغم ذلك ليس هذا النزيف حتمية إذ بالإمكان احتوائه في حال توفر مخطط اجتماعي ينتشل الفرد من حالة الإحباط التي يشعر بها. مبادرة كهذه، مدعومة بالتبادلات الدولية، ستسهّل لا محالة الحوار بين الأمم.

تنعكس آثار الهجرة على المجتمع المعرّض لنزيف هذه النخبة المنتجة، التي يتحقق بها أمل الشباب والمؤسسات والتنافس المفقود، وهي نفسها الشروط المثلى لجلب الاستثمارات المرغوب فيها، في ظهور حالة «الاستهانة بالمعرفة والنشاط الثقافي الذي يتجلى في تدني مستوى التعليم» (س. ب. هوتنغتون).

حسب عالم المستقبليات "أ.توفلير": «يتضح إذن أن المعرفة ليست فقط مصدر السلطة عالية الجودة ولكن أهم عامل على الإطلاق أيضا

للقوة والثروة، بمعنى أن المعرفة لم تعد عامل مساعد لسلطة المال أو القوة الجسدية بل صارت هي الجوهر، وهنا مصدر كل السلط الجديدة التي ستظهر قريبا. [...] سيولي خبراء الإستعلام غدا أهمية أكبر لـ "الحصول على المعرفة" أكثر من اهتمامنا اليوم بـ "الحصول على الوسائل"[120] » أليس الجهل أكثر فتكا من أي شيء آخر ؟

تعدّ الانقسامات الاجتماعية ومشاكل الأقليات والفوارق الجهوية والعقلية القبلية والفساد عناصر ضعف وهشاشة تثير اهتمام مصالح الإستعلام. فالعولمة المطبوعة بغلبة الربح وهاجس الأسواق من المفروض أن تدفع باتجاه تشكيل مجموعات في شكل أقطاب اقتصادية فاعلة وتعاون متزايد في مجال الأمن للتخفيف من عبء التأثيرات الخارجية. يجب أن تسمح لدول الجنوب بتجاوز لعنة « أن يكون محكوم عليهم بالعيش في جحيم حياة مع وقف التنفيذ » (إ. توينبي)، أن تدفع باتجاه مضاعفة الجهود للرّد بالمثل والمقاومة والمبادرة أمام قوى تسعى لإبقاء هذه الدول في مصاف مدن صفيح، في كوكب قلّصته شبكات الاتصال : « بدون تحالفات كما بدون القدرة على المقاومة، حق الجسد (بمعنى القدرة على الوجود) يغدو نظريا أكثر منه حقيقة » (سبينوزا).

من المسلّم به الآن أن التوجه العنيد نحو تحقيق السوق الدولية، سينظر إلى مفهوم الفصل أو الاكتفاء الذاتي على أنه مفهوم قديم لن يترجم إلا بنوع من السيطرة أكثر عنفا من النظام الدولي. كل محاولة

---

120 A. Toffler, *Les Nouveaux pouvoirs*, éd. Fayard, 1991, ص 36.

للانعزال محكوم عليها بالضعف والفقر. المطلوب من هذه التجمعات الحيوية، التحلي بنظرة جديدة تجاه المستقبل وإعادة تقييم العلاقات الجهوية والتماسك لتفادي التفكك بل إفراغ هذه التجمعات من جوهرها قبل وضع اللمسات الأخيرة عليها، بالأخص إذا كان ينظر إليها على أنها تهديد للنظام القائم.

يكتب "ز. برجزنسكي"[121] في تحليله الاستشرافي: «من مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية، على المدى القريب التقوية والحفاظ على التعدد الجيوسياسي السائد على الخارطة (أوراسيا)[122]. يمكننا عبر المناورات السياسية والتلاعبات منع بروز تحالف عدائي قد يبحث عن تفنيد سيادة الولايات المتحدة الأمريكية ويستنكرها.» إن تفاقم الخلافات، المجال المفضل لمصالح الإستعلام الأجنبية، والإبقاء على تململات وجلب النظر إليها للتنفيس في محاولة لتحويل الأنظار عن المشاكل الحقيقية تهدد الاستقرار وتفخّخ مشاريع الغد المشترك وتوّلد في نهاية المطاف ردود فعل عنيفة.

لا وجود لبلد في منأى عن الحرب الاقتصادية العالمية ووحدها المصلحة الوطنية تحدّد السلوك وتبّرر الوسائل، ولو على حساب تطلعات شعوب أخرى تحاول الانعتاق من ظروفها الصعبة. فالعوامل الاقتصادية تؤثر

---

121 المصدر المذكور سابقا، ص 253.

122 حسب الـ (NIC) فإن (أوراسيا) كمفهوم يحلّ محلّ الاتحاد السوفياتي سابقا فقد معناه. مذكور في تقرير الـ (سي آي أي) بعنوان: "كيف سيكون العالم في 2020" تقديم "أ. آدلر" منشورات روبرت لافو، 2005، ص 99.

تماما كما العوامل العسكرية على الأمن القومي. ومهما يكن فعلى المجتمع أن يأخذ زمام أمره بيده عبر التخلص من ثقل التقاليد البالية والتصالح مع ذاته. سيتوقف موت أو حياة أبنائه على الطريقة التي سوف يتعاطى بها مع المستقبل.

« إن رجلا دون أمل، ويعي وجود الإنسان، لا ينتمي أبدا إلى المستقبل. يدخل هذا ضمن النظام. لكنه ضمن النظام ايضا إذا بدل جهدا للتحرر من العالم الذي يعدّ هو خالقه[123] ».

تستطيع ديناميكية تغيير عقلانية، التي تعد في حد ذاتها نقاشا وتدبيرا وقائيا على عدة أصعدة، المساهمة في دعم الجهود التي تبذلها القوى الحية لتحقيق هدف مشترك. ستسمح ببّث حيوية متجددة وتنافس يجنب الركود الآسن. إن الاستقرار الذي لا يولّد ديناميكية التطور قد تحلّ محله رتابة هدّامة ومنحرفة.

---

123 A. Camus, *Le mythe de Sisyphe*, éd. Gallimard, ص 52.

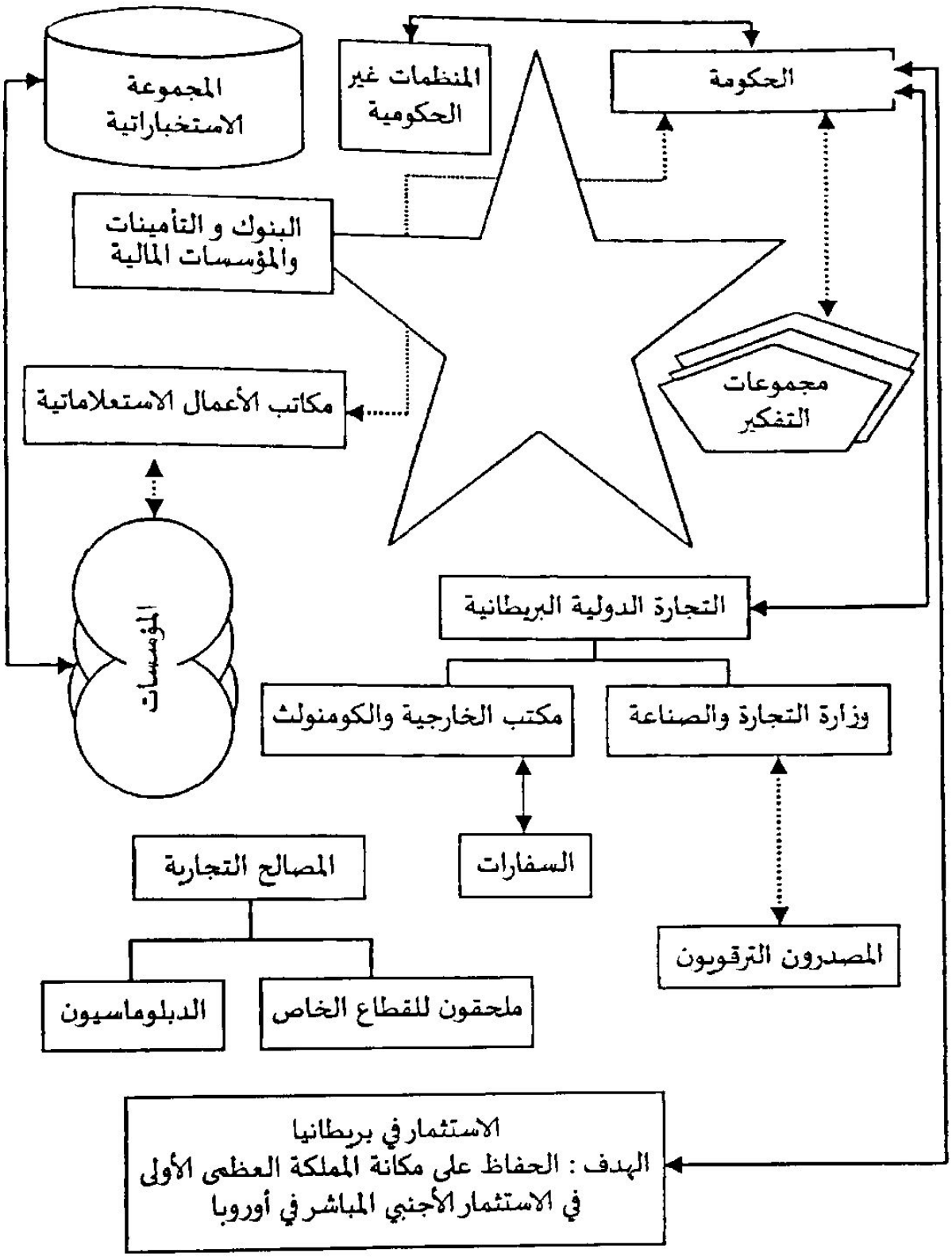

استنساخ جزئي لمشروع مخطط الاستعلامات الاقتصادية البريطانية

انظر : B. Carayon, *L'Intelligence économique*

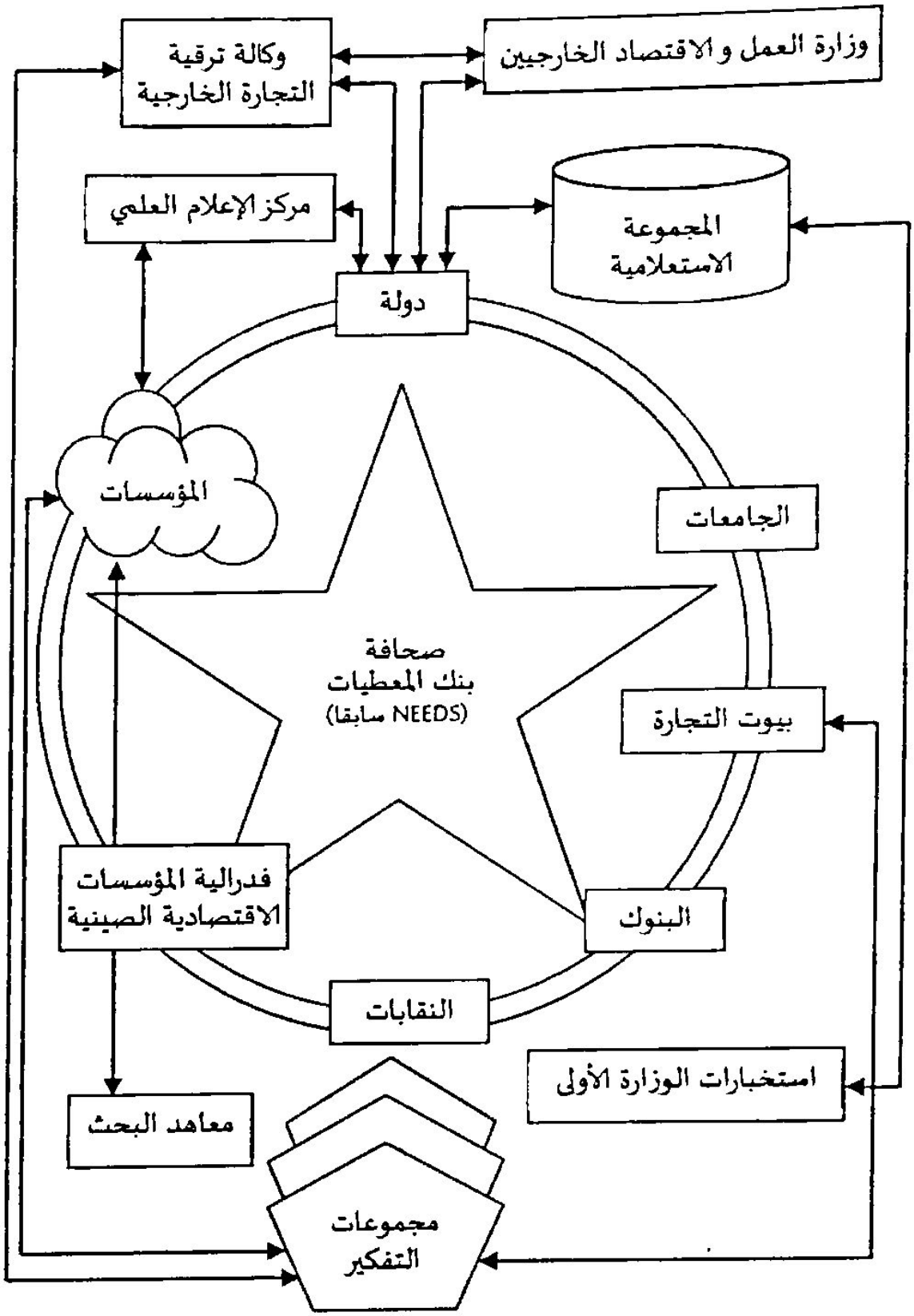

استنساخ جزئي لمشروع مخطط الاستعلامات الاقتصادية في اليابان

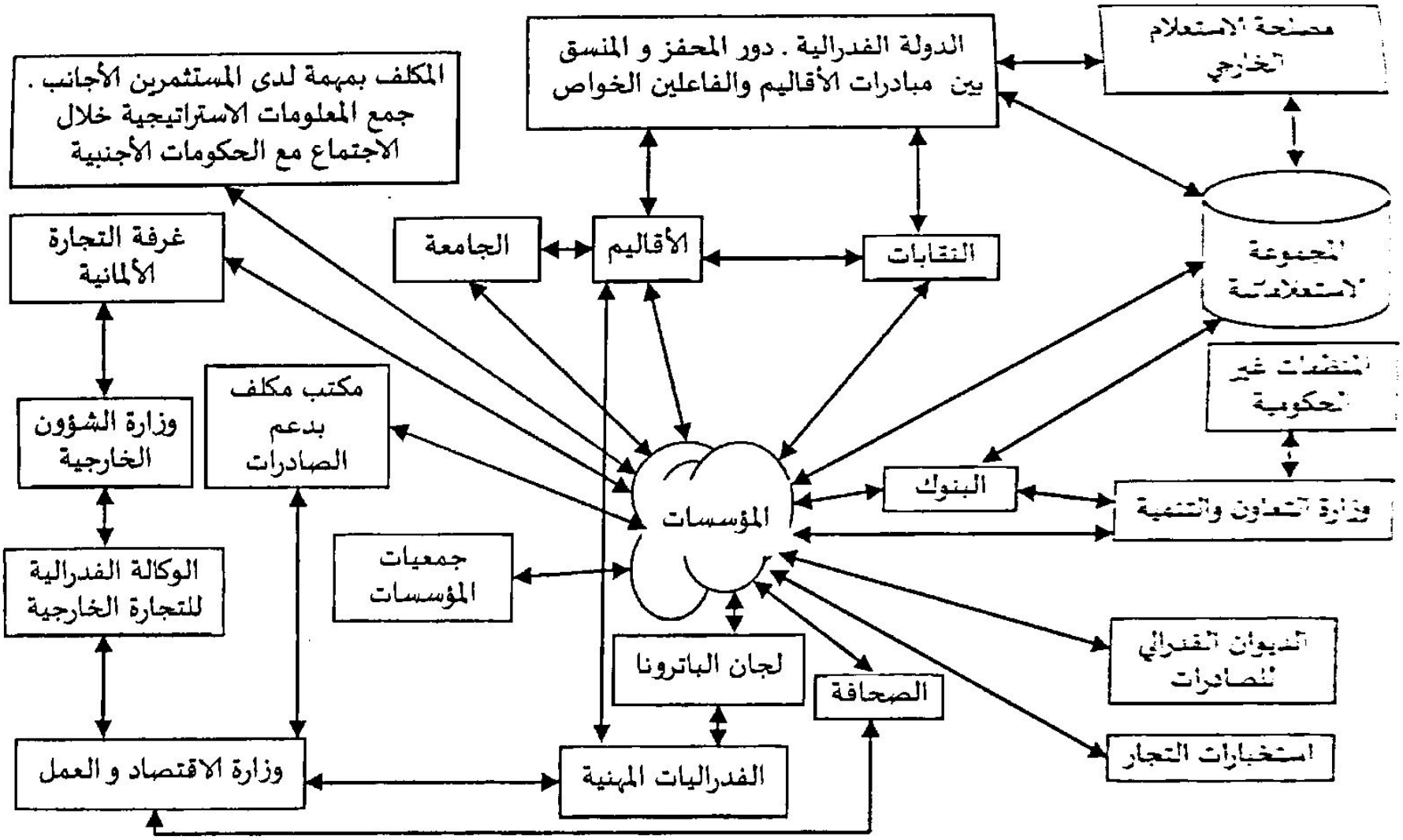

مشروع مخطط الاستعلامات الاقتصادية الألمانية . أنظر : B. Carayon, *L'Intelligence économique*

الجزء الثاني

علم التشفير

الفصل الأول

من كيمياء السرّ إلى علم السّر

يعود استخدام الشفرة، كأداة عمل لا غنى عنها لحماية سرية المراسلات الحساسة وهدف دراسة علم التشفير، إلى عصور غابرة. إنها تمثّل اليوم روح مؤسسة الاستعلام برمّتها وكانت فيما مضى من اختصاص العوالم السرية لقطاع الدفاع والدبلوماسية قبل أن يمتد استعمالها إلى قطاعات أخرى في الدولة وتنتشر أكثر فأكثر وسط العامة

و تجد الشفرة نفسها في كل مرة على المحك، وهي الوسيلة لحماية الاتصالات ومصدر للإستعلام والتضليل كذلك، في إطار حرب متواصلة يخوضها واضعو الشفرة وكاسروها، رجال الظل الذين يتوقف عادة مصير المعارك الحاسمة ومصير بلدانهم على حد سواء في كفاحها من اجل البقاء. ولعل تاريخ مختلف الصراعات التي هزّت العالم غني بالأمثلة في هذا الصدد :

فكّ شفرة الرسالة التي بعث بها وزير الخارجية الألماني "آرثور زمرمان" للرئيس المكسيكي خلال الحرب (1914-1918) وفيها يقترح عليه الدخول في حرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية والسماح للإنجليز بإقناع الأمركيين بالمشاركة في الحرب إلى جانب الحلفاء ما يقود بالتالي إلى كسر توازن القوى الموجود على المسرح الأوروبي للعمليات.

– يعود الفضل في انتصار الجيش الألماني بالجبهة الشرقية، إلى حد كبير، إلى اعتراض وقراءة رسائل الجيش الروسي.

– تمكن الجيش الفرنسي من ردّ هجومات الجيش الألماني بفضل فك تشفير رسائل الأخير. والتقدم الذي حققه الألمان أيضا تحت قيادة "لودتدورف" كان بفضل تغيير الشفرة UBCHI و ABC و ADFGX وأخيرا ADFGVX (طالع الملحق) حيث صارت أكثر تعقيدا من سابقتها ما أعمى بشكل ظرفي قيادة قوات التحالف.

– لم يتم توقيف زحف لودندورف على باريس، آخر أطوار الحرب إلا عقب فك شفرة البرقية اللاسلكية المسمّاة "الانتصار" من قبل الخبير التقني، الملازم أول "باينفين" والذي سمح للجنرال "فوش" بتنظيم دفاعه وفقا لذلك وإعادة المبادرة للحلفاء.

يلّخص "ديفيد كاهن" كثافة نشاط محللي الشفرات خلال هذه الحرب فيقول: «لم يحدث، لا قبل ولا بعد، أن أثّر تشفير واحد كل ذلك الحجم على مسار الأحداث. كان التاريخ، خلال هذه الفترة، بين يد مكسّري

الشفرة[124]. » لقد كتب الجنرال "لويل" في مساهمة حول الاستراتيجية : « إن علم التشفير دعامة قوية لفن الحرب. »

سيكون التشفير التحليلي، بعدما صار سلاحا، سبب الانتصارات التي تم تحقيقها خلال الحرب العالمية الثانية. بعد مفاجأة "بيرل هاربور"، كانت "ميدواي" (Midway) أساسا انتصارا للإستعلام. لقد أعلن "ولسون تشرشل" في نهاية الصراع، وهو المعروف عنه كونه أكثر الشخصيات السياسية اهتماما باستخدام الإستعلام: « ثمة ثلاثة عوامل سمحت بكسب معركة الأطلسي: الأسطول الملكي البحري والقوات الجوية الملكية والتشفير. » من جانبهم يخلص المؤرخون اليوم أن علم التشفير ساهم في تقصير عمر الحرب العالمية الثانية إلى سنة في المحيط الهادي وإلى سنتين في أوروبا.

ألم ينجّ العقيد في جيش التحرير الوطني "عبد الحفيظ بوصوف" من موت مؤكدة في ديسمبر 1956 بفضل فك شفرة رسالة كشفت الكمين الذي نصبه له جيش الاحتلال ؟

مع ذلك اتسّم تطور علم التشفير بالبطء الشديد وكان يجب انتظار النصف الثاني من القرن العشرين وظهور الآلات الحاسبة، مصدر هذا العلم، لرؤية "كيمياء السر" تتحرر من مناهجها التقليدية وتخضع لصرامة الرياضيات، التي بفضل دعم أداة الإعلام الآلي ستتحول إلى "علم السرّ".

---

124 D. Kahn, *La Guerre des codes secrets*, InterEdition, 1980, ص 116.

سيشهد هذا التطور ثلاثة مراحل يربطها "ج. ستورن"[125] في مقدمة كتابه بثلاثة عصور: العصر البدائي الذي ينحصر ما بين الحربين العالميتين والعصر التقني الذي يتصادف مع اكتشاف آلات التشفير والعصر المتناقض الذي أدخل النظام التشفيري بمفتاح عمومي المعروف اختصارا بـ (RSA).

في العصور القديمة

يتحدث المؤرخ اليوناني "هيرودوت" عن أقدم الكتابات السرية في كتابه "التاريخ" الذي يدور موضوعه الرئيسي حول التقاء الحضارات اليونانية والفارسية خلال القرن الخامس قبل الميلاد. نلاحظ في هذا المجال أنه غالبا ما تكون الثقة العمياء هي سبب الخسارة: خشايار الأول، ملك الفرس، المصمم على اجتياح أتينا وسبارت يعلن: «سنحرص على تمديد الإمبراطورية الفارسية إلى أن تطال حدودها سماء الله، عندئذ، لن تضيئ الشمس أرضا أخرى غير أرضنا[126].» لقد أعدّ خشايار الأول جيشا لهذا الغرض، لكن "دمرتوس" وهو يوناني تم نفيه خارج بلاده، يعيش بمدينة "سوز" (بلاد فارس) قرّر إطلاع "سبارتا" بخطة الاجتياح فلم يجد من وسيلة لفعل ذلك إلاّ عبر حكّ شمع كان منتشرا فوق زوج صفيحتين خشبيتين قابلتين للطي، ليكتب به تفاصيل خطة الملك الفارسي ثم يعيد وضع الشمع

---

[125] Jacques Stern, *La Science du secret*, éd. Odile Jacob, 1998.

[126] مذكور من طرف "سيمون سينغ" في كتاب:
Histoire des codes secrets, éd. JC Lattes 1999, ص 20.

فوق الرسالة المحفورة في الشمع ويطوي الصفيحتين الخشبيتين من جديد. لم تثر العملية شكوك أعوان الحراسة على طول مسار الرحلة ونجحت الرسالة في الوصول إلى وجهتها. في العام 480 قبل الميلاد، فرسى الأسطول البحري الفارسي بـ "سلامين" بالقرب من أثينا، قبل أن يتعرض لهزيمة نكراء خلال يوم واحد على يد البحرية اليونانية.

هناك حيل أخرى جرى تداولها لإخفاء الرسائل :

تكتب الرسائل فوق رأس مبعوث يتم حلقه سلفا، ولا تسلم الرسالة إلى مستقبليها، إلا بعدما ينمو الشعر مجددا.

كانت الرسائل تكتب في الصين القديمة فوق حرير ناعم يتم إخفاؤه بعدها داخل كريات صغيرة جدا تغطى بالشمع. وما كان على المبعوث إلا ابتلاع الكرة والتوجه نحو مهمته :

– استعمال شعر النساء لإخفاء الرسائل،

– استعمال الحبر غير المائي.

يسمّى هذا النمط من الاتصال السري الذي يقضي بإخفاء الرسائل "ستيغانوغرافيا" (ستيغا = غطاء وغرافيا = كتابة) ويدخل ضمن هذا النمط استخدام الحبر غير المرئي المعروف الآن من قبل الجواسيس. ولعل ضعف هذه الطريقة البدائية يكمن في مستوى انخراط المبعوث وخطر توقيفه، حينذاك سيتم اكتشاف الرسالة السرية. بالموازاة مع "الستيغانوغرافيا" تطورت "الكريبتوغرافيا" (كريبتو = مخبأ) والأخيرة لا تخفي وجود الرسالة لكنها تخفي مضمونها.

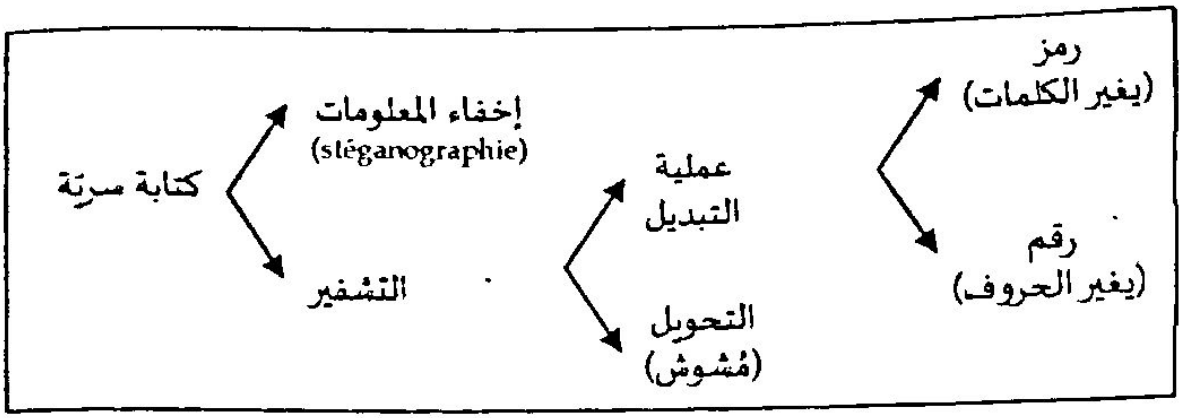

تقضي عملية الإخفاء بجعل الرسالة غير قابلة للقراءة بتشويش المضمون تبعا لبروتوكول معدٍّ مسبقا بين المرسل والمرسل إليه، دونه لا يمكن قراءة الرسالة. وتخلو العملية من الإكراهات فيما يخص الاحتمالات اللامتناهية القادرة على التطور.

سكيتال

أول أداة تقنية للتشفير عن طريق الاستبدال تكون سكيتال (scytale) التي استعملت في اليونان في القرن السادس قبل الميلاد. ويشبه "سكيتال" العصا يلّفها شريط فوقه تكتب الرسالة، يلّف الشريط ويرسل، ودون معرفة قطر العصا يستحيل قراءة الرسالة.

كان يوليوس قيصر أول من استعمل شفرة الاستبدال في سياق عسكري. وتتمثل العملية في تحريك ثلاثة من أحرف الأبجدية من مكانها باتجاه أماكن أخرى خلافا للأبجدية العادية.

الأبجدية العادية :

a b c d e f g h i j k l m n o p q r s t u v w x y z

الأبجدية المشفّرة :

D E F G H I J K L M N O P Q R S T U V W X Y Z A B C

النص العادي :

é c o l e a p p l i c a t i o n

النص المشفّر :

H F R O H D S S O L F D W L R Q

تكتب الأبجدية العادية في علم التشفير بالأحرف الصغيرة وتلك المشفّرة بالأحرف الكبيرة ونفس الشيء بالنسبة للنص العادي، يكتب بالأحرف الصغيرة والمشفّر بالأحرف الكبيرة. ولا يمكن فكّ شفرة النص الأول إلا بمعرفة قطر φ القضيب الخشبي، فيما يتعلق الأمر بالنسبة للنص الثاني بمعرفة عدد أماكن (ن) المتحركة في الأبجدية المشفّرة مقارنة مع الأبجدية

العادية. وبالتالي فإن (ن) و (φ) يمثلان مفاتيح التشفرة . وتتم العملية باعتماد الخوارزميات المحددة من قبل المفاتيح.

مربع بوليب "Polybe" (205- 125 ق.م)

يقترح المؤرخ اليوناني "بوليب" طريقة تشفير انطلاقا من جدول 5x5، حيث تشفر الأحرف برقمين :

	1	2	3	4	5
1	A	B	C	D	E
2	F	G	H	I, J	K
3	L	M	N	O	P
4	Q	R	S	T	U
5	V	W	X	Y	Z

مثلا :

A = 11 ; B = 12 ; C = 13 ; Q = 41 ; R = 42 ; U = 45.

O B J E C T I F A T T E I N T

34 12 24 15 13 44 24 21 11 44 44 15 24 33 44

من الواضح أنه يمكن ملء الجدول دون احترام الترتيب الأبجدي وسيكون الأمر أكثر أهمية إذا تم تضمين الجدول كلمة مفتاحية.

و نظرا لبساطته ومقاومته لكاسري الشفرة ظل مبدأ الاستبدال يسيطر على تقنية الكتابات المخبأة طيلة القرن الأول، بل تم النظر إليها على أنها الأكثر أمنا وغير القابلة للانتهاك بفضل ضخامة إمكانيات التركيبات (1026 2 إمكانية) وهذا إلى غاية دخول العلاّمة العربي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن قمران بن اسماعيل الكندي على الخط واشتغاله على المسألة.

تحليل الشفرات عند العرب

في كتابه التحفة "حرب الشفرات" يكتب "ديفيد كاهن" يقول: «لا وجود في كل الحالات المدروسة إلى اليوم بحوث متبوعة بتحليل الشفرات، الأخير نشأ عند العرب، وهؤلاء هم أول من اكتشفوا طرق التشفير ووثقّوا ذلك بالكتابة. هذا الشعب، الذي خرج من جزيرة العرب في القرن السابع وانتشر بسرعة البرق في جزء واسع من العالم، أنجز واحدة من أعظم الحضارات في التاريخ. انتعشت العلوم وأعمال الخيال مثل ألف ليلة وليلة فيما الألغاز والجناس وألعاب الكلمات والكثير من التمارين العقلية الأخرى أغرقت إبداعاتها السوق. احتلت الدراسات النحوية المراتب الأولى ومعها الكتابات السرية[127].» وبالفعل انتعشت الحضارة الإسلامية خلال حكم العباسيين في سنة 750 للهجرة، وهي الفترة العظيمة التي كرس فيها الخلفاء جهدهم في تنظيم مجتمع مثقف ومزدهر يطبعه تسيير جيد.

---

127 David Kahn, *La Guerre des codes secrets*, éd. InterEdition, 1980, ص 15.

أنشأ الخليفة المأمون سنة 815 هجري بيت الحكمة في بغداد تحوي مكتبة ومركز للترجمة وسمح ذلك بترجمة مئات الآلاف من الكتب ونشرها. لقد أحصت بغداد لوحدها أزيد من مائة مكتبة، فيما قادت ترجمة بعض المصنفات المكتوبة باللغات الميتة والمقاطع المشفّرة في بعض التخصصات مثل الكيمياء والسحر إلى ميلاد علم جديد اسمه تحليل الشفرات.

تكشف عدة كتيبات إدارية عن استخدام الكتابة السرية في شؤون الدولة. ويخصص كتيّب الوزير "عابد الكتب" المؤرخ في القرن العاشر حيزا هاما لعلم التشفير أو علم التعمية. وزيادة على مهارتهم في تشفير الرسائل اخترع المسلمون تحليل الشفرات، أي اعتماد منهج لفك شفرة الرسالة دون معرفة المفتاح، وكسروا بذلك شفرة الاستبدال الأبجدي التي ظلت عصيّة على الانتهاك في أوروبا مدة قرون.

الخليل ابن أحمد الفراهيدي (718-786)، صاحب أول معجم في اللغة العربية "العين"، استخدم التوافقيات (analyse combinatoire) لحساب مجموعات من الحروف. ويقترح في مخطوطه "كتاب المعمّى" الهجوم بنص واضح معروف وتقنية الكلمة المحتملة المطبّقة على نموذج تشفير بيزنطي. من جهته، ألّف جابر بن حيان، المكنى جبر، والمتوفى عام 815، مئات الكتب في مادة الكيمياء والطب والفلك وترك وراءه مصنّف في علم التشفير عنوانه "حلّ الرّموز ومفتاح الكنوز".

إلى ذلك، لمع يعقوب بن إسحاق الكندي (801-873) / مسؤول بيت الحكمة في بغداد، في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات وعلم اللسانيات والموسيقى وعلم التشفير أيضا. من بين 290 مؤلف في مختلف التخصصات

نذكر أقدم مخطوطة في علم التشفير "رسالة في استخراج المعمّى" الذي يضع فيه الكندي أسس تحليل الشفرات ويقترح أربعة مناهج للتشفير: التقنيات الكميّة والتقنيات الكيفية والكلمة المحتملة وتوافقيات الحروف.

في مخطوطه "كتاب المعمّى" يقترح الكندي مخطط بياني تصنيفي لمختلف أنواع أنظمة التشفير ومناهج فك الشفرة. كما أدخل الإحصائيات ومفهوم وتيرة حدوث الحروف واستغلالها لفك الشفرات، فيشرح كيف نجد وتيرة الحروف في كل لغة وكيف نستعملها لكسر الشفرات، ويشير أيضا إلى أهمية طول النص المشفر للحصول عل معدلات ذات معنى.

يكتب الكندي في مؤلفه الهام "مخطوط في فك رسائل التشفير"[128]:

«واحدة من الكيفيات التي يمكن بواسطتها توضيح نص مشفّر، في حال كنا نعلم باي لغة كتب، هو حصولنا على نص آخر عادي بنفس اللغة، يمتد على مساحة صفحة تقريبا، والبدء في حساب ظهور كل حرف. نسّمي الحرف الأكثر بروزا بـ "الأول" والذي يليه "الثاني" والذي يليه "الثالث" وهكذا دواليك مع كل حرف يبرز في النص. نفس الطريقة نعتمدها مع النص المشفّر لكن بالتعاطي مع الإشارات. نستبدل الإشارة الأكثر ظهورا بالحرف "الأول" في النص العادي (الواضح) والتي تليها بالحرف "الثاني" والتي تليها بالحرف "الثالث" إلى حين ننتهي مع كل الإشارات المتضمنة في النص المشفّر المراد فكّه.»

---

128 S. Singh, *op. cit.*, ص 34.

من جهته، ألف أبو بكر أحمد بن وحشية، المتوفى عام 919، من بين كتبه في الكيمياء والفلك والسحر مصنّفه "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام" قبل أن يذكر العام 855 في كتابه عدة أبجديات سرية استعملت لأغراض تشفيرية.

ويقترح، المؤلف المجهول، صاحب المقالتين، في مخطوطين اثنين تقنية التخفيف من الوتيرة المرتفعة للحروف. ويشرح لكاسري الشفرة كيف يمكن استغلال أخطاء التشفير، وينصح معدي الشفرات بتسهيل أنظمة التشفير من جانب الاستغلال بالأخص في فترة الحرب.

وألّف محمد بن أحمد بن طباطبة، المتوفى عام 934، عشرات المؤلفات في علم النفس والأدب والفلسفة وعلم العروض وعلم التشفير. ويسمّى مؤلفه حول علم التشفير المطبق على الشعر "المدخل في معرفة المعمّى من الشّعر" وآخر حول تحليل الشفرات بعنوان "رسالة في استخراج المعمّى".

وكتب الخبير في عالم الأصوات وتفكيك الشفرة في القرن العاشر "إسحاق بن وهب الكاتب" مؤلفين في علم التشفير الأول بعنوان "البيان والتّبيين" والثاني "البرهان في وجوه البيان". وضع المؤلف وتيرة للكلمات المزدوجة (bigrammes) واقترح نظاما يشفرهما بإشارة واحدة لاختزال النص المشفر إلى المصف فضلا عن اقتراح شفرة مركّبة (الاستبدال والتحويل معا).

ألّف "إبراهيم بن محمد بن إبراهيم" المعروف باسم "إبن دنينير" (1187-1229) مصنفين في علم التشفير، فيصف رقعة الشطرنج والشبكات وعلم إخفاء المعلومات وتقنيات الإحصاء في علم التشفير، وابتكر في مؤلفه

"مقاصد الفصول المترجمة عن حل الترجمة" باقتراح "حساب الجمل"، أي شفرة جبرية تحوّل الحروف إلى أعداد ويخضعها لعدد من العمليات الحسابية الأساسية قبل تحويلها مجددا إلى حروف.

وكتب "علي عفيف الدين إبن عدلان" (1187-1268) وهو عالم في اللسانيات والتشفير أربعة كتب من بينهم اثنان في علم التشفير: "المؤلف للملك الأشرف" و"المعلّم" ويدرس في الكتاب الأخير مورفولجية أنظمة التشفير، احتمالات الكلمات، توافقيات الحروف والحروف المزدوجة ويقترح 20 قاعدة في تحليل الشفرات و 18 خطوة للانتقال بواسطة الإبعاد من الحل الممكن إلى الحل المؤكد ويناقش صفات تحليل التشفير ويفصّل في عملية الاستبدال بمفتاح متغير.

وضلع "علي بن محمد بن الدريهم" (1312-1361) في اللاهوتيات واللسانيات والحساب وعلم التشفير وترك وراءه 80 كتابا من بينهم خمسة حول علم التشفير:

1 – مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز
2 – إيضاح المبهم في حلّ المترجم
3 – مختصر المبهم
4 – نظم لقواعد فنّ المترجم وضوابطه
5 – قصيدة في حلّ رموز الأقلام

. والحقيقة أن علوم المسلمين في مجال التشفير نجدها معروضة في الموسوعة الهامة "صبح الأعشى" التي تقع في 14 مجلدا من تأليف أبو العباس القلقشندي سنة 1472، وكان الهدف منها تعزيز الإدارة بمعرفة

واسعة عن التخصصات المعرفية الرئيسية لدى المسلمين. وفي القسم المعنون: "إخفاء المعلومات السرية في الحروف" جزأين، أحدهما يتحدث عن التمثيل الرمزي واللغة التقليدية والآخر عن الحبر غير المرئي وعلم التشفير

في مقدمته يكتب القلقشندي: «لأن عدوي يرغب في وضع حاجز ما بين المرسل والمتلقي، مثلا بين سلطتين أو شخصين، فإن التشفير يصير ضروريا عندما تصبح الطرق المعتمدة عديمة الجدوى إمّا بسبب إجراءات الاعتراض أو بسبب المراقبة الصارمة لبريد كلا الطرفين.»

ليست الأبجدية المشفّرة مجرد توافقية للأبجدية العادية ولكن هي خليط بين الحروف والأرقام والإشارات. فالإشارات (# + !) يمكنها أن تحل محل الحروف مما يقّوي مقاومة التشفير.

في الغرب

بينما كان الكندي يضع أسس علم التشفير كانت أوروبا تناقش بدايات هذا العلم. وكانت المؤسسات الوحيدة التي شجّعت دراسة الكتابات السرية دير العبادة حيث كان الطلبة الرهبان هناك يعكفون على دراسة الإنجيل لاكتشاف المعاني الخفية.

يحتوي العهد القديم أمثلة ظاهرة عن النصوص المشفرّة وبعض النصوص فيه مشفرّة حسب شفرة استبدال عبرية "أتباش" (atbash) التي تقضي باستبدال كل حرف من الأبجدية بآخر يحتل نفس الترتيب لكن بالحساب انطلاقا من الحروف الأخيرة منها.

بدأ الرهبان الأوربيون باكتشاف شفرات الاستبدال القديمة ثم اخترعوا أخرى وكان ذلك بداية دخول علم التشفير في الغرب، لكن أول كتاب أوروبي وصف طرف التشفير تم تأليفه في القرن الثالث عشر من قبل الراهب الإنجليزي الفرنسيسكاني "روجيه باكون" الذي يقترح في مؤلفه "رسالة حول الأعمال الفنية وبطلان السحر" سبعة طرق للاحتفاظ بسرية الرسائل ويحذر: « مجنون الرجل الذي يكتب سرّا في شكل قد يدركه العامة من الناس. »

في القرن الرابع عشر اقترح الفلكي والخبير في التشفير "جوفري شوسر"، وهو صاحب "كتاب الأسطرولاب" واحد من أهم التشفير الأوروبي الذي يقضي باستبدال حروف النص الأصلي برموز، مثل (ب) بـ (+)، أما بقية اقتراحاته فسبق لرهبان القرن الثاني عشر أن اشتغلوا عليها إنّ النصّ المشفّر المكوّن من رموز قد يبدو صعبا فكّه بالنسبة لأولئك الذين لم يكونوا يعرفون بعد الكندي.

بالموازاة مع إعادة هيكلة مصالح الإستعلام في القرن الخامس عشر تم تعميم علم التشفير وبدأت تظهر على مستوى القنصليات "مكاتب الشفرة"، في الوقت نفسه تطور في "المكاتب السوداء" تحليل الشفرات مما كان يهدّد حماية الاتصالات السرية للدبلوماسيين.

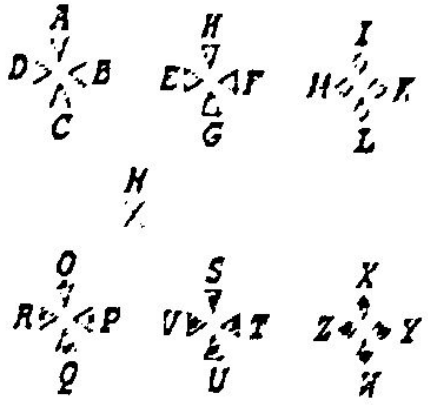

شفرة الفرسان

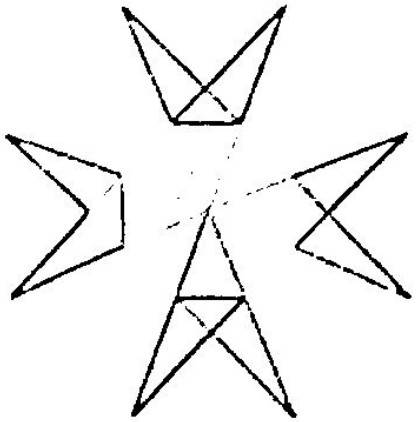

الصليب ثماني النعيم

شفرة بلاصو

يعود الفضل إلى ظهور المفهوم البارع لـ "الكلمة - المفتاح" إلى "جوفاني باتيستا بلاصو" العام 1953 في كتابه (La Cifra del Sig). توزع الكلمة-المفتاح بشكل منتظم ودوري على النص المراد تشفيره. كل حرف من الكلمة المفتاحية يستبدل بالحرف الذي يقابله في النص. وستكون الكلمة المفتاحية التي يسمّيها الكاتب "كلمة المرور" العنصر الريادي في التشفير والعائق الرئيس أمام محاولات انتهاك حرمة الرسائل المشفّرة.

في العام 1882 يكتب "أوغست كركوفس" عالم اللسانيات الهولندي المختص في التشفير في كتابه "التشفير العسكري": « لا يتوقف أمن منظومة التشفير على الحفاظ على سرية الخوارزمية وإنما يتوقف على سرية المفتاح. »

واقترح خبراء التشفير رغبة في تعزيز مقاومة الشفرة أمام المحاولات العنيدة لكاسريها، كلمات فارغة لا معنى لها يتم إضافتها بشكل فوضوي في الرسائل المشفرة وهو ما زاد في تعقيد تحليل التكرارات.

جدول فجنير

سيكون جدول "فجنير" الدبلوماسي الفرنسي المولود عام 1553، بمثابة الحل السحري الذي يقترح نظام تشفير على ما يبدو غير قابل للفّك مهما كان إصرار خبراء تحليل الشفرات. تكمن قوة هذا النظام ليس في استخدام أبجدية واحدة، كما كان الحال بالنسبة لشفرة القيصر ولكن في استخدام 26 أبجدية مختلفة ومشفرّة (أنظر الملحق). فحرف واحد من كلمة مثلا يتم استبداله بعدة حروف من أبجديات أخرى. سمحت سهولة استعمال هذا النظام بأن فرض نفسه على خبراء التشفير.

تخفي شفرة "فجنير" بالتالي وتيرة تكرار ظهور الحروف... ومع ذلك فإن الإستخدام المتكرر للمفتاح (في حلقة) أضعف النص. لقد أنتج التكرار في النص المشفّر بنية وانتظام عرضي للشفرة الضعيفة يحذر "س. سينغ". ولهذا السبب تمكن الخبير في تحليل الشفرات "شارل باداج" والضابط البروسي "فرديريك. دبليو. كاسيسي" من الهجوم على هذه الشفرة وتكسيرها عبر نقطتها الضعيفة : المفتاح الحلقي (clé en boucle).

أعدّ خبراء التشفير لإحباط محاولات كسر الشفرة عبر تحليل التكرارات، ما يسمّى بـ "المشتركات اللفظية التلفظية" (Chiffre homophonique) أي

تضمين النص المشفر حروفا تشترك في لفظها أي تلفظ بالطريقة عينها لكنها تختلف في المعنى.

تسمّى الأشكال التقليدية البديلة التي لم تكن تستعمل إلاّ أبجدية مشفّرة واحدة "شفرة الاستبدال وحدية الأبجدية" مقارنة مع مجموعة الشفرات متعددة الأبجديات مثلما هو الحال مع "فجنير". ومع أن النصوص المشفرة التي اعتمد فيها على التكرار والاستبدال اتسمت بالتعقيد فإنها ظلت مع ذلك ضعيفة أمام الهجمات التي استعانت بالمناهج الإحصائية. لقد قاد ذلك الخبراء إلى إضافة وظيفة النشر، خطوة إضافية جمعت بين التكرار والاستبدال بغية القضاء على العلاقات الإحصائية بين النص المشفّر والنص العادي.

المفتاح العشوائي

خضعت شفرة "فجنير" للتطوير على يد الرائد "جوزيف موبورغ" الذي كان على رأس مصلحة أبحاث التشفير بالجيش الأمريكي. أدخل الأخير مفهوم "المفتاح العشوائي" بمعنى مفتاح غامض مبهم يتكون من متتالية من الحروف الجزافية لا يتم استعمالها إلاّ مرة واحدة: مفتاح أحادي الاستخدام، لقد مكنت هذه الطريقة من القضاء على هشاشة مناهج التشفير التي تعتمد على المفتاح الحلقي لكن متطلبات هذا النظام أدى إلى الاستغناء عليه.

تطور آلات التشفير

يعّد قرص التشفير التي اكتشفه المهندس المعماري الإيطالي "ليون ألبرتي" في القرن الخامس عشر، وهو أحد آباء الشفرة متعددة الأبجديات، أول آلة تشفير تعرفها الإنسانية. ورغم بساطته على مستوى التصميم والاستخدام سهّل القرص استعمال "مربّع فجنير" للتشفير وظل مستخدما طيلة أزيد من أربعة قرون.

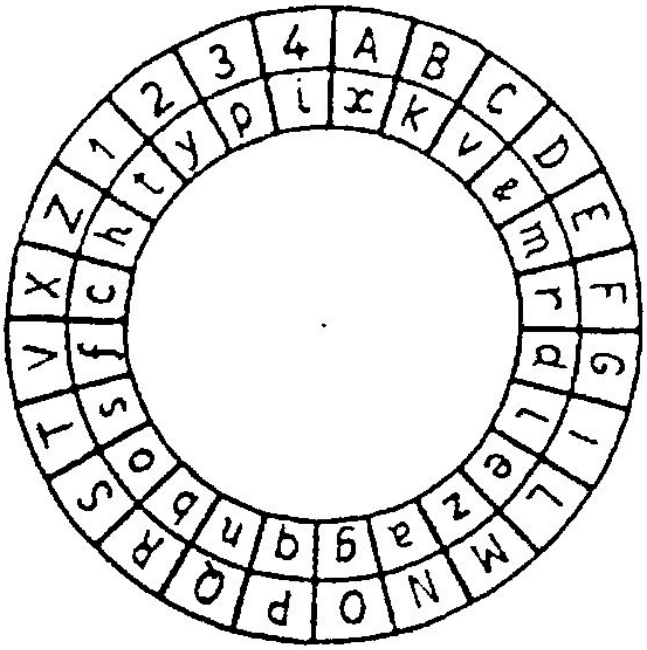

قرص "ليو ألبرتي"

اسطوانة جفرسون

ابتكر "توماس جفرسون" (1743-1826) كاتب الدولة ثم رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أداة بسيطة وغير متعبة منح لها شكل أسطوانة لتشفير وفك شفرة الرسائل. تدعّمت الأسطوانة بسلسلة من 25 أو 26 عجلة مشدودة إلى محور ثابت تدور حوله بشكل مستقل الواحدة عن الأخرى،

وفوق كل عجلّة محفور وبشكل فوضوي الحروف الـ 26 من الأبجدية. يتمثل عمل هذه الأسطوانة في تشفير الرسائل ولهذا الغرض يُعمد إلى تدوير العجلات بالشكل الذي تظهر معه الكلمة أو الجملة على خط مستقيم واحد، وستبرز الرسالة المشفّرة على واحدة من خطوط الأسطوانة ويتم اختيار من بينها الرسالة التي سترسل إلى المتلقي.

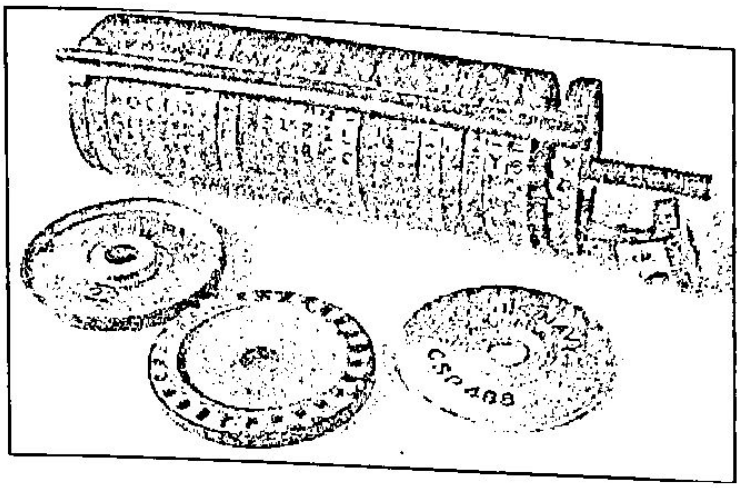

أسطوانة جفرسون

لفّك شفرة الرسالة، على المتلقي إعادة إنشاء النص الذي يصله على أحد خطوط الأسطوانة والبحث في بقية الخطوط على الجملة الواضحة المفهومة، فقط، قد تصبح الرسالة المشفّرة غير محمية في حال كان العدو يحوز على نموذج من نفس الآلة.

كان يجب انتظار القرن العشرين وموجة التكنلوجيات والتهديدات المصاحبة له ليبتكر المخترع الألماني "آرثور شربيوس" عام 1918 آلة تشفير كهروميكانيكية تسمى "إنيغما" (لغز) اتضح أن نظام تشفيرها يعَد الأعقد في التاريخ والأبحاث التي جرت لتشفير رسائلها قادت إلى ميلاد الكمبيوتر.

تتكون آلة "إنيغما" من شاشة مضيئة ولوحة مفاتيح وجدول توصيل يتكون من مجموعة من الأقراص الدوّارة (3 إلى 5) تسمىّ "الدوّرات" مهمتها التشويش وعاكس.

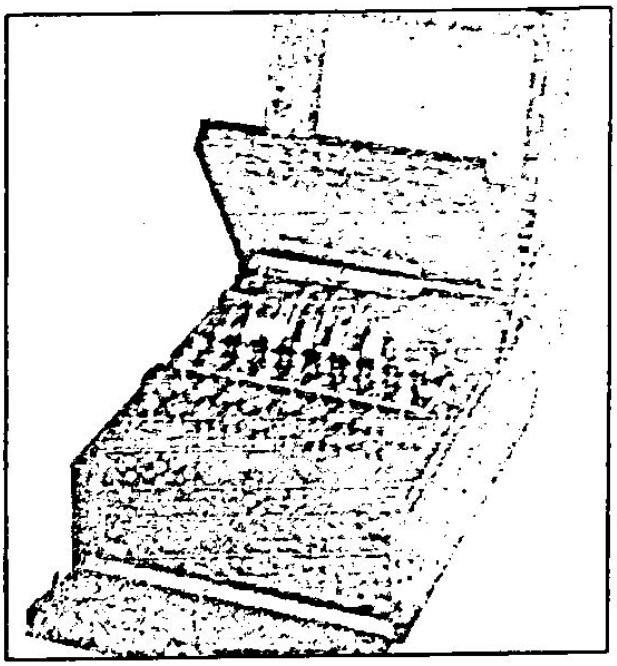

آلة إنيغما

---

129 نذكر خصيصا "إنيغما" هنا لتذكير القراء بأصل جهاز الكمبيوتر.

يرقن خبير التشفير نصه بواسطة لوحة المفاتيح فيظهر على الشاشة المضيئة ويحدث التشفير ميكانيكيا من خلال "الدوّرات" التشويشية. سيتمكن المتلقي الذي يحوز على نفس الآلة من فك تشفير الرسالة بالضغط على المفاتيح المناسبة فيقرأ النص على العاكس.

تتيح "إنيغما" انطلاقا من أبجدية بـ 26 حرفا: 17576=26x26x26 إمكانية تشويش وأزيد من 1015 مفتاح مختلف بعضه عن بعض. كان يبدو أن شفرة "إنيغما" غير قابلة للانتهاك، فالجيش الألماني لم يقدّر كما يجب هذه الجوهرة فأبقى على آلة التشفير دون تغيير يذكر منذ استخدامها خلال الحرب العالمية الأولى.

نشر "ولسون تشرشل" العام 1923 كتابه "الأزمة العالمية" الذي تضمن جانبا عن الطريقة التي كان بها الإنجليز يتحصلون على آلات التشفير الألمانية والتي بقيت إلى الآن في عداد السرية فيقول: «في أوائل سبتمبر 1914 غرقت الطوافة البحرية الألمانية "ماغديبور" في بحر البلطيق، ساعات بعد الحادثة يعثر جنود روس على جثة ضابط صف ألماني وهو يضمّ إلى صدره بيديه المتحجرتين بفعل الموت الشفرة وكتاب الإشارات الألمانية وخرائط دقيقة حول بحر الشمال وخليج "هليغولاند". في 6 سبتمبر زارني الملحق البحري الروسي وكان قد استقبل رسالة من "بترووراد" تنقل له تلك التفاصيل، وأن البحرية الروسية تمكنت بفضل الشفرة وكتاب الإشارات من فكّ على الأقل بعض الأجزاء من رسائل البحرية الحربية الألمانية. إذا كان باستطاعتنا إرسال باخرة إلى "ألكسندروف" فإن الضباط الروس، المسؤولون على هذه الوثائق سيجلبونها إلى إنجلترا.»

لم يتفطن الجيش الألماني إلى عيوب التشفير إلا بعد عشر سنوات من تسريب الحادثة، ما أدى بها إلى مراجعة قدرات ومقاومة تشفير "إنيغما" فتدعمت بـ 30 ألف نموذج منح لاتصالاتها أهم أنظمة التشفير حماية في تلك الفترة.

.

نهاية "إنيغما"

اضطرت بولونيا، المهددة من جهة الشرق من طرف الاتحاد السوفييتي الذي كان يحاول إخضاعها للنظام الشيوعي، ومن جهة الغرب من قبل ألمانيا المصرّة على احتلالها، إلى قراءة الرسائل الألمانية للبقاء على قيد الحياة، فأسست مكتبا جديدا للشفرة "Biuro Szyfrow" حيث كان النقيب "ماكسميليان شيزكي" مكلفا بفك شفرات الرسائل الألمانية.

وحسب "س. سينغ"[130] : «تمكن "ماكسميليان" من الحصول على نسخة تجارية من آلة "إنيغما" مختلفة طبعا عن النسخة العسكرية في الأسلاك الموجود داخل كل "دوّار" فكانت غير صالحة للاستعمال. وسيعود الفضل إلى الألماني.» هانس-تيلو شميدت (HTS)، الواقع تحت مرارة الشعور بالخيبة على خلفية تسريحه من الجيش بعد الحرب العالمية الأولى، في التقدم خطوات نحو فكّ الشفرة الألمانية.

سيكون "ماكسيمليان" فريسة سهلة لمصالح الإستعلام الأجنبية، لقد تم توظيفه على يد عميل فرنسي يعرف باسمه المستعار "ركس" والأخير تمكّن

---

[130] المصدر السابق، ص 160.

مقابل مكافآت سخّية للعميل من الظفر بوثيقتين اثنتين تتصل بطرق استغلال "إنيغما":

Gebrauchsanweisung für die chiffriersmaschine Enigma و Schlüsselanleitung für die chiffriesmaschine Enigma.

واستنادا إلى هذه الوثائق نجح البولنديون في صناعة "إنيغما" عسكرية. عشية الحرب، سلّم الرائد "لانجي" مسؤول مصلحة التشفير البولندية، إلى الفرنسيين والإنجليز نسختين من "إنيغما".

عكف علماء الرياضيات واللسانيات الإنجليز بشراسة على بحث مختلف إمكانيات تموضع "الدوّرات التشويشية" وفك التشفير لدى تجمّعهم في "بلاتشيلي بارك" مقر مدرسة الرمز والشفرة، ساعدتهم في ذلك ميكانيكية البحث عن المفاتيح بفضل آلة الحساب "كلوسيس" (Colossus) التي ابتكرها عالم الرياضيات "آلان تورينغ" وكذا استرجاع دفاتر بها رموز ألمانية تم الاستحواذ عليها خلال سلسلة غارات نفذها سلاح الجو الملكي ضد غوّاصات وباخرات للرصد الجوي ألمانية. لم تتمكن "إينغما" من الصمود أمام إصرار كاسري الرموز الإنجليز، فكانت نهايتها على أيديهم.

من جهة المحيط الهادي، ارتكزت الاستراتيجية التي سمحت بكسب معركة البحر بعد هزيمة "بيرل هاربور" حول اعتراض وفكّ شفرة إرساليات يابانية: «إن المعلومات الاستعلماتية التي كنّا نتحصل عليها من هذا

المصدر، يقول الجنرال مارشال، أسهمت بشكل كبير في النصر الذي تحقق وفي سلامة الأمريكيين[131].»

ظل التشفير، بالرغم من تعقيدات خططه البيانية ودقة الإجراءات التشفيرية سواء بالكلمات المفتاحية ومختلف التوافقيات التي صارت متاحة بفضل ميكانيكية العملية، يخضع دوما لمثابرة كاسري الشفرات الذين شكلّوا تحدّيا لمعدّي الشفرات كما مستخدميها.

دشّن اختراع المقحل أو (الترانزستور) العام 1947 والدارة المتكاملة أو (الشريحة الإلكترونية) العام 1959 عصر الإعلام الآلي، فبعد 11 قرنا من عصر الكندي الذي أسّس لعلم التشفير فكسّر أسطورة استحالة انتهاك الشفرة، انتشر فن التشفير باستعمال الكمبيوتر، وسيشهد علم التشفير في المجال المدني، ابتداء من السبعينيات، وعلى يد "ويتفيلد ديفي" و"مارتين هيلمان" ثورة حقيقية، رفعت من بين تحديات كثيرة، تحدي توزيع المفاتيح.

---

131 *L'Espionnage à travers les âges, op. cit.*, ص 14.

الفصل الثاني

أمن المعلومة

وسائل الإعلام الآلي والبريد الإلكتروني

تواصل شبكات الاتصال، كبنى تحظى باهتمام كبير من طرف الحكام، في التطور والتوسع، للاستجابة، في وقت محدد قصير جدا، لاحتياجات التبادل وحجمه الذي ما ينفك يتزايد يوما بعد آخر. وتجد متطلبات اقتصاد المعلومات، في عصر العولمة، الأجوبة على أسئلتها في البنية التحتية العالمية للمعلومات، حيث تحولت شبكات الاتصال إلى ميدان هو الأكثر فعالية للتنافس.

يعدّ الأنترنت، الذي كان أول الأمر مشروع الـ (DARPA) أي وكالة مشروع الأبحاث المتقدمة التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية قبل أن ينتشر عبر المعمورة، صار اليوم الشبكة الديمقراطية للاتصال الأكثر شهرة بل الأكثر إغراء ولهذا السبب أصبح ميدانيا لاهتمام الجوسسة ومراقبة التبادلات، الأمر الذي قاد إلى طرح السؤال الجوهري المتعلق بضمان سرية

الاتصالات، حيث الحاجة إلى حمايتها عن طريق التشفير. ويتطلب التدفق الهائل للمراسلات التي تنتشر باستمرار عبر شبكات الاتصال بشكل عام إلى توحيد عمليات التشفير.

التقييس أو التوحيد (Standardisation)

يتم تحويل الرسالة المكتوبة بالحروف إلى أرقام ثنائية قبل أي تشفير حسب مختلف البروتوكولات على غرار "الرمز القياسي الأمريكي لتبادل المعلومات" (ASCII).

طلب المكتب الوطني للمعيار (NBS) الأمريكي في ماي 1973، بوضع نظام معياري للتشفير يسمح لأوساط المال والأعمال بالتحادث بكل أمان.

رشحّت خوارزمية التشفير، باعتبارها الأشهر، لتكون بمثابة النظام المعياري، المصمم من قبل (IBM) ويدعى "لوسيفر" وضعه المهاجر الألماني "هورست فيستيل". عارضت الهيئة الأمريكية المسؤولة على أمن الاتصالات العسكرية والحكومية (NSA)، وهي المكلفة باعتراض وفكّ تشفير الاتصالات الخارجية، عارضت بشدة دخول هذا النظام حيز التنفيذ أخذا بعين الاعتبار صعوبات فك شفرات الرسائل بناء على الخوارزميات.

انتهى الأمر بهذه الهيئة (NSA) بالخضوع للضغط المتزايد للمستخدمين، عبر تحديد طول مفتاح هذا النظام بـ 56 (بايتس) يسمح بفك الرسائل المشفرة بلا مشاكل تذكر. تم اعتماد الشفرة المسمّاة "بيانات التشفير المعياري" (DES) رسميا في 23 نوفمبر 1976 مع منع تصديرها (حدود الأخلاق في مواجهة المخاطر؟). يستحيل على مؤسسة مزودة بأجهزة

كمبيوتر مدنية فكّ شفرة رسالة معترضة بسبب العدد الكبير جدا للمفاتيح الممكنة التي انتقل طولها اليوم إلى 128 (بايتس).

ومع ذلك، حتى يتمكّن المراسلون من تشفير أو فك شفرة رسالة (DES) عليهم الاتفاق مسبقا على المفتاح، حينئذ تطرح مسألة توزيعه التي ظلت بالنسبة لخبراء التشفير على طول مسار التاريخ الحلقة الأضعف في عملية الاتصال، إذ مهما كانت قوة نظام التشفير كان مشكل توزيع المفتاح يضعفه دوما.

ظل توزيع المفتاح طيلة قرنين من الزمن من بديهيات التشفير. في عام 1975 أوجد "وتفيلد ديفي" و"مارتين هيلمان" الحل لهذا الشكل الذي بات كابوسا يزعج المؤسسات، وعليه اعتبر هذا الاكتشاف كأكبر نجاح يحققه علم التشفير منذ اختراع الشفرة أحادية الأبجدية قبل 2000 سنة. ارتكزت فكرة "هيلمان" على مبدأ "دالة وحيدة الاتجاه" (لا رجعة فيها) من نوع Yx (modp).

باستطاعة اثنين من المراسلين أن يتبادلا بشكل واضح القيم (Y) و(p) وكلاهما أرقام أولية يتم اختيارهم أكبر أو كما (Y < p) (أنظر الملحق). لقد تم عرض الاكتشاف في جوان 1976 وتحصل على براءة الاختراع العام 1977، لكن العيب في هذا التبادل للمفتاح أنه يستدعي حضور كلا المراسلين في وقت واحد في حال رغب أحدهم في التواصل. علاوة على ذلك، إذا ارتفع عدد المراسلين يرتفع معه عدد المفاتيح وحينئذ يطرح مشكل تسيير هذه الأخيرة.

التشفير بمفتاح معلن

نشر "ديفي" و"هلمان" العام 1976 مقالا بعنوان "الاتجاه الجديد في التشفير" هزّ مجتمع المشفرين بعدما أدخلا مفهوم التشفير بمفتاح معلن أو التشفير غير التماثلي، حيث ميكانزمات التشفير وفك التشفير تبقى واضحة: مفتاح معلن يسمح بالعملية لكل شخص يرغب في إرسال رسالة مشفّرة ومفتاح شخصي أو خاص يبقى سرّا على التشفير. تمثل الحل الذي اقترحه الرجلان في إقحام مفهوم الدالة وحيدة الاتجاه، وهي دالة يمكن حسابها بوقت حدودي أو يمكن حسابها بسرعة عالية إما أن نعكسها فهي عملية صعبة في حال لا نعرف سرا اسمه "المفتاح الخاص".

إن المفتاحين وهما مرتبطان في هذا النظام رياضيا عبر وظائف نظرية الأعداد واللوغاريتم السري والمنحنى الإهليلجي (جبري)، يستحيل العثور على المفتاح الشخصي انطلاقا من المفتاح المعلن.

ستدفع هذه الفكرة التي تقرّها علوم الرياضيات التشفير باتجاه مجال البحث العلمي، فمن مجرد دراسة للسرّ تعود لقرون، ها هي الآن تصبح دراسة حقيقية للثقة. لقد توصل "رون ريفست" و"أدي شامير" و"ليونارد أدليمان" في العام 1977 إلى اكتشاف الدالة وحيدة الإتجاه، نوع جديد من التشفير، "التشفير غير التماثلي" الذي يسمح للمراسلين باستخدام نفس المفتاح للتشفير، مفتاح للتشفير مشترك يسمّى "معلن" ومفتاح خاص مختلف عن الأول، ومن هنا عدم التناظر. ستأخذ هذه الشفرة اسم (RSA) وهي الأحرف الأولى لمصمّميها (ريفست وشامير وأدلمان).

يمكن اختصار مبدأ (RSA) في صورة عدة أقفال مماثلة لا نملك لجميعها إلا مفتاحا واحدا يوزّعها مالكها على مكاتب بريد لفائدة الذين يرغبون في إرساله بريدا سريا. على هؤلاء وضع رسائلهم داخل الصناديق ثم غلقها بالأقفال. بهذا الشكل يكون نظام (RSA) قد حلّ مشاكل التحقق من البيانات (authentification) وتبادل المفاتيح مع توفير الضمانات الضرورية للتبادلات الإلكترونية.

مبدأ نظام خوارزمية التشفير بواسطة مفتاح عام (RSA)

يستند تصميم هذا النظام على استحالة تحليل عدد صحيح إلى عوامل، وهو الأساس الذي يستقي منه كل قوته. فالشخص (C1) الذي يرغب في استقبال رسائل مشفّرة يختار عددين أوليين، طبيعيين وصحيحين (p و q) (حوالي 100 عدد لكل منهما) فينتج التالي: $p \times q = n$ ثم يختار عدد ثالث e أولي مع $(p - 1)(q - 1)$ وينشر في دليل المعلومة (RSA, n, e) والتي تمثل المفتاح المعلن (أنظر الملحق). من المستحيل في وقتنا الحالي العثور على (p و q) انطلاقا من n إذا كان الأخير كبيرا جدا (200 شفرة).

خصوصية جيدة جدا (Pretty Good Privacy) (PGP)

طرح نظام (RSA) على المستوى الإجرائي مشكلا كبيرا لأن عمليات التشفير كانت تتطلب جهاز كمبيوتر يتمتع بقوة أكبر من تلك التي كانت تشترطها أشكال التشفير التناظرية مثل .(DES) وحدها الدولة والجيش والمؤسسات الكبرى كانت تملك أجهزة كمبيوتر قوية للتشفير (RSA). تم

تأسيس شركة لتسويق (RSA) تحت مسمّى "RSA Data Security Incorporated" والأخيرة طورّت منتجاتها لطرحها في السوق.

سعى "فيل زيمرمان" وهو مهندس وخبير إعلام آلي، انطلاقا من فكرة أن الجمهور الواسع له الحق أيضا في الخصوصية التي يوفرها تشفير (RSA) إلى تطوير منتج اقتصادي فعال يسمح بدخول سلس لا يحتاج من المستخدم كفاءات خاصة لاستعماله. أعطى "زيمرمان" لمشروعه اسم "خصوصية جيدة جدا" Privacy Pretty Good (PGP) مثلما ينقل "س. سينغ".

ورغبة منه في تسريع عمليات التشفير وفك الشفرات أوجد "زيمرمان" نظاما هجينا يجمع بين الخوارزميات MD5 من أجل (دالات هاش) أو دالات التجزئة ونظام RSA للتشفير غير التناظري للمفتاح من أجل حل مشكل الإرسال بكل أمان، والـ (DES) و (IDEA) الأسرع من (RSA) في تشفير النص.

لتجاوز المشكلة الشائكة المتعلقة بإرسال المفتاح التماثلي، سيتم تشفير الأخير بواسطة نظام (RSA) ولعل الإيجابي في هذه الحالة أن الرسالة التي قد تكون طويلة يمكن تشفيرها بشفرة تناظرية سريعة، فيما يتم تشفير المفتاح، القصير نسبيا، بشفرة غير تناظرية بطيئة هي (RSA).

اقترح "زيمرمان" نظاما مريحا للتشفير، سَهلٌ الاستعمال، يمكن تشغيله بواسطة جهاز كمبيوتر متوسط، ولكن عبر بث (PGP) بواسطة أحد أصدقائه على نشرية المعلومات بالنسبة لمستخدمي (النت) عام 1991. لقد طرح "زيمرمان" مشكلة "معضلة الأمن".

في عام 1993، كان "زيمرمان" موضع تحقيق من قبل هيئة محلفين كبرى، على خلفية اتهامه من طرف "أف بي آي" بتوفير أدوات لبلدان عدوة وإرهابيين كانوا بحاجة إليها للإفلات من يقظة الحكومة الأمريكية. حظي "زيمرمان" بدعم خبراء التشفير والمدافعين عن الحقوق المدنية، وتم التوصل إلى توافق يستجيب لمخاوف أمنية : على مستخدمي التشفير أن يمنحوا المفاتيح الخاصة محدودة الطول إلى المستخدمين المرّخص لهم، يمكن للشرطة ومصالح الإستعلام الدخول إليهم عبر البنية الأساسية للمفتاح العام

(KMI) Key Management Infrastructure.

في العام 1996 تم إبطال المتابعة القضائية ضد "زيمرمان"، لقد سمح لـ (PGP) بأن تكون موضع نسخ مجاني حسب

(http://www.pgpi.com).

في نفس السنة وتحديدا في الفاتح أكتوبر 1996، نشر نائب الرئيس الأمريكي "آلغور" خطابه حول المسألة، ويعتبر أنه ينبغي تشجيع « نمو التجارة الإلكترونية والاتصالات الدولية المؤمّنة بالتوازي مع حماية النظام العام والأمن القومي...» بفضل هذا الخطاب تم الترخيص بتصدير المفاتيح (56 بايتس).

من جهتها سعت "منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية" (OCDE) في اجتماع بتاريخ 26 ديسمبر 1996 بباريس إلى استصدار تشريعات دولية في هذا المجال. في السياق ذاته، أعلن صناعيون أمريكيون والمجمع الفرنسي (Bull) تشكيل تحالف لتطوير مقاربة قابلة للتصدير وعالمية لتشفير قوي.

في 17 سبتمبر 2002، سمحت فرنسا، تحت مراقبة مركز المساعدة التقنية، باستيراد وتصدير واستخدام برناماجيات التشفير (GnuPG).

دُعِي مزودي خدمات علم التشفير إلى إعداد اتفاقيات تخص فك شفرات البيانات. معنى ذلك أن على مستهلكي خدمات علم التشفير إنشاء أبواب خلفية (back door) في منتجاتهم أو يصبحون طرفا ثالثا موثوق فيه يشرّع لهم الحصول على نسخة من مفاتيح الزبائن.

وفي الجزائر، حيث تُدرّس الجامعات علم التشفير، تم في 21 جويلية 2004 إضفاء الطابع القانوني على « الكتابة الإلكترونية كنوع من الأدلة تماما كما الكتابة في الدعامة الورقية وكذا التوقيع الإلكتروني في المعاملات التجارية » (صحيفة الوطن، 2 أوت 2004). في العام نفسه تم إجازة أبحاث لما بعد التدرج في فرع علم التشفير بجامعة باب الزوار، ما فتح المجال أمام العامة بعدما ظل لفترة طويلة حكرا على بعض مصالح الدولة.

المصادقة - السرية - النزاهة

تضمن المعايير الثلاثة التالية عدم انتهاك سرية المراسلات :

- تعد السرية الضمانة التي تجعل من مالكي المفاتيح وحدهم قادرين على فك شفرة النص ؛
- تضمن المصادقة هوية المراسل ؛
- تضمن النزاهة أن الرسالة لم يتم اعتراضها في الطريق، نسمّي ذلك " المصادقة على الرسالة ".

يمكن أن نضيف لهذه المعايير الثلاثة، معيار عدم التنصّل، أي ضمان أن المرسل لن يتنكر للرسالة التي أرسلها ومع ذلك تبقى التوقيعات بخط اليد على المستندات صالحة دوما لإثبات هوية أصحابها أو على الأقل موافقة صاحب التوقيع على مضمون المستند.

لتلبية الحاجة إلى تصديق المراسلات الإلكترونية، قادت الأبحاث التي تناولت عمليات التوقيع الإلكتروني إلى وضع خوارزميات أكيدة تستند إلى اللوغاريتم السري، تم تكييف بعضها مع التوقيعات فقط فيما حققت خوارزمية التشفير بواسطة مفتاح عام (RSA) وتشفير الجَمَل (EL GAMAL) وتشفير رابين غير التماثلي (RABIN) في القوت نفسه التشفير والتوقيعات الرقمية.

سيتمكّن التشفير بمفتاح معلن منذ ذلك الحين إلى اليوم، فضلا عن التسهيلات الممنوحة لتبادل المفاتيح من توفير كل الضمانات الرقيمة التي نحتاج إلها في المبادلات الإلكترونية.

في هذا الإطار، ونظرا للقوة المتزايدة لأجهزة الكمبيوتر تم في أكتوبر 2000 اختيار معيار جديد للتشفير بالمفتاح الخاص من بين 15 مترشحا من قبل المعهد الوطني للمعايير والتكنولوجيا

National Institute of Standards and Technology "NIST"

وهذا ليحّل محل نظام (DES) المتقادم الذي صارت حجم مفاتيحه جد صغيرة. أما الخوارزمية التي تم اختيارها لتصبح "معيار التشفير المُطَور"

(Advanced Encryption Standard) "AES"

فتمثلت في "رين دول" (Rijndael) وهو اسم الاختصار لمصممية "رينجمان" و"داييم" (Rinjmen و Daemen).

يعتبر "معيار التشفير المُطَور" (AES) نظام تشفير بكتلة 128 بايتس (bits) وبمفاتيح بطول 128 و192 أو 256 بايتس، بينما معيار تشفير البيانات (DES) يكون بكتلة 64 بايتس ومفتاح بطول 56 بايتس فقط وقد كان الـ (DES) الثلاثي يستعمل عادة الشفرة بكتلة 64 بايتس بطول مفتاح 112 بايتس، أمّا اليوم فصار طول المفتاح يتجاوز 1024 بايتس فضلا عن تعميم استخدام الـ (DES) الثلاثي.

مع ذلك، قاد التوصل إلى ابتكار جهاز كمبيوتر كمّي، بفضل قدرته على التحليل إلى عوامل (factorisation) قدرا كبيرا من الأعداد بشكل آني، قاد إلى الاستغناء عن خوارزمية التشفير بواسطة مفتاح عام (RSA) ومعيار تشفير البيانات (DES) على حد سواء لعدم صلاحيتهما.

التشفير الكمّي لإسعاف واضعي الرموز[132]

إن أمن الرسالة التي تحدد المفتاح لم تبلغ الخطر الصفر، فقوة معيار تشفير البيانات (DES) تبقى مرهونة بقوة الآلات الحاسبة المستعملة. بالموازاة، تعِدُّ الأبحاث في علم التشفير الكمّي التي ظهرت منذ الستينيات، برفع التحدي الذي يفرضه أمن تبادل المفاتيح، وهي تتأسس على الاستقطاب الضوئي الذي تقود المراقبة إلى إحداث تغيير في التوّجه يلمحه

---

[132] بالإنجليزية: Quantum Key Distribution (QKD).

المتحاورون بسرعة (وفق مبدأ الشك لهايسنبورغ، الذي يفيد أن قياس نظام كمّي يخلخل هذا النظام، سيقدّم التشفير الكمّي على أنه الحل المناسب لهذه المشكلة الجوهرية.

نجح باحثون من جامعة جنيف عام 1995 في وضع نظام تشفير كمّي يشتغل على ألياف بصرية تربط جنيف بمدينة نيون (23 كلم). تسمح ميكانيكا الكمّ بالتالي ببناء مسارات تسمح بكشف أي تسلّل أو تدخّل في الإرسال. مع ذلك، يعتقد البعض أن التشفير الكمّي تم استخدامه لأول مرة العام 2004 خلال صفقة مالية هامة كانت تتطلب تأمينا مطلقا، وكذا العام 2007، عندما أبلغت المؤسسة السويسرية (id Quantique) نتائج الانتخابات الوطنية في جنيف[133].

تستخدم "الوكالة الأمريكية للبحث العسكري المتقدم" (Darpa) منذ 2004 شبكة توزيع كمية للمفاتيح. كان الإتحاد الأوروبي، كردّ فعل على برنامج التجسس الأمريكي "إيكيلون" (Echelon) وراء شبكة "التشفير الكمي لتأمين الاتصالات سيكوكس".

(Secure Communication based on Quantum Cryptography).

لقد تمكنت مجموعات بحث أوروبية في فيينا بالنمسا العام 2008 من تبادل البيانات بتشفير كمّي عبر شبكة للألياف البصرية تمتد على طول 200 كلم[134].

---

133 www.idquantique.com/news-and-events/press-releases.htm.

134 www.sciencesetavenir.fr/high-tech/20081009.OBS5075/premieremondiale-en-physique-quantique-appliquee.html

تتعدّد أشكال التهديد : الحجب الضار والتحييد وسرقة أو تغيير البيانات والتسلّل وبرمجيات التجسس والعديد من الهجمات المدّمرة لأنظمة الإعلام الآلي التي تشكّل أسلحة الحرب الإلكترونية.

ويقف وراء هذه الهجمات المتزايدة فاعلون غير حكوميون وقراصنة ونشطاء أو منظمات إجرامية مما يستدعي أن تضع الدولة خبراتها في مجال تأمين أنظمة الإعلام الآلي محل التطوير المستمر والصيانة فضلا عن نشرها بين الفاعلين الاقتصاديين بالأخص متعاملي الشبكات.

وافق الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي رسميا في 17 جوان 2008 على تخصيص الوسائل البشرية والمادية التي تسمح بالتجسس على العالم انطلاقا من شبكات الإعلام الآلي، ونتحدث منذ ذلك الحين عن "معركة إلكترونية نشطة" (LIA). ونظرا لخطورة الهجمات الإلكترونية أعلن وزير الدفاع الفرنسي "جون إيف لودريان" أمام موظفي "مديرية حماية وأمن الدفاع" (DPSD) شهر مارس 2014: «سواء كانت ناجمة عن تآمر أو تخريب تدعونا هذه التهديدات إلى مراقبة هذا الفضاء والحفاظ عليه وأن نكون في مستوى الدفاع عنه ولو بطريقة هجومية، أعتقد أن الأمر رهان حقيقي يتعلق بالمستقبل يستدعي منّا كل تجندنا... إنه رهان يتعلق بالسيادة[135]»، بهذه الطريقة، مثلما تذكر المجلة، برّر الوزير الفرنسي

---

[135] مذكور في مجلة "لوبوان" الفرنسية بتاريخ 7 أوت 2014.

توظيف 500 مهندي وتخصيص ميزانية 1 مليار أورو لخمس سنوات لصالح "مديرية حماية وأمن الدفاع" (DPSD).

التسلّل الإلكتروني

ألهمت حوسبة البيانات ومعالجتها وتخزينها أو تبادلها نوعا آخر من التجسس، يمتد من اعتراض البريد عبر الشبكة الإلكترونية – كما هو الحال بالنسبة لكاسري الشفرات – إلى التسلل داخل الأنظمة المعلوماتية بغرض السرقة أو الإتلاف أو التلاعب بالبيانات المخزّنة داخل الأنظمة فضلا عن تدمير الأخيرة. ولم يكن يختلف جواسيس هذا العصر الذين يطلق عليهم اسم "هاكرس" (hackers) أو "كراكرس" (crackers) عن "كاسري الرموز" إلاّ في الهدف من هجماتهم. فإذا كانَ النشاط بالنسبة للصنف الأوّل لدواع استراتيجية وأيديولوجية وإرهابية أو تجارية فإن نشاط الصنف الثاني كان تطبعه النرجسية واللعب.

استخدم المحاربون الجدد "النبش" و"السلامي" و"حصان طروادة" أو "قنابل منطقية" وفق الهدف المتوخّى. وحاولت المصالح الخاصة، بالنظر إلى موهبة هؤلاء ومقدراتهم على التسلّل إلى الأنظمة المعلوماتية وكشف مواطن الضعف في الشبكات أيضا، تحديد هويتهم بغرض الاقتراب منهم للاستفادة من خبراتهم. سوف يتم إدراج مكافحة الإرهاب الإلكتروني من الآن فصاعدا ضمن مهام الجوسسة المضادة.

الهجوم العاصفة (Tempest-attack)

لم تكن منهجية "العاصفة" تعني في الأصل سوى عملية تسمح بالدراسة والمراقبة المناسبة للإشارات الصادرة عن أجهزة معالجة وبث المعلومات مثل الكمبيوتر، والأخيرة يتم اعتراضها قبل أن يتم إرسالها. مع مرّ الزمان صار معنى الكلمة أجهزة الإعلام الآلي المحمية بفضل هذه المنهجية التي تمنع انتشار الإشارات الإلكترومغناطسية خارج مكان العمل. لم يسمح ببيع هذا العتاد الذي يغربل الإشارات ويمنع انتشارها في الخارج إلى الحكومات إلا بترخيص.

الفيروسات (Les virus)

يستخدم الفيروس الإلكتروني ضيفه (الكمبيوتر المصاب) لإعادة إنتاج نفسه والانتشار في أجهزة كمبيوتر أخرى. وساهمت ديمقراطية الدخول إلى فضاء الأنترنت في تسريع انتشار الفيروسات الأكثر حداثة.

حصان طروادة

نعني بـ "حصان طروادة" البرامج التي يجري وضعها في برنامجيات (التشفير/ فك الشفرة) وتكون قادرة فور ذلك على إرسال المفتاح إلى المصمّم عندما يكون فك الشفرة مهيأ أو إرسال المعلومات المتعلقة بالمستخدم في مرحلة التشفير على التوالي :

في هذا السياق تذكر برقية لوكالة الأنباء الفرنسية بتاريخ 18 فيفري 2000 أن مستخدمي الشبكة العنكبوتية نددوا بوجود برمجيات للتجسس (backdoor) تكون شركة ميكروسوفت قد وضعتها في منتجاتها التجارية بهدف خدمة احتياجات مصالح الإستعلام الأمريكية في نهاية المطاف.

طالب المدافعون عن ميكروسوفت بتوضيح هذه الاتهامات الخطيرة وراحوا يتحدثون عن وجود اختلالات داخل (وندوز) وبالتالي وجود مخاطر على أمن الأنظمة. لقد بدأ اليوم محرك البحث (غوغل) يثير المخاوف لقدرته على تجميع كل هذا الكم الهائل من البيانات حول المستخدمين.

لا وجود على ما يبدو لتأنيب الضمير في هذه الحرب الصامتة المتسمة بالتضليل والشك أو الريبة. إن أي عتاد مستورد يحمل خطر أن يكون مفخخا. الأمثلة التالية تجسد هول هذه الحقيقة :

«كشفت نتائج تحليل آلات تم استوردها من الخارج العام 1980 لفائدة مؤسسات حساسة أن المولّد للمفاتيح العشوائية الذي تم اقتناؤه من عند شركة أجنبية لم يكن كذلك في حقيقة الأمر " هكذا يقول المهندس الذي عاين الجهاز. لقد أكد أن الشركة المصنّعة تخضع للتوجيهات الخبيثة للهيئات المكلفة بالتشفير التابعة لبلاده، ويتحدث والغضب يتملكه أن شركة أجنبية أخرى لجأت إلى نفس الخبث عندما راحت تضع خطية خوارزمية، من شدة بساطتها لم يكن ممكن إعادة بناء توليد المفاتيح».

مهما يكن لا تقدم الحلول الإلكترونية المستوردة من الخارج كل الضمانات. وأمام هذا الكم الكبير من الوسائل التي تسعى إلى سرقة

المفاتيح أو قراءة الرسائل المشفّرة يتم الاقتراح على مستوى شبكة النت برمجيات الحماية لصد الاختراقات .

من جانبها، وفي محاولة لمنع هذه الهجمات، أخذت ميكروسوفت محمل الجد التهديدات التي تطال نظام الاستغلال، المستهدف الرئيس من طرف (الهاكرس) فاعتمدت خطوة هندسية وقائية للحماية من المصدر ضد غالبية التهديدات. ويحوز نظام الاستغلال (Windows XP/SP2) على سبيل المثال على جدار حماية (firewall) يتوفر على 900 وحدة ضبط التسيير المركزي للأنظمة القائمة لضمان المزيد من الوظائف والعمل الأوتوماتيكي في تسيير التحديثات (mises à jour) وأنظمة الحماية على الشبكات ومحطات العمل عن بعد. لقد دخلت الشركة ما يمكن تسميته بـ "الحوسبة الموثوقة".

وهكذا، راح المصمّمون وصانعو أجهزة الإعلام الآلي يستثمرون وقتهم في البحث ووضع البرامج المتخصصة في كشف الثغرات الأمنية المدمجة في أنظمة الاستغلال. يجب أن نذكر مرة أخرى أنه مهما كانت الحماية الإضافية المتصلة بسرية المعلومات، تبقى قوة التشفير وفق الوظائف أحادية الاتجاه، متوقفة على قدرة الآلات الحاسبة الرقمية على تفكيك إلى عوامل أولية عدد معين.

لا يمكن لأي دولة أن تثق في عتاد أو أجهزة غير أجهزتها مهما كانت الإمكانيات التي قد تستثمرها لهذا الغرض، لهذا السبب لا تتوقف وسائل التشفير عن التطور لدواع أمنية بالطبع. إن الثقة في هذا المجال معناها عدم المسؤولية. وفي هذا الصدد يلخّص الأميرال "بيير لاكوست" هذا

التحذير فيقول: «أدرك قدماء الحلفاء، وقد أصبحوا منافسين لبعضهم البعض، أنه من أجل البقاء في هذا العالم الذي لا يرحم، لا يجب أن تكون تحت رحمة وسائل إتصال قد تكون ضعيفة وهشّة[136].» ولعل التصريحات التي كشف عنها العميل السابق بجهاز الاستخبارات الأمريكية "إدوارد سنودين" ذات الصلة بوضع وكالة الأمن القومي (NSA) مسؤولين أوروبيين تحت التنصت تؤكد ذلك. لكن أمن الاتصالات ما يزال محل مراجعة على اعتبار أن هذا النوع من القرصنة لم يعد حكرا على الدول، بعدما تغلّب "الهاكرس" على بعض بروتوكولات التشفير وتمكنوا من بناء هوائيات تحويلية (antennes relais) ما من من شأنها إضعاف الاتصالات النقالة.

---

[136] In S. de Lastours, *op. cit.*, ص 15.

الخاتمة

أصبح سلاح الإستعلام، من أول نشاطاته البدائية المتمثلة في جمع المعلومات، المحدودة في الزمان والمكان، إلى اليقظة الاستراتيجية، الدعامة الرئيسية لأية استراتيجية، قبل أن يغدو مع مرّ الزمان، الدرع الواقي للأمم.

و تمنح المنهجيات التي يعتمد عليها الإستعلام، في مثل هذا العصر المطبوع بالحريات، والحضور المستمر للروح النقدية التي ترعى الشك وعدم التحيّز الذي يكتسي منه المصداقية، الطابع العلمي الذي بات يثير اهتمام العلوم الاجتماعية.

إن العالم يعيد تشكيل نفسه في عصر المعلومات ومعه تتكيّف الخيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع شروط العولمة التي تفرض مقاربات جيوستراتيجية جديدة على مستوى الدفاع والأمن.

وفي سعيها إلى إبعاد كل عائق يقف في طريقها نحو بسط هيمنتها، تتفاوض العولمة مع الدول حدود ما تبقى من السيادة الوطنية غير القابلة للانتهاك بعدما أخضعت الباقي لاختصاص القانون الدولي والهيئات المنبثقة عنه (أنظمة هيئة الأمم والبنك العالمي والأفامي والمنظمة العالمية للتجارة

ومؤسسات التحكيم التجاري والمداولات غير الحكومية...) ثمة قطيعة مع مفاهيم كانت مصالحة خلال فترة غير بعيدة وأصبحت الآن تقليدية فيما لا شيء في الأفق يدعو إلى الاطمئنان حقيقة. في هذا الصدد كتب "إيفلين توفلير" يقول: «الرمي بحضارة جديدة على هذا الكوكب ثم التأمل في السلم والطمأنينة هو قمة السذاجة الاستراتيجية[137]».

منذ سقوط جدار برلين (تَعَوْلم) التهديد وصار يفرض مراجعة بعض الإجراءات ذات الصلة بفصل مهام وصلاحيات مصالح الإستعلام. وفي الواقع يتقاسم الأمن الخارجي والأمن الداخلي أكثر فأكثر ميادين الاختصاص تماما كما الشرطة عندما يتعلق الأمر بالإستعلام الإجرامي.

ويبرز التنسيق المتزايد بين مصالح الإستعلام في مجال مكافحة الإرهاب بالأخص عقب تفجيرات 11 سبتمبر 2001، بعدما أدركت الولايات المتحدة الأمريكية أن أمنها لا يتوقف فقط على مقدراتها الدفاعية مثلما يخلص إليه تقرير (NIC)[138]: «إن الدفاع عن التراب الأمريكي سيبدأ من خارج الولايات المتحدة الأمريكية... سيتوقف نجاح الحرب على الإرهاب التي تقودها الولايات المتحدة على قدرات وعزيمة كل بلد منخرط في الحرب على مستوى ترابه نفسه. ستقود طبيعة الجهود التي ستبذلها واشنطن لتعزيز مقدرات القوات المحلية في بلدان أخرى [...] إلى تقوية هذا التعاون.» ومن شأن تصور آخر للاستعلام على الشبكة، يأخذ بعين الاعتبار الأشكال المتداخلة

---

137 المصدر المذكور سابقا، ص 35.

138 تقرير الـ"سي أي آي" مذكور في المصدر السابق، ص 250.

انعدام الثقة للحرية أن تحمي الأخير في الاستمرار قادرا على مواجهة التحديات المتجددة

وبإمكان الترابط الناجم عن العولمة أن يوسع التداول ليشمل إلى مكافحة تجارة المخدرات التي تصنف عليها الدول الصناعية الأنواع الخاصة للعنف والمجاعات غير الشرعية التي تعبر الأنهار عبر الحدود أو إلى عرض البحر، وتستخدم البحرية للعرقلة في الماضي تكيفا أصعب . أكثر تعقيدا وأكثر تخريبا، تضاف إليها الآثار الناجمة عن تكنولوجيات الإعلام والاتصال (NTIC) التي توفر انتهاك . عادة — تعد أهم للتشكل الجريمة -- تمثل جسمها جديدا يتعدى الأشكال ينتمي إلى اللامركزية باستمرار ولا يمكن مواجهته إلا عبر إعادة التفكير في عمل الوطني في إطار تعدي الدولي تعميمه

ولا شك أن تحسين أخر للإستعلام، أكثر مواءمة للعنصر تجسد بتعاظم والسير الجديد الذي يأتيه الاعلام والاتصال والمعرفة، من شأنه أن يسمح باستيراد المعلومات الحساسة للمجتمعات والتنبؤ بالأزمات القادمة. ثمة تحد أخر، في مجال الوعي من مستوى التأهيل المطلوب. تفرض خبرات جديدة.

بل هجوم الإطارات ومحاولة الدول المتخيلة استعمالها أو دمجها في مجتمعات الدول أجهزة بهيكلة تكثر من قبل المنشأ عن المنكر الاستعانة فيها إذا استعصت هذه الخبرات بالمقابل كمصادر ولا تحضر لتلقن المعرفة. ومن هناك عمليات عناصر تسعى إلى تنظيمها السلطات، ويتم تكوينها مع حصر المعلومات. أن تفتح أمام هذه الخبرات مجالا للتدبير

ضروري لدعم وبحث محاور الاجتهاد الذي يقود إلى التطور. إن زوال الحدود لصالح "كبار" هذا العالم من المفروض أن يسمح بالمقابل بتجاوز الشرخ التقليدي بين الشمال والجنوب وبين الفقراء والأغنياء.

لقد كسّر الترابط الموجود بين العالم بفعل ثورة المعلوماتية والاجتياح الكبير لوسائل الإعلام الجديدة، الحدود التي كانت إلى وقت قريب، محددة في الفضاء. صارت المعلومات ثروة وعامل سلطة ونفوذ. وسيتحدّد دور المصالح الخاصة في هذه المجالات الجديدة للاتصال من حيث انخراطها في تسيير تدفق المعلومات. ولم تتأخر شبكة الأنترنت (Web)، المتاحة للجميع، في وضع بين يدي مصالح الإستعلام بالتأكيد إمكانيات أخرى للتوثيق والبحث والتعاون والاستفادة من الخبرات، بمعنى تنويع مصادرها. سيقاس الاستغلال الأمثل لهذا المصدر (أي الويب) بقدرة المصالح الخاصة على الانفتاح على البحث التطبيقي في مجال جمع ومعالجة المعلومات المتحصل عليها عموما.

أدّى تطور تكنولوجيات الإستعلام الإلكتروني، والتكنولوجيات الحديثة للإعلام، واهتمام البحث العلمي بالأسس المعرفية (الإبستمولوجية) للإستعلام، ومساهمة العلوم الدقيقة والفيزياء في مناهج التشفير، أدّى إلى تغيّر ملمح (بروفايل) إطار الإستعلام وكذا هيئات التسيير والتنسيق داخل المصالح الخاصة أكثر فأكثر. لقد تم بناء "علم الإستعلام".

أملت الهيئات المنتخبة ديمقراطيا، بالإضافة إلى الثورة التكنولوجية، تطبيق مبدأ الشفافية على نشاط مصالح الإستعلام، وقد حاولت الأخيرة

الامتثال إلى الأمر لكن دونما تعارض بين الشرط الأمني وحماية الحريات، فيما الحلّ الأكثر استخداما هو البحث في أشكال الرقابة البرلمانية.

إن تعدّد الاعتداءات "المباشرة" وكذا تعدد مرتكبيها وصعوبة تحدد هويتهم، يستوجب إشراك المواطن في الدفاع عن مصالح بلاده وأمنها. ويبقى المجتمع المدني أي الجمعيات ومراكز الأبحاث ومختلف المجموعات المتعددة الآفاق، الجبهة الأولى والأخيرة، التي عليها يستند قطاع الأمن الوطني ومنها يستقي قوته في كل الحالات. هذا التصور لا يمكن تجسيده إلاّ إذا كانت حماية واحترام الدولة لحقوق الإنسان في مجال الأمن والدفاع من جهة وحرية الصحافة واستقلالية وسائل الإعلام من جهة أخرى حقيقية، لأنه إذا لم يحكم القانون العلاقات بين بعضنا البعض ستحكمها القوة. ووحده القانون من يحمينا من العنف، ووفق هذا المنظور تضع بعض الدول تبعا لنوع التهديد استراتيجيات للتربية المدنية من المفروض أن تقود إلى ترسيخ ثقافة الإستعلام، كجزء لا يتجزأ من روح الدفاع، هو نفسه جزء لا يتجزأ من الشعور بالانتماء.

بالجزائر، وبغرض تسهيل "نقاش مدني حول الدفاع الوطني" نظمت لجنة الدفاع الوطني بمجلس الأمة خريف 2001 الأيام البرلمانية الأولى حول الدفاع الوطني، قبل أن تنظم اللجنة نفسها في عام 2002 ملتقى آخر حول موضوع " العولمة والأمن " دعت إلى حضوره أكاديميين وباحثين. وخلال افتتاح الأشغال صرح رئيس اللجنة أن على الغرفة التشريعية العليا أن « تشجّع وتحث وتنظّم إذا استلزم الأمر وأن تكون دائمة الاستماع لنقاشات

المواطنين حول المسائل الهامة للمجموعة الوطنية والدفاع أحد هذه المسائل، والعولمة والأمن ثانيها...»

و في الولايات المتحدة الأمريكية تكفلت وزارة الدفاع الأمريكية ببرامج التعليم العسكري الهادفة إلى تحسيس المواطنين الأمريكيين حول روح الدفاع. أما في فرنسا، وبهدف نشر ثقافة الإستعلام داخل المجتمع شاركت مجلة "الإستعلام والعمليات الخاصة" التي تصدر عن دار "لارمتان" في حملة تبسيط المعرفة حول الحرب السرية، سواء تعلق الأمر بالإستعلام نفسه أو مكافحة الجوسسة المضادة أو العمليات السرية والخاصة أو الحرب البسيكولوجية.

وبالنسبة لليابانيين، يعدّ فعل الإستعلام واجبا وطنيا، وفي نظر الألمان فإن العمل في قطاع الإستعلام هو القيام بمهّام السادة، أما بالنسبة للإنجليز، فالإستعلام نشاط يقوم بها النبلاء... وبناء عليه فإن الإستعلام الذي كان عمل مسؤول استثنائي يمتد في أيامنا هذه إلى كل المجتمع.

ستبقي التطورات الدائمة للوضع الدولي على معاناة مصالح الإستعلام، هذا السلاح الدائم الذي ظل يقاوم الهجمات الخبيثة أو الساذجة ولم يتوقف يوما ولن يتوقف عن التطور وتزويد نفسه بالتجهيزات اللازمة للتكيّف مع الأولويات الجديدة. إن الإستعلام، بمعنى "المعرفة" وهو يضع على عاتقه مهمة التوقع والاستباق يكون قد أوكل لنفسه الوظيفة الاستراتيجية.

الملاحق

الملحق الأول

منهجية هوبير

وضع ريتشارد هوبير طريقة من ثمانية مراحل ترتكز على مبادئ علم نفس المعرفي والتحليل المساعد على أخذ القرار ومناهج التحليل العلمي. تعارض منهجية هوبير التحليل الحدسي.

تطبيق المنهجية

1 – التعرف على كل الفرضيات الممكنة والمحتملة. مطلوب العمل جماعيا، فكل محلل له طريقة مختلفة في التفكير في الإمكانيات. تقصي الفرضيات بعضها البعض، بمعنى آخر، وجود فرضية صحيحة تجعل كل الفرضيات الأخرى خاطئة.

2 – وضع قائمة للأدلّة الهامة لكل فرضية، يمكنها تبرير فرضية من أخرى فضلا عن الحجج المؤيدة والمعارضة

3 – إنشاء مصفوفة، نضع في الجزء العلوي الفرضيات التي تم تحديدها سابقا وعلى الجانب مختلف الأدلّة. بعد ذلك، تقييم كل دليل

على حدا لمعرفة مصداقية الفرضيات التي تم الاحتفاظ بها. بإمكان المحلل، من أجل ملء المصفوفة، استخدام الرموز (-/+) والحروف (I ,C و N) أي (Cohérent, Incohérent, Neutre)) الغرض من ذلك التوصل إلى تشكيل حكم وتقييم درجة مواءمته مع بيانات المصفوفة.

4 – تهذيب المصفوفة. مراجعة الفرضيات وشطب الحجج والأدلّة التي لا تحوز على أية قيمة بالنسبة للتشخيص النهائي. يمكن بعد إنشاء المصفوفة، أن نشعر بضرورة تقسيم بعض الأدلة أو الفرضيات أو جمعها مع بعضها البعض أو حذفها. من جهة أخرى تعّد الصياغة الدقيقة للفرضيات حاسمة بالنسبة للاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من التحليل، إذن لا يجب التردّد في إعادة صياغتها. يقترح هوير الاحتفاظ بالعناصر التي تم حذفها في قائمة منفصلة

5 – استخلاص استنتاجات مؤقتة حول الاحتمال النسبي لكل فرضية. يتعلق الأمر هنا بحساب عدد النقاط السلبية الخاصة بكل فرضية. يعدّ هذا التصنيف الأولي تصنيف خام يسلط الضوء على مختلف درجات الأهمية للأدلّة. هدف هذه الخطوة هو السماج للمحلّل لقضاء وقتا أطول مع ما يبدو له الأقل احتمالا

6 – تحليل الفرضيات المفتاحية والأدلة التي تظهر كعناصر أساسية. توقّع النتائج في حال كانت الأدلة خاطئة، أو مضللة أو محط فهم مختلف.

7 – تقرير النتائج. تقديم الاحتمال النسبي لكل الفرضيات وليس فقط تلك التي تبدو الأكثر احتمالا. إذا كان تقرير النتائج سيستخدم كأساس في

عملية أخذ القرار سوف يكون من المفيد بالنسبة لصاحب القرار معرفة الاحتمال النسبي لكل خيارات الاستبدال

8 – تحديد العناصر المستقبلية التي من شأنها تعديل التحليل والتنبيه إليها. يجب النظر دوما إلى استنتاجات التحليل على أنها مؤقتة وبالتالي من المفيد تحديد مسبقا ما قد يجعلك تغيّر رأيك.

الملحق الثاني

الإستعلام يساعد على اتخاذ قرار، يسبق ويتابع الفعل.

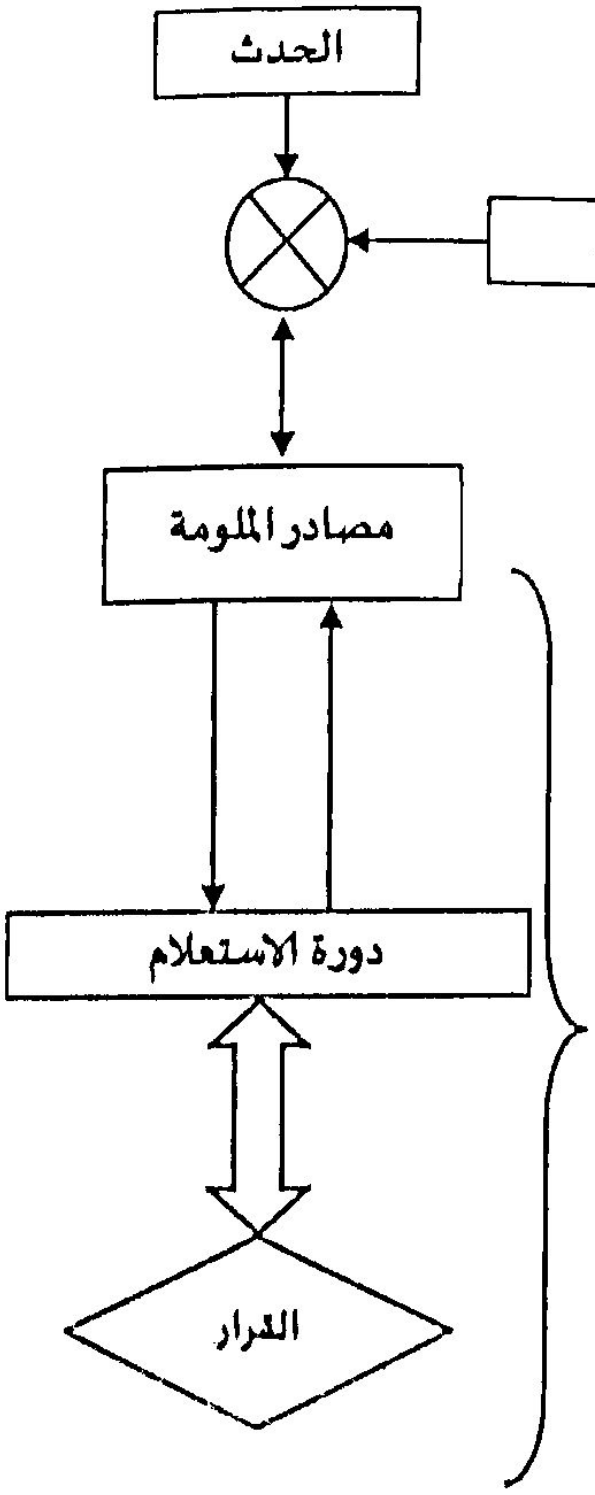

.. يتعلق الأمر بالوصول إلى معرفة موضوعية للوقائع انطلاقا من مصادر موثوقة تخضع للنقد المستمر بناء على استفهام معقول ومنهجي... إن الوقائع والمعلومات الإستعلاماتية التي تعرّفك على الأحداث ليست في حد ذاتها، كلية، ذات معنى إذا لم تكن مرتبطة ببعضها البعض وتخضع للترتيب والتحليل أي للاستغلال. يقود استغلال المعلومات في حد ذاته إلى بحوث جديدة، ضمن مسار جدلي لا نهاية له لكنه يسمح ليس للوصول إلى الحقيقة، التي لا يمكن الوصول إليها في المطلق، ولكن الاقتراب منها.

دورة المعلومات في عملية اتخاذ القرار

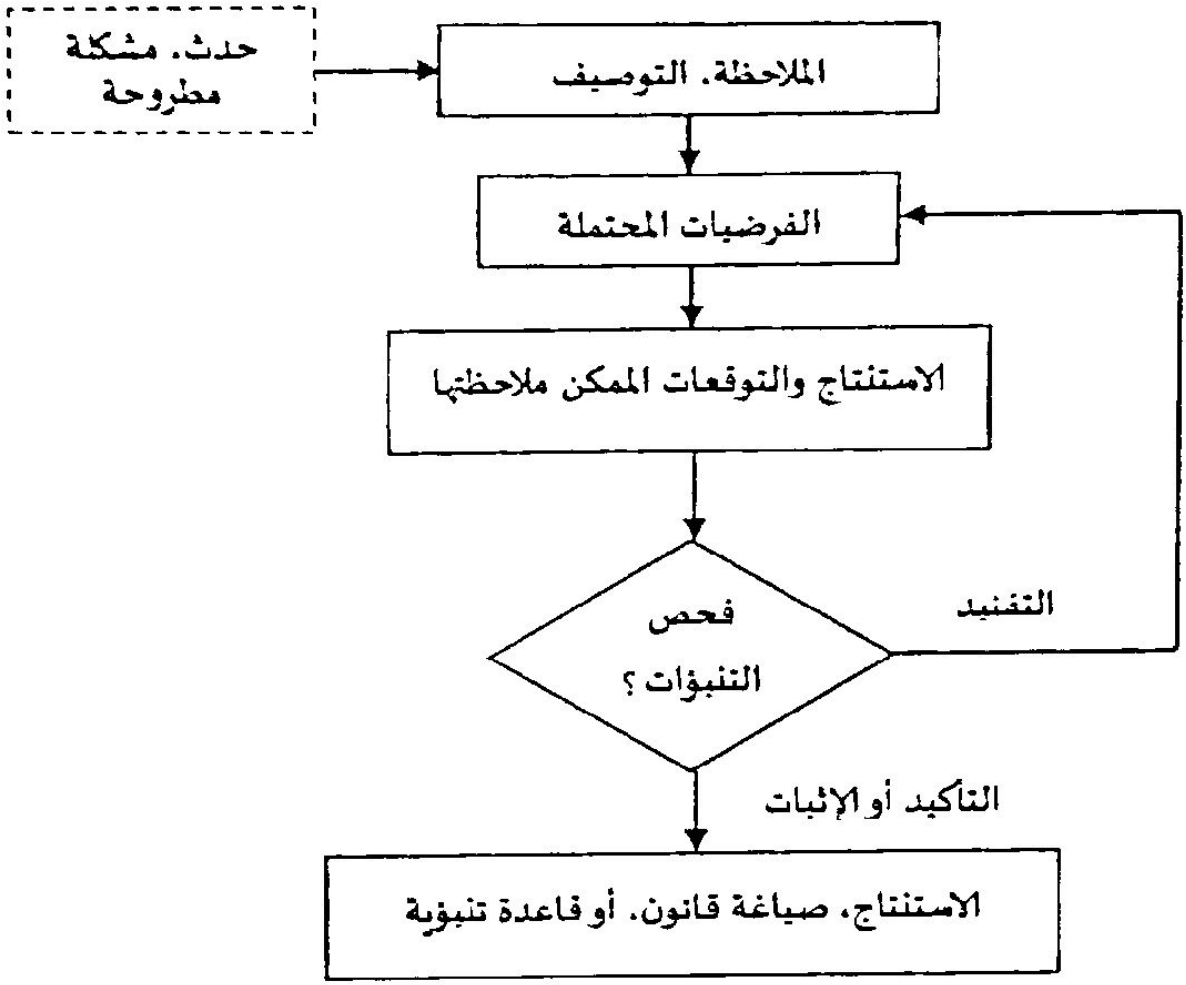

المنطق الافتراضي .الاستنتاجي

(1) طرح المشكلة. (2) صياغة الفرضيات التي تسمح بشرح المشكلة. (3) الاستنتاج بناء على معارف تجريبية. (4) فحص تجريبي (الوثائق، الوقائع...) (5) في حال التفنيد، تغيير الفرضية وصياغة أخرى. يحدث أن يعاد النظر في الملاحظات.

الملحق الثالث

1. مربع فيجنير

يتعلق الأمر ببناء مربع يسمى "جدول فيجنير" انطلاقا من الأبجدية وتحديد كلمة مفتاحية.

Clair	a	b	c	d	e	f	g	h	i	j	k	L	m	n	o	p	q	r	s	t	u	v	w	x	y	z
1	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A
2	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B
3	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C
4	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D
5	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E
6	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F
7	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G
8	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H
9	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I
10	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J
11	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K
12	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L
13	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M
14	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N
15	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O
16	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P
17	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q
18	S	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R
19	T	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S
20	U	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T
21	V	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U
22	W	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V
23	X	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W
24	Y	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X
25	Z	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y
26	A	B	C	D	E	F	G	H	I	J	K	L	M	N	O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z

مثال :

النص العادي : évolution satisfaisante

الكلمة المفتاحية : JOURNAL

التشفير : نكرّر كتابة الكلمة المفتاحية على طول النص إلى غاية أن يتوافق كل حرف في النص العادي حرفا في الكلمة المفتاحية.

JOURNALJO URNALJOURNALJ

النص المشفّر: évolution satisfaisante

إن الحرف (e) في النص العادي يقابله في الكلمة المفتاحية حرف (J). سيتم استخدام الأبجدية التي تبدأ بحرف (J) في جدول فيجنير. على هذا السطر سيشفّر (e) بحرف (N).

يتوافق الحرف (v) في النص العادي مع الحرف (O) في الكلمة المفتاحية. العمود الذي يبدأ بحرف (O) سيكون الأبجدية لتشفير الحرف (v) التي تتوافق في الجدول مع الحرف (J)...

NJICHTTXB MRGIDOOCJNNEN

إن الفرق بين تشفير "قيصر" أحادي الأبجدية وتشفير "فيجنير"، أن الحرف (i) مثلا الذي يظهر ثلاث مرات في المثال السابق نجده مشفّرا بثلاثة حروف مختلفة :

$$i = \left\{ T, I, C. \right\}$$

يظهر الحرف (N) في النص المشفّر أربع مرات ويستبدل نفسه بالحروف (e , a , n)، وبالتالي يتم التشويش على عملية تحليل الترددات.

2. شفرة ADFGVX

	A	D	F	G	V	X
A	8	p	3	d	1	N
D	i	t	4	o	a	h
F	7	k	B	c	5	z
G	j	u	6	w	g	m
V	x	s	V	i	r	2
X	9	e	Y	0	f	q

3. جدول التشفير

مثال :

النص العادي : jour j 1/10/2003

التشفير :

الخطوة الأولى : الاستبدال

j o u r j 1 1 0 2 0 0 3

إن الحرف "ز" موجود في المفترق ما بين السطر (G) والعمود (i, ٨) فيصبح (GA). نفس الشيء بالنسبة للحرف (0) الذي يوجد في المفترق ما بين السطر (D) والعمود (G). يتم استبدال الحرف (0) بـ (DG)...

GA DG GD VV GA AV AV XG VX XG XG AF

ز	o	u	r	ز	1	1	0	2	0	0	3
GA	DG	GD	VV	GA	AV	AV	XG	VX	XG	XG	AF

الخطوة الثانية : التغيير أو التحويل

أ - اختيار الكلمة المفتاحية :

مثال : SOLAIR

ب – وضع النص المشفّر على نفس خط الكلمة المفتاحية :

G	A	D	G	G	D	V	V	G	A	A	V	A	V	X	G	V	X	X	G	X	G	A	F
S	O	L	A	I	R	S	O	L	A	I	R	S	O	L	A	I	R	S	O	L	A	I	R

S	O	L	A	I	R
G	A	D	G	G	D
V	V	G	A	A	V
A	V	X	G	V	X
X	G	X	G	A	F

كتابة النص المشفّر وفق تنظيم الأعمدة

A	I	L	O	R	S
G	G	D	A	D	G
A	A	G	V	V	V
G	V	X	V	X	A
G	A	X	G	F	X

كتابة النص المشفّر وفق الترتيب الأبجدي للكلمة المفتاحية

النص المشفّر : GAGGGAVADGXXAVVGDVXFGVAX

4. وظيفة $Y^x \bmod(P)$

مثال : $Y = 11, P = 17$ تصبح الوظيفة $11^x \bmod(17)$

يختار المراسل (س1) عدد (A) = 5 يحتفظ به في السر. تصبح الوظيفة بالنسبة إليه :

$$11x \bmod(17) = 11^5 \bmod(17) = 10$$

يختار المراسل (س2) عدد B =7 يحتفظ به في السرّ. ستعطيه الوظيفة التالي :

$$11^x \bmod(17) = 11^7 \bmod(17) = 3$$

يتبادل المراسلان (س1) و(س2) نتائجهما في النص العادي :

يأخذ (س1) نتائج (س2) ويحسب : $3^5 \bmod(17) = 5$، فيما يأخذ (س2) نتائج (س1) ويحسب : $10^7 \bmod(17) = 5$.

5 هو المفتاح.

5. مبدأ نظام خوارزمية التشفير بواسطة مفتاح عام (RSA)

يريد (س1) إرسال نص مشفّر لـ (س2). يشفّر (س1) رسالته بشفرة تماثلية (DES, IDEA).

حتى يتمكن (س2) من قراءة الرسالة، يجب على (س1) إرسال المفتاح (DES) إلى (س2) والذي بواسطته تم تشفير النص. سيبحث عندئذ عن المفتاح العام الخاص بـ (س2) وبواسطته يشفّر المفتاح (DES). ما على (س2) سوى استخدام مفتاحه الخاص (RSA) لفكّ شفرة المفتاح التماثلي (DES) الذي بواسطته يقرأ رسالة (س1).

أ – التشفير :

في حوزة المراسل س2 (n و e). مثال :

$n = 29 \times 37 = 1073$ و $e = 5$، الأول مع 28 و 36

– سيحوّل رسالته، مثلا كل حرف بموقعه في الأبجدية :

M = 01 21 20 01 02 12 05 01 21

– يقطّع (س2) إلى قطع متساوية في الطول كل عدد أصغر من (n).

تصبح رسالته :

M = 012 120 010 212 050 121

– يرفع (س2) بعد ذلك كل قطع (B) إلى أس (e) ويستدعي (C) بقية القسمة الإقليدية لـ (B^e) بواسطة (n).

يشكل (C) قسم مشفّر يرسله ($س^2$) إلى ($س^1$)

M = 969 589 211 788 553 554

ب – فك الشفرة :

يعمد (س1) أول الأمر إلى تحديد المفتاح D (السري) لفك الشفرة :

$D*e = 1 \bmod (p-1)(q-1) \Rightarrow D = 605.$

– يرفع (س1) كل قسم من الأقسام إلى أس D فيجد B عن طريق أخذ بقية القسمة الإقليدية لـ CD بواسطة n.

النتيجة : M = 012 120 010 212 050 121

تتعرض هذه النتيجة إلى إعادة التنظيم بتجميع الأعداد إثنان إثنان :

M = 01 21 20 01 02 12 05 01 21

6. توقيع (الجمل)

تلخيص :

المفتاح العام : (p) الأول (يمكن تقاسمه بين مجموعة مستخدمين)

g < p (" " " " ")

$y = g^x \bmod (p)$

المفتاح الخاص : x / x < p

التوقيع :

يختار (k) بشكل عشوائي وأول مع (p - 1).

a : (التوقيع) = $g^k \bmod (p)$.

b : (التوقيع) = $M = (xa + kb) \bmod (p-1)$.

الفحص: يكون التوقيع صحيحا في حال :

$y^a a^b \bmod (p) = g^M \bmod (p)$

يجب على هواة فك الشفرات أن يكونوا قادرين على رفع التحدي الذي وضعه كل من "س. سينغ" في كتابه الهام "تاريخ الرموز السرية" والمؤلفان " ف. برجيرون" و "أ. غوبيل" في كتابهما "علم التشفير من العصور القديمة إلى الإنترنت".

قاموس المصطلحات

العميل (Agent) : شخص يعمل سرّيا لصالح مصلحة استعلام. لا يعد العملاء أعضاء في مصالح الاستعلام.

عميل التأثير (Agent d'influence) : شخص في خدمة مصلحة الإستعلام تستعين به بالنظر إلى موقعه الاجتماعي أو وظيفته للتأثير على الرأي العام أو القرار في الاتجاه الذي ترغب فيه.

العميل النائم (Agent dormant) : شخص مزروع في بلد مستهدف يظل رهن إشارة مصلحة الإستعلام وقت الحاجة

العميل المزدوج (Agent double) : شخص يعرض خدماته أو مساهماته لمصلحتين استعلاميتين اثنتين

صندوق البريد : (Boîte aux lettres) : مكان يتفق عليه شخصان، فيه توضع الرسائل أو الأشياء التي يرغب في توجيها طرف إلى الآخر. قد يكون المكان تجويف داخل شجرة أو محّل أو سلة مهملات أو فورة الماء داخل المرحاض.

الشفرة (Chiffre) : نظام تطبيقي لإخفاء معنى رسالة من خلال استبدال كل حرف في النص العادي (الأصلي) بحرف آخر. يسمّى النص العادي الذي يحوّل إلى "نص مشفّر" (cryptogramme).

التشفير (Chiffrement) : عملية تقضي بتحويل نص عادي إلى نص غير مفهوم يسمّى "نص مشفّر" أو (cryptogramme).

المفتاح (Clé) : متغير (محدد) يسمح بتطبيق خوارزمية التشفير العام (التشفير باستخدام المفتاح المعلن). هو بمثابة ميثاق مسبق في كل نشاط تشفيري

الرمز (Code) : مبدأ يقضي بإخفاء اسم أو رسالة عبر استبدال كل حرف أو مجموعة حروف برموز أو مجموعة رموز أو إشارات مختلفة.

الجوسسة المضادة (Contre-espionnage) : هيئة هدفها كشف التجسس ومواجهته. عملية تهدف إلى كشف وتحييد أي تهديد يستهدف الأمن القومي ناتج عن نشاط مصالح استعلام أو منظمات أو عملاء ينشطون في مجال الجوسسة المضادة والتخريب والعمليات الانقلابية والإرهاب.

مكسّر البرامج (Cracker) : برماجية (logiciel) تفرز كلمات السرّ إلى أن تعثر عليها. هي أيضا برمجية متخصصة في كسر الرموز (الشفرات) وكلمات السرّ أو نظم حماية البرماجيات.

التشفير (Cryptologie) : علم الكتابة السرّية بمختلف أنواعها تشمل في الآن نفسه التشفير وتحليل الشفرات.

هجمات الحرمان من الخدمات Denial of Service Attacks (Ddos) : هجمات تتم عن طريق إغراق المواقع بسيل من البيانات غير اللازمة مما يسبب بطء الخدمات أو توقفها مؤقتا.

فك الشفرة (Déchiffrer) : تحويل النص المشفّر إلى نص واضح عادي بفضل تطبيق، في الاتجاه المعاكس المواثيق المكوّنة للشفرة.

فك الشفرة (Décrypter) : تحويل النص المشفّر إلى نص واضح عادي دون معرفة المفتاح. هو بحث تقوم به هيئة أركان العدو التي تكون قد تحصلت على رسالة يوجهها خصمها إلى الجهة المعنية إمّا عن طريق التنصت أو التجسس أو مساعدة أو طرق أخرى عديدة.

جاسوس (Espion) :

– شخص يكلف بجمع المعلومات بشكل سري بغرض إرسالها إلى الخصم.

– كل برماجية تحتوي على برنامج للتجسس يدرج في شبكة لجمع المعلومات وإرسالها في غفلة من مستخدمي البيانات المخزنة في جهاز الكمبيوتر تحديدا.

هاكر (Hacker) : هو برنامج للإعلام الآلي الغاية منه البحث عن الاختلالات في أنظمة الإعلام الآلي ووسائل استغلالها.

الإستعلام الأمني (Renseignement de sécurité) : هو استعلام حول طبيعة واحتمالات ونوايا المنظمات والأشخاص الأعداء الذين ينخرطون أو ممكن أن ينخرطوا في نشاطات تجسسية أو تخريبية أو انقلابية أو إرهابية.

التبديل (Substitution) : هي عملية تشفير تقضي بتغيير قيمة الحروف، أي استبدال كل حرف في النص العادي بحرف من الأبجدية أو برمز أو صورة تبعا لقانون المراسلة التي يشكّل المفتاح.

التشفير المضاعف (Surchiffrement) : هو الدمج بين مناهج التبديل والتغيير.

عميل (Taupe) : عميل يتم توظيفه داخل منظمة في بلد ما بغرض الحصول على معلومات تخص الخصم بشأن نشاطات هذه المنظمة. عادة ما نتحدث عن عميل متسلل.

التغيير (Transposition) : هو عملية تشفير تخلخل ترتيب الحروف في رسالة.

FISINT (Foreign Instrumentation Signal Intelligence):

اعتراض المراسلات الكهرومغناطيسية التي تكشف عن النصوص أو عن إطلاق الأجهزة الفضائية أو الجوية أو أجهزة الغوص.

TELINT (Telemetry Intelligence) : استخبارات القياس.

MASINT: (Measurement and Signal Intelligence) : استخبارات القياس والإشارة.

LASINT (Laser Intelligence) : استخبارات الليزر.

OPINT (Optical Intelligence) : الإستخبارات البصرية.

NUCINT (Nuclear Intelligence) : الإستخبارات النووية.

IMINT (Imagerie Intelligence) : استخبارات التصوير.

VISINT : الاستخبارات المرئية.

PHOTINT : استخبارات التصوير الفوتوتوغرافي.

VIDINT : استخبارات الصور والفيدو.

المراجع

- Alexandre Adler, *Le Rapport de la CIA, comment sera le monde en 2020*, éd. Robert Laffont, 2005.
- Hocine Aït Ahmed, *L'esprit d'indépendance*, éd. Barzakh, 2002.
- Charles-Robert Ageron, *Les Algériens musulmans et la France 1871-1919*, éd. Bouchène, 2005.
- Jean-Pierre Alem, *L'Espionnage à travers les âges*, éd. Stock, 1977.
- Joudi Attoumi, *Le Colonel Amirouche, entre légende et histoire*, Imprimerie Hasnaoui.
- Jacques Baud, *Encyclopédie du Renseignement et des Services Secrets*, éd. Lavauzelle, 2002.
- Moulay Belhamissi, *L'Europe et la guerre secrète (1518-1830)*, Alger, éd. Dahleb.
- Zbigniew Brzezinski, *Le Grand échiquier*, éd. Bayard, 1997.
- Bernard Caraion, *Intelligence économique, compétitivité et cohésion sociale*, La documentation française, 2003.
- Martin van Creveld, *La Transformation de la guerre*, éd. Du Rocher, 1998.
- Abdelhafid Amokrane El Hassani, *Mémoires de combat*, éd. Dar El Oumma, 1998.
- Genovefa Etienne et Claude Moniquet, *Histoire de l'espionnage mondial*, Paris, éd. Felin, 2002.
- Marc Ferro, *Le Livre noir du colonialisme*, éd. Robert Laffont, Paris 2003.
- Loup Francart, *Maîtriser la violence, une option stratégique*, Economica, 2002.
- Jacques Frémeaux, *La France et l'Algérie en guerre*, Economica, 2002.
- Michael Hardt et Antonio Negri, *Empire*, éd. Exils, 2002.
- Abdelkrim Hassani, *Guérilla sans visage*, éd. OPU, Alger 1988.

- Samuel P. Huntington, *Le Choc des civilisations*, éd. Odile Jacob, 1997.
- Henri Jacquin, *La Guerre secrète*, éd. Olivier Orban, 1977.
- David Kahn, *La Guerre des codes secrets*, éd. Inter Edition, Paris 1980.
- Henry Kissinger, *La Nouvelle puissance américaine*, Nouveaux Horizons, 2003.
- Brahim Lahrèche, *La lance et le bouclier*, 1999.
- Mohamed Lamkami, *Les Hommes de l'ombre*, Alger, éd. ANEP, 2004.
- Sophie de Lastours, *La France gagne la guerre des codes secrets*, éd. Tallandier, 1998.
- Gilles Perrault, *Le Secret du Roi*, éd. Fayard 1992.
- Pierre J. André, *Confréries religieuses musulmanes*, éd. La maison des livres, Alger, 1956.
- Janusz Piekalkiewcz, *Les Services secrets d'Israël*, éd. Pensée moderne, 1977.
- Bruce Schneir, *Cryptographie appliquée*, Vuibert.
- Simon Singh, *Histoire des Codes Secrets*, JC Lattes, Paris 1999.
- Georges-Henry Soutou, Jaques Frémeaux, Olivier Forcade, *L'Exploitation du renseignement*, Economica, 2001.
- Jaques Stern, *La Science du secret*, éd. Odile Jacob, Paris 1998.
- Sun Tzu, *L'Art de la guerre*, Flammarion, 2000.
- Alvin Toffler, *Les Nouveaux pouvoirs*, Fayard, 1991.
- Alvin et Heidi Toffler, *Guerre et contre guerre*, éd. Fayard, 1994.
- Arnold Toynbee, *L'Histoire*, Elsevier Séquoia, 1978.

المواقع الإلكترونية :

- www.ens.univ-every.fr
- www.primenumbers.net/Renaud/fr/crypto
- http://fr.wikipedia.org/wiki/Cryptographie
- www.wakaziva.pagesperso-orange.fr
- www.cnrs.fr/sciencespourtous/heisenberg.htlm
- www.idquantique.com/news-and-events/press-releases.htm.
- www.sciencesetavenir.fr/high-tech/20081009.OBS5075/premiere-mondiale-en-physique-quantique-appliquee.html.
- http://lectures.revues.org/14686
- http://lectures.revues

فهرس

تقديم.....9

تمهيد..... 13

الجزء الأوّل : الإستعلام.....21

الفصل الأوّل : جذور هيئات الإستعلام 35

الإستعلام في قلب الحضارات..... 35

هيكلة مصالح الاستعلام 39

في بيزنطة..... 43

في العالم العربي – الإسلامي 44

الفصل الثاني : ميلاد المصالح السرّية في أوروبا والصين..... 49

في إيطاليا 50

في روسيا 53

في إنجلترا..... 54

في النمسا 59

في فرنسا 60

التنظيم الجديد للاستعلامات الفرنسية 64

في ألمانيا 64
الوحدة الألمانية : الثنائي بيسمارك – ستايبر 64
في اليابان 68

الفصل الثالث : الإستعلام في ظل النزاعات المسلحة 73
الحرب العالمية الأولى 73
صراع مصالح الاستعلام / ظهور فروع التنصت 73
انهيار الإمبراطورية العثمانية 76
ميلاد الاتحاد السوفييتي 81
الحرب العالمية الثانية 84
ميلاد مصالح الاستعلام الأمريكية 84
مصالح الإستعلام الإسرائيلية وميلاد دولة إسرائيل 93
نشاطات الإستعلام خلال الحقبات الاستعمارية 96
في الجزائر 98
فترة الاحتلال 98
نشأة مصالح الإستعلام الجزائرية 109
حرب التحرير 115
الفيتنام 152
الاحتلال العسكري الفرنسي 152
مطاردة هوشي منه 153
الخلافة الأمريكية 155

الفصل الرابع : الحرب الباردة : حرب عالمية ثالثة ؟..... 161
عصر العولمة..... 170

الفصل الخامس : دورة الإستعلام 177

الفصل السادس : وسائل المراقبة الإلكترونية 205
استعلام ميدان المعركة..... 205

الفصل السابع : الإستعلام الاقتصادي..... 215
كرونولوجيا الأحداث..... 220

الجزء الثاني : علم التشفير..... 231
الفصل الأول : من كيمياء السرّ إلى علم السّر 233
في العصور القديمة 236
سكيتال 238
شفرة قيصر..... 239
مربع بوليب 240
تحليل الشفرات عند العرب..... 241
في الغرب 246
شفرة بلاصو 248
تطور آلات التشفير..... 251

الفصل الثاني : أمن المعلومة 259
وسائل الإعلام الآلي والبريد الإلكتروني..... 259

التقييس أو التوحيد 260
التشفير بمفتاح معلن 262
مبدأ نظام خوارزمية التشفير بواسطة مفتاح عام 263
خصوصية جيدة جدا 263
المصادقة – السرية – النزاهة 266
التشفير الكمّي لإسعاف واضعي الرموز 268
تهديد أمن البيانات 270
التسلّل الإلكتروني 271
الوسائل المستخدمة 272
الخاتمة 277
الملاحق 283
قاموس المصطلحات 299
المراجع 305

تمّ الطبع من طرف مطبعة سارة

درارية 2015.

محمد خلفاوي ضابط متقاعد من الجيش الوطني الشعبي من قدماء أشبال الثورة، حاصل على شهادة مهندس في الإلكترونيك من المدرسة الوطنية للمهندسين والتقنيين (سابقا)، المدرسة العسكرية متعددة التقنيات (حاليا) وشهادة ماجستير في « إلكترونيك التيار القوي » من أكاديمية العلوم والتقنيات العسكرية في زغرب بكرواتيا.

إن تطور مصالح الإستعلام التي أصبحت عبر الزمن الدرع الواقي للأمم، يتضح من خلال وثائق واسعة تتناول فترة زمنية تمتد بعيدا في التاريخ. وإذ يرغب الكاتب في توضيح مجال ظل إلى اليوم مبهم وهو مجال الإستعلام، فإنه يحرص في الوقت نفسه على تحسيس القارئ بالأهمية التي تمثلها هذه المؤسسة الحيوية بالنسبة للأمة.

لقد ظلت مصالح الإستعلام ساهرة دوما في كل ما يمس أمن بلدانها ولهذا السبب لم تتخلف مثلما يكشف هذا الكتاب عن التكيف المستمر مع التغيرات الدولية وتطور التهديدات. وبفضل المنهجية في عملية توضيح الأوضاع وفهمها بات الإستعلام أداة هامة تفرض نفسها يوما بعد آخر في البحث العلمي.

" وهو يكسّر محظورا، يمسح محمد خلفاوي بجرة قلم، كل الأحكام الجاهزة التي طالما روجت حول جهاز الاستعلام، إن هذا الكتاب، ذو الطابع الأكاديمي، في متناول كل الذين يرغبون في تشكيل نظرة حول النشاط الإستراتيجي البارز لـ «رجال الظل »".

« سليمان مدار »
أستاذ علم النفس الإجتماعي

"إذا كان طموح محمد خلفاوي رفع القداسة عن موضوع الإستعلام وإطلاع القارئ على الكفاح المستميت لمصالح الاستعلام، فإنه لا شك قد وفق ".

« الدكتور أحمد عظيمي »

9 789931 591115